2272
.69553
.349

2272.69553.349
Muzaffar
al-Islam

DATE ISSUED | DATE DUE | DATE ISSUED | DATE DUE

DUE JUN 15 1991

DUE JUN 15 1992

DUE JUN 15 1993

DUE JUN 15 1994

عبد العالي المظفر

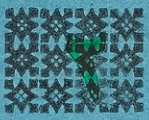

١-٣

الإسلام
والتطور الاجتماعي

٦٧١٤

عبد العالي المظفر

al-Muẓaffar, ʿAbd al-ʿAlī

al-Islām

الاسلام
والتطور الاجتماعي

2272
.69553
.349

بسم الله الرحمن الرحيم

لا ادعي ان هذا الحديث الذي بين يديك : فتوى عملية او نتيجة اجتهادية او تفسير حرفي ، وانما هو محاولة للاستفادة من بعض اضواء الاسلام ، ومن سنى هديه في واقع حياتنا الخارجية واستجابة لما نأمله لها من تطوير وتقدم في ظلال عقيدتنا المباركة وبوحي من التشريع الاسلامي الزاهر ومن الله التوفيق

٢٧ ذي الحجة سنة ١٣٨٣ هـ

عبد العالي محمد حسن المظفر

1-15-68 1985

بسم الله الرحمن الرحيم

ان دراسة التشريع ـ اي تشريع كان ـ يمكن ان تظهر باسلوبين وفي نطاقين ، فتارة يدرس التشريع على صعيد الفكر والمفاهيم المجردة لتختبر امكانياته فى ما يمتلك من فلسفة وآراء في إقناع العقل والضمير بما جاء به من اهداف ، وبما شرع من احكام ولتعرف مدى قابلياته على مقارعة المبادئ التي تصطدم وإياه في الفلسفة والاسلوب وفى الوسيلة والغاية .

وتارة اخرى يختبر هذا التشريع على ضوء الحياة العامة بما تحتوي عليه من مجالات متشعبة ، ومؤثرات عديدة ، ومراحل متعاقبة ، وحياة نابضة بالرغبات والمتطلبات .

والهدف من هذه الدراسة على هذا المستوى : هو الاطلاع على قدرة ذلك التشريع بما يملك من اساليب واحكام واهداف على التغلغل فى كافة هذه المجالات المتنوعة ، واستيعاب ابعادها . ومعرفة الحلول التى يقدمها ازاء المشاكل التى يرغب المجتمع فى التخلص منها وازالتها من طريقه . ثم لتعرف مدى مهارته ونظرته الشاملة

في تشجيع كافة الطاقات الممكنة ، والجهود الانسانية الخيرة ، والثروات الطبيعية المتنوعة فتستغل فى خدمة الازدهار والتقدم ، وخدمة الانسانية في سيرها الحياتي الدائب .

***

والتشريع او المبدأ حينما يريد ان يجسد اهدافه فى الحياة ويطلب نجاحاً فى العمل والتطبيق ، وايماناً من اتباع وانصار ، لابد له ان ينظر الى كلا الجانبين : فيوفر كافة المفاهيم التى تظهر قوية في اسلوبها ومقنعة للفكر والضمير . ويوفر ايضاً كافة الأساليب والطرق التي تحقق نجاح ذلك التشريع في مرحلة العمل والواقع .

والاسلام في تشريعه نظر الى كلا الصعيدين : صعيد الفكرة والعقيدة وصعيد البناء والتطبيق . لذا وجب على الكتاب المسلمين في العصر الحاضر ان يوفروا عناصر البحث التي تتطلبها كلتا المرحلتين معاً .

والباحث المسلم فى هذه المرحلة من عمر الزمن قد بذل جهوداً مشكورة فى إظهار المفاهيم التي يتبناها دين الاسلام ، وفي الكشف عن الثروة التشريعية التي يمتلكها هذا الدين العظيم . مستهدين بالوسائل والطرق التي آمنوا باعتبارها واهميتها في الوصول الى دراسة احكامه ، والتعرف على المنابع الأصيلة لتشريع هذا الدين .

ولقد عمل الكتاب المسلمون بما حملوه من اخلاص واعتقاد

بمبدئهم الاسلامى ، ولما آمنوا به من اصالة (الامة الاسلامية) واصالة مقوماتها الفكرية والعقيدية ، ووفرة امكانياتها وثرواتها الطبيعية : على تنوير افكار مجتمعهم الاسلامى ، ووقايته من العواصف الفكرية المتنوعة التي هبت على المجتمع الغربي والاوربي عامة لأسباب عديدة قد نتعرض الى جملة منها خلال البحث . فتمكن الباحث الاسلامى بما قدمه من جهود : ان يجنب المجتمع الاسلامى كثيراً من المزالق التي اراد الاعداء له ان ينزلق فى منزلقها الخطير ، وينبهه الى نقاط الضعف التي تحملها تلك الافكار المستوردة

***

لقد استغل الغرب فترة الخمول والضعف التي طرأت على المجتمع الاسلامي عامة نتيجة انحرافه الطويل عن الخط الاسلامي في مجال التشريع والحياة ، فغمروا بلادنا فى مرحلة ما من هذه الفترة بالمبشرين والقساوسه ! وهم يدعون الى (النصرانية والايمان بدين المسيح) والكفر بمبدأ محمد ودين الاسلام ؟ !

وعملوا بكل الوسائل الممكنة المباشرة وغير المباشره ، فعمدوا الى فتح كليات تقوم بطقوسهم الدينية ـ ولا تزال ـ تفرض على جميع منتسبيها الاخذ بشيء من الثقافة النصرانيه ومفاهيمها ، واسسوا المستشفيات التي تقرأ فيها على المرضى آيات من الانجيل وبعض تعاليم المسيح ، والميتم الذي يحتضن اليتامى

من الطفال المسلمين ، واقاموا المدارس وخصوصاً الابتدائية منها لتستقبل اولاد المسلمين الصغار فيعرضون فيها الى التربية النصرانية بكل وسائلها واغرائها . . وهى من اخطر الثغرات الموجودة في مجتمعنا الاسلامي ، والتي تعمل على الاضرار بكيان المجتمع العقائدي . والطابع العام لدعوة القساوسة هذه هي الترهب والانقطاع عن الحياة ، وتقوية الروح ، والقيام بطقوس دينية خاصة في جو من انغام الموسيقى الحالمة ، والعطور المنبعثة من (مبخرة الكنيسة ودخانها) ؟ !

وبذلوا كافة الوسائل المادية والخلقية ، واستغلوا جميع نقاط الضعف آنذاك . ولكنهم مع كل هذا لم يكونوا امام العلماء المسلمين والفكر الاسلامي العظيم إلا كريشة فى مهب الريح ، وهزمهم المسلمون بآيات قرآنهم الناطق (وابتغ فيما آتاك الله الدار الاخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا . . .) (١) (يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما احل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين * وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً واتقوا الله الذي انتم به مؤمنون) (٢) قل آمنا بالله وما انزل علينا وما انزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما اوتي موسى

(١) القصص ٧٧

(٢) المائده ٨٧ و ٨٨

وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون) (١) .

وكانت هزيمة ساحقة لافكارهم الظاهرة بالروح والمبطنة بالاستعمار والاستغلال .

***

وتلتها حملات اخرى وهي تحمل معها بعض الافكار التي لا تنطلق من بداية واحدة . فجاءت الفلسفة الرأسمالية حينا من الزمن تحت شعار (الديمقراطية والحرية) ؟ ! وهي تدعو الى حرية الفرد في كل شيء حتى في السلوك الاخلاقي !! وتقديس رغباته الى ابعد حد ، واقامت على هاتين النظرتين تشريعاتها المختلفه سواء فى الاقتصاد او الاجتماع او القوانين المختلفة الاخرى .

ووصل تيارها الى اراضينا فى فترة الاستعمار الغربي وبسبب من الخمول والذبول الذي اصاب المجتمع الاسلامي فى ذهنيته العامة وفى شخصيته الاسلامية العقائدية حصلت هذه الفكرة الوافدة على انصار كثيرين بدون حساب . وبدون عناء وارهاق . واخذ اولئك الانصار الذين فقدوا الثقة بكل مقوماتهم يدافعون عنها بحرارة وتبجح . واستمر الدفاع عنها من اولئك حتى بعد ظهور فشلها فى بيئتها عند التطبيق ؟ ! وظهور اعراضها الاجتماعية الخطرة

(١) آل عمران ٧٩

وظهر الفكر الاسلامي من جديد وهو يذكر الامة بمسؤوليتها العامة وثبوتها في عنق كل فرد (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) (مثل المسلمين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) (من أصبح ولم يهتم بشؤون المسلمين فليس بمسلم) (١) فليس كل مايتمكن عليه الفرد جاز له ان يفعله وإن أضر بالهيئة الاجتماعية ، وليس كل مادر على الفرد من ارباح فهو حر في ممارسته وان غمر المجتمع بالمآسي والآلام . لذا من الواجب على كل مسلم لحاظ متطلبات المسؤولية العامة وواجباتها ليكون المجتمع كتلة متماسكة ، لا افراداً موزعين ومتضاربين في المصالح والرغبات .

فأقام الاسلام تشريعاته في ضوء من هذه النظرة العامة ، سواء في الميدان المالي او الاقتصادي ، فشرع الحقوق المالية العامة (والذين في اموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم) (٢) « . . . والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » (٣) وما هذا الحق المعلوم في الآية الاولى وايجاب الانفاق في سبيل الله في الآية الثانية الا تأكيد لهذه

---

(١) وردت احاديث كثيرة بهذا المضمون .

(٢) المعارج ٢٤ . ٢٥

(٣) ٣٤ التوبة

المسؤولية العامة فى الميدان المالي والاقتصادي عامة ، واكدها ايضا في الميدان الاجتماعي ، حيث امرهم بالتعاون المستمر في الخير والصلاح ليكونوا يداً واحدة فى عملية التقدم والبناء ، وعيناً ساهرة تحمي المجتمع من الأثم والعدوان « . . وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان » (١) .

وتجد هذه النظرة بيسر ووضوح في المجالات التشريعية الاخرى . فرد مسلم قد حصل على حقوقه المشروعة ، وتعاون متواصل مع افراد مجتمعه الاخرين .

***

ثم جاءت عاصفة هوجاء اجتاحت ديارنا بفضاعة وشدة ، فالانحراف عن الخط الاسلامي قد اخذ يعطي ثماره المرة ، وثقافة المستعمر المسمومة والاستهتار الذي تركه فى ديارنا قد بدا يلفظ اعراضاً خطرة ، ونقاط الضعف التي استغلها والثغرات التي فتحها فى كيان الامة قد بلغت ذروتها .

ووصلت الاعراض التي بذر بذورها المستعمر من تفرق كلمة ومبادىء منحرفة ، واستغلال اقتصادي ، وانحلال خلقي وتخلف علمي وثقافي ، الى نتيجة شوهاء قاسية ، والى مادية ملحدة لا تؤمن بالقيم الانسانية عامة ، كما لا تؤمن باهداف المجتمع وسعادته

---

(١) التوبة ٣

وكان ذلك على شكل (شيوعية مستوردة) وكانت تحمل معها مناقضات في الفكرة ! وارهاب فى السلوك ! فهي الى جانب كونها مادية لا تؤمن بخالق الحياة ولا بالمثل الانسانية الرفيعة تريد من الانسان ان ينكر ذاته ويسحق كيانه ليذيبه في المجتمع الكبير ؟! وكان ذلك هو المناقضة الفكرية الصارخة التي لاتنسجم ، والشذوذ المبدئي الذي لا ينجح فى التطبيق بكل وسيلة الابسوط الارهاب والقسوة .

إن العقل والفكر والضمير لا يمكن ان يؤمن بامكانية التنازل عن المتطلبات الانسانية والحاجات الشخصية فى سبيل(العدم واللاشيء) أوفي سبيل زغردات عاطفية وخيال وهمي ودعايات لا رصيد لها من صميم الحياة وواقعها . وهذا هوالسر فى فشل الشيوعية عند اولى خطواتها وتراجع اصحابها عن السير في طريق الارهاب الجماعي إلى اخر الخط .

واطلق الاسلام كلمته قوية مدوية « . . . افي الله شك فاطر السموات والارض . . . » (١) « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق . . » (٢)

وان المجتع حق ، والفرد حق ، فكلاهما كائنان متلازمان لا ينفك احدهما عن الآخر وليس اداء حق المجتمع متوقفاً على نسيان

(١) ابراهيم ١٠

(٢) فصلت ٥٣

الفرد ذاته ومتطلباته « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا » فالروح الجماعية اذن امرمهم فى نظر الاسلام لم يغفلها حين اعطى للفرد حقوقه ولـكن ليس الطريق الى هذا الشعور الجماعي الـكفر والالحاد وما يرتـكز عليه من ظلام في الضمير وحس مادي ضيق وليس الطريق الى التعاون الوثيق وحشية او إرهابا ؟ ! وخدمة المجتمع ليست الوسيلة إليه إلغـاء الاحاسيس الفردية والرغبات الانسانية ، فلـكل منهما حق يطالب به صاحبه ، ولـكل منهما مستلزمات يقوم الانسان بادائها .

ومن العوامل المساعدة التي يسرت الرد على هذه الافـكار المتضاربة ، وانتصار قوى الايمان عليها ، اتصاف اصحابها بالفضاضة والقسوة في واقع سلوكهم العملي ، وكانت معالم هذا السلوك قد مثلت بوضوح اهداف المبادىء المادية الملحدة تجاه الانسان والحياة .

* * *

ثم جاءت مبادىء اخرى آمنت بنفس هذه الآراء في ماديتها وانحرافها إلا انها صبغتها بالفاظ براقة ، واصطلاحات اقل خطورة من اصطلاحات المبادئ المادية الأخرى ؟! وهي تحـاول بذلك الانسجام الشكلي مع تقاليد المجتمع وعقائده باعتبارها عقبـة فى طريق تحقيقها !! ولـكنها في واقعها تحمل نفس الطابع من العنف والانحراف !! ولقد حمل غرور بعض اصحابها الى ان يكشفوا

عن هويتهم في اولى خطواتهم ، فاعلنوا عن اعتزازهم بالمبادئ المادية المستوردة ، وانهم يعتبرونها مصدراً من مصادر الهامهم وتشريعاتهم ؟!

ومع ذلك كله فلم يكلفوا العلماء المسلمين كثيراً من الجهد ومزيداً من التوعية والتثقيف من اجل معرفة اهدافهم الأخيرة ، وتبيان الخط الذي يسيرون عليه ، فنهاية المبادئ المادية التي تقدمتهم كانت على موعد معهم بعدما حاولوا السير في نفس الطريق الذي سار به من كان قبلهم واتباع نفس الأساليب التي سلكوها ، حيث ان الكتاب المسلمين بفضل جهودهم العظيمة وحملتهم التثقيفية المباركة ، قد جعلوا الارض حمما تتفجر تحت اقدام الفلسفة المادية الملحدة ، أو الذين يريدون ان يقلدوها في اهدافها واساليبها .

فالباحث الاسلامي إذن قد قطع شوطاً بعيداً في تبيان اهداف الاسلام الخيرة وفي غرس الثقة في نفوس المجتمع عامة ، والشباب المثقف منهم خاصة ، واطلاعهم على امكانياتهم ، وامكانيات مبدئهم الاسلامي العظيم ، وعرض تاريخهم الاسلامي الزاهر ، ومكانهم القيادي الذي حصلوا عليه في فجر تاريخ الدعوة .

ثم كشفوا لهم عن مساوئ الأفكار المستوردة على اختلاف اشكالها ومصادرها ، وقد اعانتهم على ذلك الحقائق المخزية التي اتصف بها اعداء الاسلام واعداء الاهداف الانسانية الخيرة .

ولكنني اعتقد اننا الآن فى بداية مرحلة جديدة من مراحل وعينا الاسلامي الزاهر ، فالمجتمع الاسلامي الآن بحاجة ملحة الى الاطلاع على ما يملك دينهم من اساليب خيرة ، واهداف عظيمة تجعل نجاح تشريعه في مرحلة التطبيق امراً ميسراً ومحتوماً .

صحيح ان التشريع الاسلامي لم يكن تشريعاً فكريا مجرداً لم يختبر بعد فى مرحلة العمل والتطبيق ، بل هو قد مر في تجربة حياتية رائعة . وكان في تجربته تلك قد اوجد امة فتية لها مقوماتها ومعالمها المستقلة ، ولم يكن فى تلك التجربة تشريعاً اصلاحياً اراد ترميم بعض جوانب المجتمع آنذاك ، وانما هو عملية تغيير شاملة استوعبت حياة الأمة من الاعماق الى المظاهر ، ومن العقائد الى التقاليد ، ومن الاهداف الى الوسائل . فصاغها التشريع الاسلامي صياغة جديدة في كل شيء . لها تشريعاتها ونظامها ولها مراسيمها واعيادها (وكذلك جعلناكم امة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) ، وقد تمكنت بفضل هذا التشريع وما فيه من طاقة حيوية هائلة ان تزيل اقسى الموانع واشد العقبات التي تقف حجر عثرة فى طريق المصلحين وفى طريق التقدم الانساني الخلاق .

ولكننا مع ذلك ايضاً بحاجة الى الكشف عن مزايا الاسلام في مرحلة الحياة الخارجية وبيان حلوله التي يقدمها للمشاكل التي

لازمت مجتمعنا اليوم ، أو التي يمكن ان تعترض طريقه في سيره التطوري الدائب .

ثم بيان الخطة التي يشجع فيها الاسلام كافة الطاقات الانسانية الخيرة في استثمارها لخدمة التقدم والتطور النافع .

ثم بيان رأي الاسلام في الوسائل التي تعمل على انسجام الغرائز والرغبات الانسانية الاصيلة وتناسقها ، من دون الاضرار بغريزة ما ، أو التأكيد عليها تأكيداً مفرطاً يؤدي الى اختلال الكيان الانساني ، او التفريط بالقوى الغريزية الأخرى .

فالاسلام وان تغلب على مشاكل اكثر تعقيداً في مرحلة تطبيقه فجر الدعوة الزاهر ، وتمكن من اداء المهمة الملقاة على عاتقه خير اداء ، واستطاع ان ينجح في القيام (بنقلة اجتماعية هائلة) حيث نقله من مرحلة الجهل والضراوة الى مرحلة العلم والقوة والانسانية . إلا ان الفاصل الزمني ما بين المرحلتين : مرحلة التطبيق التي حققها الاسلام ، ومرحلتنا الحاضرة ، وشبهات الاستعمار واتباعه في ربوع وطننا الاسلامي الكبير ، فقد قال بعضهم بالنص : « ان الاسلام انبثق في مجتمع وثني بدائي ظالم ، فلم يكن معقولا ان يكلف الذين اعتنقوا الدعوة الناشئة ان يخضعوا لجاهلية هذا المجتمع او يخنعوا لعدوان ، ومن ثم وجب ان يكون لهم تشريع ينظم احوالهم ، وان يؤذن لهم برد العدوان ، ولم

يكن معقولا ان يطفر التشريع عن ظروف ذلك المجتمع طفرة شاسعة بحيث يمكن ان يصلح لعصرنا الحاضر » (١) فالاسلام على رأيهم هذا ورأي اتباع الاستعمار كلهم لم يكن عقيدة تملأ القلب ومنهجاً يشمل الحياة كافة (فلم يكن معقولاً ان يطفر التشريع عن ظروف ذلك المجتمع ؟!) ولم يكن النبي ايضاً — كما يظهر من بداية كلامهم هذا — مرسلا بشريعة عالمية جاءت لتنظيم شؤون البشر كافة وانما هي ضرورة موضعية اقتضتها ظروف محدودة حيث (ان الاسلام انبثق في مجتمع وثني بدائي فلم يكن معقولا ان يكلف الذين اعتنقوا الدعوة الناشئة ان يخضعوا لجاهلية هذا المجتمع أو يخنعوا لعدوان) فلذلك كان على النبي ان يجمع لهم بعض التشريعات ؟! ويعلم لهم بعض الاحكام ؟! لتعبر بهم تلك الظروف الاجتماعية الخاصة ! اما حيث انتهت تلك الظروف الخاصة وانتهى دور الوثنية وعبادة الاصنام فلا حاجة اذن لتلك الاحكام التي نطق بها النبي (ص) وعلى الناس ان يخترعوا لهم تشريعات واحكاماً خاصة يعملون بها في حياتهم الاجتماعية والفردية ؟! .

---

(١) من مقال في [الجمهور] المصري الصادر بتاريخ ٣ نوفمبر ١٩٥٢ ، بتوقيع الاساتذة : احمد قاسم جودة ، ومحمد زكي سويدان ، ولويس دوكر ، يهاجمون فيه الدعوة الى سيادة التشريع الاسلامي .

بهذه العقلية المسروقة ، وبهذه الضمائر المنخلعة والمتعلقة بحب الأجنبي المستعمر وتشريعاته ، يعمدون الى بث الشبهات والسموم في نفوس الناشئة والشباب المثقف بل والمجتمع الاسلامى كافة ، كل ذلك يدعونا الى البحث من جديد في امكانيات الاسلام العظيمة التي تؤهله لنجاح تطبيقه وسلامة واقعه العملي ، والتي تجعل امر تحقيقه ميسراً ومحتوماً .

فالباحث وان لم يكن بحاجة الى البرهنة الواقعية الى اثبات هذه (الحقيقة الموضوعية) واعني بها امكان التطبيق وسهولته . فان التاريخ قد كفانا مؤونة ذلك بعد التجربة الرائعة التي مر بها التشريع الأسلامي ، ولكننا بحاجة الى هذا البحث لازالة ماعلق ببعض النفوس بسبب بعدهم عن الاسلام واجوائه ، وتعرضهم المتواصل لشبهات المستعمر وشكوكه .

فنحن بحاجة الى مثل هذا البحث كعامل نفسي مساعد على اعادة الثقة بتشريعهم العظيم الذي وفر لهم كل سعادة ورفاه حينما كانوا يستظلون بظل لوائه ، ويمتثلون اوامره ونواهيه ، ويعملون بارشاداته واحكامه .

***

والبحث عن التشريع في مستوى العمل والتطبيق لابد ان يقصد به البحث عن صياغة الانظمة والقوانين التي تجمع الى

جانب التشريع الاسلامي وما اتى به من مفاهيم ، جانب الحياة الخارجية والواقع ، وما يعمل فيه من عوامل ومؤثرات — فالنظام الاسلامى — واعني به التشريع الاسلامي فى شكله التطبيقى : هو ما يلتقي فيه التشريع فى اسلوبه وروحه واهدافه ، والواقع فى حياته وحركته واسبابه .

فالباحث إذن حينما يقدم بحثاً عن التشريع على صعيد العمل والبناء وفي مستوى التجسيد والتطبيق : لابد ان يجعل بحثه خلاصة وافية وميسرة عن عوامل متعددة تلتقي على صعيده وتصب في روافده وهي :

١ — التشريع الاسلامي في اسلوبه واحكامه واهدافه .

٢ — المؤثرات التي تعمل عملها في الانسان والحياة الخارجية .

٣ — العنصر الذاتي أو (الرأي الخاص) الذي يبذله الباحث أو واضعوا الأنظمة والقوانين في محاولة وضع التشريع الاسلامى بصيغة تستوعب كافة القوى والطاقات العاملة . لأجل استثمارها في حركة التطوير والبناء .

٤ — ملاحظة العوامل الحادثة والمستجدة والتي تتطلب حصة من التشريع ونصيباً من الاستثمار ، وملاحظه العوامل والمؤثرات التي بطل تأثيرها في المرحلة الزمنية الخاصة ، وابدالها بقوالب

جديدة وطاقات مستحدثة يوضع فيها الحكم الاسلامى لأجل تزويد المجتمع بالحياة الدائبة الجديدة والتقدم الخلاق . وسيأتي خلال البحث مزيداً من الأمثلة ومزيداً من التوضيح . وبهذه الطريقة نتمكن ان نجيب على السؤال الآتي :

ما هي الطريقة التي بها نوفق بين مفهوم حلال محمد حلال الى يوم القيامة ، وحرام محمد حرام الى يوم القيامة . وبين مفهوم صلاحية التشريع الاسلامى لكل زمان ومكان على مافي الزمان من عوامل متغيره ومستحدثة ، وعلى مافي المكان من اختلاف في الأحوال والمؤثرات التي تتطلب درساً لواقعها واستثماراً لطاقاتها وملاحظة من التشريع الذي ينفذ في ذلك المكان .

***

ولم يكن — النظام — أو اظهار التشريع على مستوى عملي وتطبيقي وليد حاجة ملحة في خصوص عصرنا الحاضر . حيث بامكان الباحث ان يجد كثيراً من الانظمة التى وضعها الرسول (ص) أو الأئمة عليهم السلام لتكون اسلوباً ناجحاً وطريقاً رحباً يسير فيه التشريع الاسلامى الى هدفه وغايته .

فالمتتبع لارشادات النبي (ص) أو الأئمة سلام الله عليهم او المتتبع للمناهج التى وضعوها عهداً ونظاماً يسير على طبقه الولاة والمجتمع عامة يجد في خلالها كثيراً من الآراء التي لم تكن تشريعاً

مجرداً لا نظر له الى الواقع ، أو الحياة الفعلية التي يعيشها المجتمع آنذاك ، بل انها ارشادات وبرامج وانظمة يقصد بها التوفيق بين متطلبات الواقع المعاش وظروفه الداخلية والخارجية ، وبين التشريع الاسلامي في نظرته وفلسفته وصبها في مجرى واحد على اسلوب منهاج وعهد او بطريقة ارشادات ونصائح تقدم الى كافة افراد المجتمع المسلم فمنها مثلا ما روي عن النبي (ص) « لئن يأخذ احدكم حبله ، فيذهب به الى الجبل ، فيحتطب ثم يأتي به فيحمله على ظهره خير له من ان يسأل الناس » فالنبي (ص) قد بين اهمية مفهوم العمل عن طريق بيان الاسلوب الذي يتفق والمرحلة الزمنية التي عاش فيها (ص) وهذا الحديث المروي عن النبي (ص) على وجازته يكشف لنا عن المفهوم العظيم الذي يتبناه الاسلام ازاء العمل وما يقدمه من خدمات وعطاء لافراد المجتمع الاسلامي كافة . ومنها قول امامنا علي (ع) في منهاجه الخالد « وتفقد امور من لا يصل اليك منهم ممن تقتحمه العيون وتحقره الرجال ففرغ لاولئك ثقتك من اهل الخشية والتواضع » يمكن ان يكون اسلوباً لتحقيق الضمان الاجتماعي في اروع صوره .

والتأليف الذي امر به الامام (ع) لمثل هذه اللجان التي تضم اشخاصاً يتمتعون بقوة ايمان ويتصفون بالمرونة والتواضع وان كان طريقاً واسلوبا وضع لأجل ان يسير فيها هذا المفهوم الاسلامي

العظيم ، فى زمن الامام (ع) ولكنه منهج يمثل اكثر الطرق فعالية وفائدة حتى في زماننا هذا .

ومن المؤسف حقاً ان لا يفكر ولاة الامور فى عصرنا هذا لتحقيق مثل هذا الاسلوب الناجح فى التأمين الاجتماعى على حياة الفقراء وضمان معيشتهم والعمل على استقرارهم النفسي . فالامام عليه السلام حينما آمن بالانسان ايماناً عميقاً كايمان الاسلام به ، وزخرت نفسه العظيمة بالعطف العميق عليه والحب الوفير له ارشد الوالي من قبله الى مثل هذا النهج الخالد فى مطاردة شبح الفقر في جميع جوانب المجتمع وارسال دفقات الحياة الى كل فرد منه ، وتموين جميع فئاته بما يحتاجون اليه وان كان طريق التموين بعيداً او كان الفرد متصفاً بعجز بدني او ضعف نفسي يقعد به عن الوصول الى الملكية العامة ونهرها للاستقاء من خيراته .

فالامام (ع) حينما شرع مثل هذه الطرق الفعالة الزاخرة بالرحمة والحياة انما اراد ان يشق فروعاً وروافد من المفهوم الاسلامي الخالد واغنى به [الضمان الاجتماعي] ليتجسد هذا التشريع في اروع صورة له واعمها فائدة وضماناً .

***

وينبغي لنا ان نشير الى نقطة هامة يلحظها التشريع الاسلامي فى مرحلة تحققه على صعيد الحياة . تلك هي بناء مجتمعه على اسس

علمية مدروسة ، وذلك لاعتبار التشريع الاسلامي عامل العلم والتصنيع مؤثراً حيوياً هاماً في وضع الصيغة القوية المستجمعة للشرائط للمجتمع الاسلامي المتطور . حيث لاحظ الجهود العلمية الجبارة ، والتي يشترك فيها الفكر الانساني وقوى الطبيعة الثرية ، وجعل لها حيزاً ومجالا في بناء المجتمع القوي المرفه . وسيأتي تبيان الآثار المتنوعة التي يتركها العلم في مختلف شعب الحياة والتي ينشد الاسلام تحقيقها من تشريعاته ، سواء في الميادين الثقافية أو الزراعية او الصناعية او غيرها من المجالات الأخرى للخدمات الاجتماعية .

وعلى هذا فبامكاننا ان نقول ان تشريع الاسلام يهدف الى تحقيق (المجتمع العلمي) في اسسه وقواعده ، وان المجتمع الاسلامى اذن هو المجتمع الذي يستثمر العلم فى كافة الميادين ، ويعمل باستمرار على تنميته وازدهاره ونقدمه .

وبهذا نتمكن ان نكون فكرة صحيحة عن المجتمع العلمي الذي يشيد كيانه على العلم والتصنيع ، ونتمكن ايضاً ان نصحح خطأ شائعاً عن فكرة بناء المجتمع على الأسس العلمية .

فلقد انتشر بين صفوف بعض الاوساط التي تقلد الغرب فى ثقافتها وتفكيرها فكرة ان المجتمع الغربي انما هو مجتمع علمي لا يأتيه الباطل ابداً ، ولا يمكن النقاش فى نظامه الاجتماعي الذي

يتحكم فيه لأنه نظام يبتني على العلم في كل نظراته ، وفي كل مادة من تشريعه ، ثم يتبعون كلامهم بنقل بعض النظريات التي تؤيدهم من دون تمحيص او ادراك فيقولون ان المجتمع يمر بمراحل ثلاثة ! .

مرحلة المجتمع الاسطوري الذي يؤمن بالخرافة والأساطير .

ومرحلة المجتمع الذي يؤمن بالدين عقيدة ونظاماً ؟! .

ومرحلة المجتمع العلمي الذي يبني نظمه وتشريعاته على اساس من العلم والاكتشاف ؟! . وهو اعلى المراحل التي يمر خلالها المجتمع في عمليته التطورية هذه ؟ ثم يستخلصون هذه النتيجة وهي ان المجتمع الغربي هو المجتمع العلمي الذي لا خطأ في تشريعاته ولا انحراف في نظامه الاجتماعي ؟! .

يتكلمون بهذا وكلهم اعجاب وفخر ، من دون ان يلحظوا بأن النظام الاجتماعي شيء ، والنظريات العلمية في الصناعة والمخترعات شيء آخر ، إذ من الممكن ان يعايش العلم والتصنيع مختلف النظم الاجتماعية التي تتناقض في جوهرها وتتضارب في مصالحها واهدافها ووسائلها .

فلقد عايش العلم والتصنيع النظام الرأسمالي الغربي ، وعايش النظام الاشتراكي الماركسي ويمكن ايضاً ان يعايش سائر النظم الأخرى .

وتعاقبت الايدي المختلفة ايضاً على استغلال جهود العلم وثمراته ، حيث احتكرها الرأسمالي تارة واحتكرتها الدولة والحزب في البلاد الشيوعية اخرى ، وتوزعت بين عاملين الدولة والمجتمع في البلاد الأخرى .

ينطقون بهذه الآراء لان فيها شكلا من نظرية علمية وشبهاً لفكر منهجي ، وان لم يؤيدها الواقع او أية حقيقة علمية موضوعية ولم تكن هذه الحقيقة الواضحة لذي عينين لتزيف بانفرادها هذه النظرية التي يتبجحون بها ويلفظونها من غير دراسة او وعي بل إن دراسة المجتمع الغربي والمجتمع الشيوعي من خلال التطبيق الذي وصل اليه كلا النظامين لتوضح خطأ نظرية بناء المجتمع الرأسمالي او الشيوعي على اسس علمية طبيعية مدروسة ، حيث حصل تراجع من كلا الفريقين تحت ضغط الواقع الذي يطالبهم ، كما حصل اعتراف ضمني او صريح باخطاء نظامهم الذي يؤمنون به .

وما ذلك الا لان النظام الاجتماعي والمفاهيم الاجتماعية لا تخضع للعلوم الطبيعية والتقدم العلمي في ميدان الاكتشاف والتصنيع

فالتشريع الاجتماعي إذن هو الفلسفة العامة التي يؤمن بها المجتمع او التي تفرض عليه فرضاً ، وهي التي يخضع لها الجانب العلمي والصناعي ، ويدخل ضمن اطارها العام ، سواء في نوعية الملكية لوسائل الانتاج ، او في توزيع ثمرات العلم وخيراته .

فالجانب الاجتماعي او التشريعات والقوانين الاجتماعية هي الاطار العام الذي يشمل مختلف المجالات بما فيها مجال العلم والتصنيع وبهذا يمكن ان نفسر الاختلاف الكبير بين المجتمع الغربي والمجتمع الشيوعي ، حيث نشاهد استغلال الفرد فى المجتمع الأول لنتاج العلم ومعطياته حينما اخضع العلم لنظامه العام الذي يسير عليه فى الحياة ، ونشاهد احتكار الدولة لخيرات العلم ومعطياته الوفيرة حينما يخضع العلم لنظامها الماركسي الاستبدادي ، هذا والعلم واحد فى كلا الجانبين ، وادوات الانتاج واسلوب التصنيع وتقدمه يسيران في خط واحد ونسبة تطورية واحدة .

فبهذه النظرة الواعية التي ارشدنا اليها الاسلام نتمكن ان نقتلع المفهوم الخاطئ عن واقع (المجتمع العلمي) ونظامه الاجتماعي والذي شاعت فكرته فى بعض الأوساط المقلدة للاجنبي ، ونتمكن ايضاً من ان نتبين هدف الاسلام من بناء (المجتمع المتطور) الذي يستفيد من خيرات العلم وجهوده العظيمة ويستهدي في اسلوب حياته بالتشريع الاسلامى الخالد .

***

وقد راعينا في دراستنا الموجزة هذه ان نتجنب كثيراً من المصطلحات العلمية التي يعسر فهمها على كثير من القراء الأعزاء لنوفر لهم ثقافة اسلامية ميسرة فى الاسلوب والعرض ليشمل نفعها

اكبر عدد ممكن منهم ، على ان هذه الطريقة التي اتبعناها في بحثنا هذا لا تمنعنا عن السير مع القارئ الكريم لنطلعه على بعض القواعد التي لها الاثر في جوانب التشريع الاسلامي ، أوالتي لها صلة بتوضيح راي الاسلام وفلسفته العلاجية والوقائية ازاء بعض المشاكل والوضعيات الاجتماعية المختلفة ، كما لا يمنعنا هذا ان نشير الى بعض النظريات والقواعد الدخيلة على الاسلام وعلى اصالته في النظرة والتشريع فنبين معارضتها ومنافاتها لروح الاسلام الاصيله والتي تابى الالتصاق بكل ما هو دخيل وبكل ما هو ضيق فى الفكرة والراي فيتنافي مع الاسلام فى شموله وسعته .

وقد بذلنا فى محاولتنا هذه كل ما يساعد على جعل هذه الدراسة دراسة للتشريع الاسلامى على صعيد الواقع وفي مرحلته التطبيقية ، او دراسة مؤثرات الحياة المتطورة على ضوء الاسلام .

وحاولنا ان نكون جانباً كبيراً من الاطار العام الذي يجب ان تتحلى به الدراسات التطبيقية للتشريع الاسلامى واحكامه المتنوعة فبحثنا كثيراً من المؤثرات التي تعمل عملها الفعال في الصبغة التطبيقية التي يكتسبها التشريع عند ما يقول كلمته فى الواقع العملي والحياة المعاشة من اجل تطويرها الى حياة افضل ومن اجل هداية البشر الى سبيل قويم في حاضرها ومستقبلها .

وبعد ذلك تعرضنا الى دراسة التطور على ضوء الاسلام وبيان

الراي الذي يقدمه فى الواقع السليم لمضمون كلمة التطور ، وكشف المفهوم الخاطئ الذي شاع على بعض الالسن عن هذه الكلمة ، فحسبوه الذبذبة العقائدية ، والقلق الفكرى ، واستيراد المبادئ المختلفة ؟ ! .

ولسنا ندعي ان ما توصلنا اليه في دراستنا هذه انما هو فتوى عملية ، او تفسير حرفى او نتيجة اجتهادية مستخلصة من الادلة المعتبرة في اسانيدها القائمة بالدلالة على مؤداها .

ولكنها محاولة للاهتداء الى تكوين فكرة عن التشريع الاسلامي من خلال الحياة الواقعية في حيويتها وتغيرها ، وفي اسبابها ومؤثراتها تكون بداية لدراسة شاملة ومعمقة عن المسائل الحاضرة وقضايانا الاجتماعية المعاصرة على ضوء الاسلام ومن خلال تشريعه الشامل .

ويجدر بنا ان نشير الى ظاهرة قد تعرض للقارئ الكريم من خلال البحث والاستمرار مع مواضيع الكتاب تلك : هي التفصيل فى بعض المؤثرات والعوامل الهامة (كعامل العلم) في مختلف مجالاته التصنيعية والاجتماعية نظراً لظهور هذا العامل فى العصر الحديث بشكل قوي وفعال من جهة ، ولاهتمام التشريع الاسلامي بهذا العامل الحيوي فى مجال الحصول على خيراته ونتائجه الباهرة من جهة اخرى .

وقد حاولنا ايضاً ان ندرس المراحل التي مر بها الواقع التطبيقي للتشريع الاسلامي من خلال التاريخ ، والسيرة النبوية الزاهرة لما لها صلة وثقى بدراسة عملية وواقعية لواقعنا الحاضر قد تلقي اضواء كثيرة على جملة من مشاكلنا في نشأتها وجذورها ولما لهذا الموضوع من صلة قوية ايضاً في صقل ارادتنا وتقوية معنوياتنا حينما ندرس اروع تجربة اجتماعية من حيث النتائج والمعطيات ، واسلمها في الوسائل والاساليب . وقد توصلنا الى نتيجتين يدخل في نطاقها بعض مراحل تطبيق التشريع الاسلامي في عهد الرسول ص وهما التشريع والتطبيق المرحليين . وذلك بالتدرج في اظهار التشريع الاسلامي الى ان يصل الى هدفه الكامل ومسايرة التطبيق لهذه المراحل التشريعية ومرحلية التطبيق خاصة مع اعلان الهدف الكامل من اول الامر وذلك كانسانية الدعوة الاسلامية وعالميتها (وما ارسلناك الا رحمة للعالمين) والمراحل التطبيقية التي اجتازها الرسول (ص) الى تحقيق هذا الهدف الانساني الخالد .

وبعد عرض لمثل هذه الدراسة التاريخية المثمرة ودراسة قضايانا المعاصره بشكل عام . حاولنا ان ندخل بصورة مباشرة في حقلين من حقول التشريع الاسلامي ودراستها على مستوى التطبيق بصورة مفصلة فحاولنا ان نعطي صورة للمرأة من خلال التشريع ومن خلال متطلبات واقعنا الراهن فبينا بعض الاهداف

العظيمة التي ادخرها الاسلام للمراة وذكرنا بعض الوسائل التي اراد بها وقاية كيان المرأة وشخصيتها من الضياع .

وذكرنا نظرة الاسلام الى غير المسلم من مواطنى الدولة الاسلامية والمجتمع المسلم ومدى نظرته الحكيمة فى ايجاد تعايش سلمي بين هذه الفئات وبين المسلمين يصل في النهاية الى اعتناقهم لمبادئ الاسلام الرحيمة وايمانهم بثقافته الانسانية المهذبة ونرى من خلال ذلك ان التصميم للنظام الاجتماعي الذي شرعه الاسلام انما هو تصميم عام يشمل المواطنين كافة من المسلمين واهل الاديان الكتابية الاخرى .

ومع هذا كله فليس لنا ان نصف الاسلام (بالديمقراطية) وان آمن بالتعايش الديني او التعايش السلمي بين الاديان وذلك لان الديمقراطية لها فلسفتها وتبعاتها الخاصة فكرية او محيطية فلا يمكن لنا ان نلصق الاسلام بها ونجعله تابعاً لمفهومها لنحرمه من اصالته الفكرية التي ارادها الله له . مضافاً الى ان الديمقراطية لها مفهوم غامض نشأ من اختلاف النظرة اليها فى الفلسفة والتطبيق ولذلك آثرنا جهدما نستطيع ان نتجنب امثال هذه المفاهيم الغامضة فى بحث يقصد منه توضيح المفاهيم الاسلامية للتعايش السلمي بين الاديان والحلول السليمة التي يقدمها فى هذا المجال وقد ركزنا على نقطة هامة فى هذا الموضوع وهي وعي الاسلام العميق لما تنطوي

عليه قلوب بعض من اهل الكتاب من نوايا عدوانية واهداف لاإنسانية وذلك بنشرهم بعض الافكار والاراء التي يقصد منها ايجاد البلبلة بين ابناء المجتمع الاسلامي عامة وهذا ما حدث بالفعل فى عصرنا الحاضر الذي نعيش به ؟! وتزعمهم لتكتلات عقيدية يقصد منها الاجهاز على كيان المسلمين العقيدي والتشريعي !! واضعاف وجودهم الاجتماعي والتسلط على مقدراتهم .

وبذلك تمكن الاسلام ان يجمع بين اليقظة امام اساليبهم الملتوية ، وبين تعايش سلمي معهم يقربهم الى حظيرة الاسلام في اهدافه وواقعه الانساني المشرق .

ويجب علينا — ونحن فى نهاية التمهيد — ان نركز على ضمانة قوية تعمل على دحر الأفكار السلبية المناقضة للاسلام ، وبناء العقيدة الاسلامية ونشر مفاهيمها ، واهدافها فى الحياة ، واعني بها (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وقد اعتبرت بعض الروايات الجانب الجهادي على عظمته امراً ضئيلا بالنسبة الى مكانة هذا الواجب وما يؤديه من دور مزدوج فى محاربة المبادئ الضارة والصفات الرديئة وفى إرواء المفاهيم الاسلامية وتغذيتها بالحياة الجديدة وقد جاءت بعض الروايات الأخرى فبينت جانباً عظيما من العطاء الذي يقدمه هذا الواجب الشرعي المهم ففي الوسائل من رواية مفصلة « . . . ان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : سبيل

الأنبياء ، ومنهاج الصلحاء ، فريضة عظيمة بها تقام الفرائض ، وتأمن المذاهب ، وتحل المكاسب ، وترد المظالم ، وتعمر الأرض ، وينتصف من الاعداء ، ويستقيم الأمر » الحديث (١) .

ولم تقتصر الثمرات التي يقدمها هذا الواجب على خصوص العملية التحضيرية لاقامة المجتمع الاسلامي بكل معالمه ومقوماته ، بل ان استمرارية هذا المجتمع والمحافظة عليه يتوقفان بوضوح على هذه الفريضة الاسلامية العظيمة . وكان هذا الواجب هو الطابع العام والشارة الآلهية التي امتازت بها الامة الاسلامية على غيرها من الأمم في عهد ازدهارها ورفعتها « كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (٢) وهذه هي سنة الحياة التي خلقها الله . . . « فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض . . . » (٣) ان حقل الاسلام الزاهر ومفاهيمه الزاهية لا يمكن ان تعطي ثمارها كاملة ما لم يتعاون المسلمون على قلع الجذور للافكار الضارة والوضعيات الاجتماعية المنحرفة ، والعمل على تموين هذا الحقل المبدئي بالعناصر النافعة والغذاء الذي يساعده على النمو والازدهار .

---

(١) الوسائل باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

(٢) آل عمران : ١١٠ .

(٣) الرعد : ١٧ .

وختاما اننا حاولنا ان نستمر في مواصلة الاسترسال فيما نقدم من فصول بلا ان نقطعه بموضوع علمي مفصل او استطراد مترامي الابعاد مما قد يقطع على القارئ تسلسل تفكيره ، ومتابعته لموضوع البحث ، ومما قد يؤثر على وحدة الموضوع وتناسق ابحاثه ، وآثرنا نقل بعض المواضيع العلمية التي لها صلة وثقى بهذه الدراسة ، خارج نطاق البحث إتماماً للفائدة ، والسير مع القارئ في القواعد الأولية والاصول العامة التي يبتني عليها البحث وينتمي اليها بسبب قويم .

والحمد لله اولا وآخراً ومنه تعالى نستمد العون والتوفيق .

النجف الأشرف : عبد العالي محمد حسن المظفر

دور العقيدة
في تطوير الانسان والحياة

يمتاز النظام المنبثق عن التشريع الاسلامي واهدافه في الحياة . انه نظام يبتني على العقيدة في جميع جوانبه ومجالاته . ولذلك فهو يكون وحدة تشريعية تعمل على انسجام العقيدة مع متطلبات التشريع ، وعلى انسجام روح الايمان مع الحياة الخارجيـة في جنباتها .

لقد امتاز الاسلام عن غيره من المبادئ الروحية او المبادئ المادية امتيازاً ملحوظاً . حيث استطاع الاسلام ان يجعل تشريعاته متصلة اتصالا وثيقاً بجذور من العقيدة لا تنقطع اسبابها ، ولا ينفصم تلاحمها وتماسكها .

واستطاع الاسلام بذلك ان يجعل منهجه العام منهج عبادة فيه نفحة من روح العقيدة وقبسة مضيئة من نور الاسلام .

والعبادة التي يقصدها الاسلام هنـا ليست خصوص العبادة المعروفة لدينا . بل العبادة بالمعنى الاسلامي العام . انهـا الصلة الدائمـة بالله تعالى « ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولـكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائـكة والـكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبـه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب واقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس . اولئك الذين صدقوا ، واولئك

هم المتقون » (١) .

وبهذا امتاز الاسلام عن العقيدة المسيحية فى تجردها وروحيتها ، حيث لم تتمكن أن تنشر شذى هذه العقيدة وهذه الروح الى جنبات الحياة ، ولم تتمكن ان تجعل منهما قاعدة عريضة لكل النشاطات الانسانية في مجالات الحياة .

وبهذا امتاز الاسلام عن النظريات المادية ايضاً . حيث ان اصحاب هذه النظريات حينما لم يوفقوا الى عقيدة ناطقة ومضيئة تفسر حيوية هذا العالم ونظامه ، ذهبوا ليجمعوا نظريات ميتة لا تصلح في الواقع لأن تسمى — عقيدة — بما فى هذه الكلمة من اشعاع وحياة ، ولا يمكن لها ان تكون ركيزة ينبثق منها دفع ذاتي وحيوية اصيلة نحو التقدم والانطلاق ، وانما هي نظريات ساعدت عليها ظروف مظلمة ، وساعد عليها جهل بالقوانين الكونية المنظمة حيث كان العلم فى بدايته البسيطة . وقد كفانا العلم الحديث مؤونة ابطال مثل هذه النظريات الجامدة ، والتي لا تستند الى واقع العلوم الطبيعية الحديثة فيما توصلت اليه من حيوية الطاقات الكونية وحركتها الدائبة ، وما المادة إلا مظهر سطحي لهذه القوى الفعالة كما انها لا تستند الى تفكير منطقي صحيح .

ولقد ادرك هذه الوحدة المبدئية التي يتصف بها الاسلام ،

---

(١) سورة البقرة : ١٧٧ .

والتي تمزج ما بين التشريع والعقيدة ، وتوصل ما بين الايمان والعمل الدائب في ارض الله الواسعة . كثير من اعدائه والمستشرقين الذين درسوا مبادئه واحكامه . يقول — جب — في كتابه : (الاتجاهات الاسلامية الحديثة) : « إن في المجتمع الذي تبنيه جماعة لنفسها يتوقف اساساً على معتقداتها حول كنه هذا الكون وغايته ، وحول مكان النفس الانسانية فيه ، وهذه نظرية مألوفة إلفة كافية ، ولا تفتأ منابر الكنيسة ترددها اسبوعاً بعد اسبوع ولكن ربما كان الاسلام هو الدين الوحيد الذي قصد في ثبات والحاح الى بناء مجتمع وفق هذا المبدأ ، وقد كانت اداته الرئيسية لتحقيق هذا الغرض هي الشريعة » .

ويقول — ولفرد كانتول سميث — في كتابه « الاسلام والتاريخ المعاصر » في المقدمة : — وإذ كانت السمة الاولى المميزة للعالم الاسلامي هي انه « اسلامي » فاننا نقدم لبحثنا بمحاولة لتوضيح ما تعنيه هذه الحقيقة » .

ثم يقول في فصل [الاسلام والتأريخ] : « لقد لاحظ الباحثون : (في امر هذا الدين الجديد) بروز وضع المجتمع في الاسلام . ومن البين ان المجتمع الاسلامي ذو تماسك ملحوظ وان ولاء اعضائه وترابطهم عظيم القدر . وقد ادرك كثير ان الجماعة : (الاسلامية) ليست مجموعة اجتماعية فحسب ، بل مجموعة

دينية وان (الدين والدولة) امر واحد اذا استخدمنا تعبيرنا الغربي غير المناسب . ان المجتمع الاسلامي لا يترابط بعضه مع بعض — كالمجتمعات الاخرى — بمجموعة من الولاء والتقاليد فحسب . وبنظام متقن السبك من القيم والعقائد ، ولا هو نتاج مثل اعلى رفيع فحسب ، بل انه ينبض بالحيوية الناجمة عن اقتناع شخصي عميق ، اقتناع ديني له حرارته ودلالته في نفس كل عضو من اعضائه . . .

إن اهم سبب للفشل السريع لهذه النظم الوضعية الحاضرة ، والتي لم تشرع على اساس من عقيدة الامة واهدافها . هو انها تفقد هذه الوحدة المبدئية ركيزة النجاح وشرطها الأول ، ولذلك فلم تتمكن لوائح هذه النظم وتشريعاتها ان تعبر عن اماني الامه الاسلامية وآمالها فى الحياة ، وكانت العقيدة الاسلامية القوة الفعالة التي تذيب القابلية السطحية لمثل هذه النظم المرتجلة .

ولذلك عمل الاسلام على توفير الانسجام والتناسق بين نظراته التشريعية وواقع عقيدته عن الكون والحياة وصبهما فى وحدة مبدئية تهدف : الى استثمار القابليات التشريعية والعقيدية في مجال العمل الدائب ، وفي كل الميادين الانسانية المتنوعة ، وتهدف ايضاً الى بث السعادة والاستقرار النفسي في ضمائر ابناء المجتمع الاسلامي الكبير .

وبفضل هذا التناسق التام والانسجام الوثيق بين الجانب التشريعي والعقيدي ساعدت العقيدة الاسلامية مساعدة فعالة على سهولة التطبيق ونجاحه ، وكان المسلمون هم الحراس الامناء على نجاح التجربة الاسلامية ، واعطاء ثمراتها الحافلة بالخير والغنية بالرحمة .

والتجربة الاسلامية على ضخامتها واستيعابها لجوانب الحياة والانسان . لم تفتقر الى رقابة شديدة تكتم الأنفاس ، أو قوة احتياطية تحميها من الداخل . وانما كان المسلم عوناً لها ، وانساناً اميناً على ان تسير في مجراها الذي اراده الاسلام لها ان تسير فيه .

وكانت العقيدة هي العنصر الفعال من وراء جميع هذه الصفات وهذه النتائج العظيمة .

١ العقيدة والانطلاق

والبشرية في جميع مراحل وجودها لا يمكن ان تنطلق انطلاقة سليمة فى طريق تطوير كيانها الانساني ، وظروفها الحياتية المتنوعة . إلا اذا اعتمدت على عقيدة لها امكانياتها الضخمة في تحرير ضمير الانسان من كل مايقف مانعاً من توسيع آفاق التفكير . وجعلها بصورة مباشرة امام مجالات المعرفة الانسانية الرحبة .

والبشرية لا يمكن ان تسير فى طريق نموها وتكاملها

إلا إذا اعتنقت عقيدة لها قابلياتها في ازالة العقبات والاغلال التي تعرقل سيرها في انطلاقتها السائرة في كافة الميادين والمجالات المختلفة « الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والأنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه اولئك هم المفلحون » (١) .

٢ العقيدة والوجود الاسلامي

والعقيدة في مضمونها الاساس المكين للوجود الاسلامي وبقاءه قوياً متميزاً .

ولقد عملت العقيدة وقامت بدورها الفعال لحماية هذا الكيان والحفاظ على استمراره .

وان هذه الحقيقة لتظهر جلياً حينما يستقرء الانسان ظروف المجتمع العام واجواءه ، ليلمس قوتها ونفاذ نورها الذي انزل مع النبي محمد (ص) ، حيث يجد هذه المفاهيم ذخيرة وقائية قد عملت على انقاذه من الظروف القاسية التي يريدها الاعداء للمسلمين — ولا يزالون — ومنعته من مضاعفات كان لابد ان يقع فيها

(١) الأعراف : ١٥٧ .

لولا تسلحه ببقايا من اشراقة هذه العقيدة المباركة . ولقد آمن بهذه القوة العقيدية ودورها في حماية الوجود الاسلامي كثير من اعداءه ، فلقد قال شاتلييه رئيس تحرير (مجلة العالم الاسلامي) التي تصدر في فرنسا يعرض النشاط التبشيري البروتستاني في البلاد الاسلامية « ولا ينبغي لنا ان نتوقع من جمهور العالم الاسلامى ان يتخذ له اوضاعاً وخصائص اخرى اذا هو تنازل عن اوضاعه وخصائصه الاجتماعية — المستمدة من الفكرة الاسلامية — إذ الضعف التدريجي فى الاعتقاد بالفكرة الاسلامية وما يتبع هذا الضعف من الانتقاض والاضمحلال الملازم له ، سوف يفضي بعد انتشاره في كل الجهات الى انحلال الروح الدينية من اساسها لا إلى نشأتها بشكل آخر » .

وحاولوا ايضاً فى فترات من التأريخ ان يستغلوا هذه الطاقة نفسها في تبديد هذا الوجود ، وتفتيت كيانه .

٣ العقيدة والوصول الى الهدف

ويلمس فيها المسلم ايضاً روحاً نابضة تساعده فى شق طريقه والوصول باهدافه الى صعيد المجتمع العام . وتجعل مفتاح النصر الحقيقي بيديه دائماً « قل هل تتربصون بنا إلا احدى الحسنيين ونحن نتربص بكم ان يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا

فتربصوا إنا معكم متربصون » (١) وهكذا المؤمن حقاً قوي في معنويته لانه يستمدها من خالق هذا الكون العظيم ومفيض هذه الحياة الزاخرة « ولا تهنوا في ابتغاء القوم ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون ... » (٢) وهذه هي النقطة الفاصلة بين الحق وبين الباطل ، وبين نور الايمان وظلام الكفر ، فالكافر لا يقاتل إلا في سبيل سراب ، أوعصبية أو عاطفة أو الفاظ براقة تحاول ان تسرق حياته وتعدم وجوده ، واما الانسان المؤمن فى هذه الأرض فهو مع اهدافه اينما سار ، سواء وصل الى هدفه الأخير فى احلال مفاهيم الاسلام ونظراته الانسانية الخيرة ام لم يصل الى هذا الهدف العظيم ولكنه عمل بما يتمكن على قهر الباطل واحلال المفاهيم التي تحمل معها الوئام والتعاون المستمر ، فهو اذن يكسب نتيجة المعركة باستمرار ويعرف الطريق الذي يسير به ، ويبصر اهدافه التي يسعى نحوها « ولان هدى الله به رجلا واحداً فهو خير له مما طلعت عليه الشمس » .

ولئن كان المجتمع في الماضي بحاجة الى من ينظم قواه المحدودة وفق عقيدة واعية تصل به الى الهدف ويستفيد منها فى مجالات

---

(١) التوبه : ٥٢ .

(٢) النساء : ١٠٤ .

الخير والبناء ، فان المجتمع اليوم وقد ملك القوى الهائلة بحاجة اقوى واشد الى عقيدة صلبة في واقعها شاملة في نظرتها توفر له من اسباب الحماية والوقاية بقدر ما يتهدده من خطر ودمار ، وتكون القاعدة الصلبة التي تقف عليها مثل هذه الطاقات العظيمة .

وحينما نرى هذه الادوار العظيمة التي تقوم بها العقيدة في مختلف المجالات ، ونحس بالعطاء الذي تمنحه للانسان المسلم ندرك بوضوح ان الاعمال التي تبذل من اعداءها مهما ظهرت بمظهر ضخم - ما هي في الحقيقة - الا محاولات متواصلة لايجاد عوائق وموانع امام مفاهيم هذه العقيدة ونورها من ان يشع على آفاق مجتمعنا الكبير . وليس من الممكن لهذه المحاولات - وان لبست ثوباً عقيدياً - ان تبلغ الجذور التي وصلت اليها العقيدة الاسلامية معانيها الزاهرة في الانسان المسلم وضميره . مع ان قلبه لا يزال ضامئاً الى كثير من مفاهيمها الخيرة ونبعها الصافي .

العقيدة ركيزة القوة :

والعقيدة الاسلامية زودت مجتمعها بقوة ذاتية يستمدها من شمول هذه العقيدة ، ومن حيويتها الناطقة ، والفطرة التي ابثقت عنها .

وقد عملت هذه القوة العقيدية على تدمير كثير من المجهودات

العدائية المتاصلة (ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين) [١] .

وهكذا ادرك الاوائل قوة هذه العقيدة وفعالية الروح الايمانية التي يهبها الاسلام لمعتنقيه ، وبهذا يمكن لنا أيضاً ان نفسر الانتصارات الاسلامية التي حققتها الدعوة فى مرحلة التعبير عن ذاتها وفي مرحلة الانطلاق على قوى تفوقها من حيث العدة والعدد ومن حيث الرجال والسلاح والظروف . ولكنها العقيدة الاسلامية الصادقة ملهمة القوة والعزائم المضاء ، وسنشاهد امثله ناطقة فى خلال دراستنا لبعضها في عهد الرسول « ص » تجسم لنا القوة الذاتية التي تتحلى بها العقيدة ويزخر بها الايمان .

ولقد ادرك الدور العقيدي هذا حتى اعداءه الذين أفزعهم هذا الواقع وهذه الذخيرة العقيدية الهائلة يقول ـ ولفرد كانتول سميت ـ في كتاب ، الاسلام في التاريخ المعاصر ، (. . . وكذلك كان التهديد والانتصارات (الاسلامية) قائمين في عالم القيم والافكار أيضا ، فقد كان الهجوم الاسلامي موجهاً الى عالم الواقع .

وقد عملت العقيدة الجديدة باصرار على انكار المبدأ الرئيسي للعقيدة المسيحية ، التي كانت بالنسبة الى اوربا الاعتقاد السامى الذي أخذت تبني حوله ـ فى بطء ـ حضارتها . وكان التهديد الاسلامى

---

(١) آل عمران ١٣٩

موجهاً بقوة وعنف ، وكان ناجحاً نجاحا مكتسحاً فى نصف العالم المسيحي تقريباً ، والاسلام هو القوة الايجابية الوحيدة التي انتزعت من بين المسيحيين اناساً دخلوا في الدين الجديد وآمنوا به . . بعشرات الملايين ، « وإنه لمن المشكوك فيه ان يكون الغربيون – حتى اولئك الذين لا يدركون اطلاقاً انهم اشتبكوا فى مثل هذه الامور – قد تغلبوا قط على آثار ذلك الصراع الرئيسي المتطاول الأمد . . . او على اثار الحروب الصليبية التي استغرقت قرنين من الحرب « العقيدية » المريرة ؟ !

هـذه هي النظرة التي ينظر بهـا اعداء الاسلام الى قوته العقيدية الهائلة وهذه هي نظرة اوربا الى عقيدة العالم الاسلامى حتى هذه اللحظة .

ولكى تكون العقيدة قوة ايجابية باعثة فى مجالات الحياة ، ولـكى نصل الى مستوى الحديث المروي عن النبي « ص » (ليس الايمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن هو ما وقر في القلب وصدقه العمل) لابد لنا ان نتغلب على المعوقات والموانع الفردية والاجتماعية .

العقيدة ملهمة الحرية وأساس التعاون :

الحرية الذاتية وتحرر الضمير من العبودية لغير الله ، واطلاق الفكر من اغلال الخرافة والاوهام والاساطير . اساس الـكيـان

الانساني وروحه الاصيلة فلا انسانية بدون ضمير حر ، ولا حرية بدون انسانية مهذبة. وقد ورد عن الامام جعفر الصادق(ع) انه قال خمس خصال من لم يكن فيه شيء منها لم يكن فيه كثير مستمتع : اولها الوفاء ، والثانية التدبير ، والثالثة الحياء ، والرابعة حسن الخلق ، والخامسة وهي تجمع هذه الخصال ـ الحرية ـ .

وهذا الجوهر الثمين لا يقتصر اشعاعه ونوره الوهاج على الكيان الشخصي فحسب بل ان روح الابتكار الاصيلة وروح التقدم الوثاب فى اي مجتمع كان متوقفة على هذا العنصر الاساسي وتوفره في ضمير ابناء الأمة وفى عقولهم وافكارهم .

وهي الفطرة الاصيلة التي فطر الله الانسان عليها وقد جاء عن امير المؤمنين(ع) ما يهدف الى هذه المنحه العظيمة التي منحها الله للانسان وزوده بها (لا تكن عبداً لغيرك وقد خلقك الله حراً)

والحرية شرط اولي في تحمل الامة مسؤوليتها كاملة ، والقيام بواجباتها ومتطلبات اهدافها العظيمة فى العمل والبناء المتواصل في مختلف المجالات .

وقد عملت العقيدة الاسلامية بما اوتيت من مثالية مهذبة ، وتفسير واقعي عن الكون والحياة ، ودفقات زاخرة من الحيوية والايمان : على تركيز الحرية الصحيحة باوسع معانيها فى قلب الانسان المسلم وضميره ، وايصال غيثها وامواجها الزاخرة الى كل

ولذلك فقد حررت ضميره وقلبه من العبودية للشهوات ومن الخضوع للاصنام الجامدة والاصنام المتحركة « زين للناس حب الشهوات من النسا ، والبنين ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسومة ، والانعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب قل أؤنبئكم بخير من ذلكم : للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وازواج مطهرة ، ورضوان من الله . والله بصير بالعباد » [٢] « قل ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم : الا نعبد الاالله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله » [٣] « اتعبدون ما تنحتون ؟ والله خلقكم وما تعملون » (٤) واراد منه ان يكون مالكا لارادته مسيطراً على رغباته يسيرها في طريقها المشروع ولا تسيره فى الطريق الحرام .

وحرر فكره من الخرافة والتقليد والتعصب الاعمى « واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا : بل نتبع ما الفينا عليه آباؤنا

---

[١] راجع المدرسة الاسلامية ص ٨٩ ـ ١٢١ لمحمد باقر الصدر

[٢] آل عمران ١٤ ، ١٥

[٣] آل عمران ٦٤

[٤] الصفات ٩٥ ، ٩٦

او لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » [١] « ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم . . . » [٢] « قالوا : نعبد اصناماً فنظل لها عاكفين ، قال هل يسمعونكم اذ تدعون ، او ينفعونكم او يضرون ، قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون »[٣]

وهذا ما سعى اليه الاسلام فى توحيده وعقيدته الفطرية الاصيلة وهو هدف متلاحم مع الهدف العام للدعوة الاسلامية المباركة « . . يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم . .»[٤]

تقول الدكتورة فاغليري في كتابها (دفاع عن الاسلام) (وبفضل الاسلام هزمت الوثنية بمختلف اشكالها ! ! . لقد حرر مفهوم الكون وشعائر الدين ، واعراف الحياة الاجتماعية من جميع المهولات او المسوخ التي كانت تحط من قدرها ، وحررت العقول الانسانية من الهوى . لقد ادرك الانسان ، آخر الامر ، مكانته الرفيعة . . . لقد حررت الروح من الهوى ، واطلقت إرادة الانسان من القيود التي طالما ابقته موثقاً إلى ارادة اناس آخرين

---

[١] البقرة ١٧٠

[٢] الفرقان ٥٥

[٣] الشعراء ٧١ ، ٧٤

[٤] الاعراف ١٥٧

او الى إرادة قوى اخرى يدعونها خفية . لقد هوى الكهان ، وحفظة الالغاز المقدسة الزائفون ، وسماسرة الخلاص وجميع اولئك الذي تظاهروا بانهم وسطاء بين الله والانسان والذين اعتقدوا بالتالي ان سلطتهم فوق إرادات الآخرين ـ نقول لقد هوى هؤلاء كلهم عن عروشهم ، ان الانسان امسى خادم الله وحده ، ولم تعد تشده بالاخرين من الناس غير التزامات الانسان الحر نحو الانسان الحر)[١]

واساس البناء الاجتماعي :

وبعد ان حررت امواج العقيدة والايمان عقل المسلم وضميره وروحه ، انطلق الاسلام ليبني مجتمعه القوي من هذه اللبنات النقية الطيبة ، ومن هذه السواعد القوية المؤمنة ، فجعل ركيزته الصلبة التى يقوم عليها بناء المجتمع الاسلامى العظيم ـ الايمان ـ بما ينطوي عليه من شعور مشترك ، واهداف مشتركة ، وحب زاخر وعاطفة دافقة ، وروح صلدة تتحمل مسؤلياتها كاملة وتقوم بواجباتها كما اراد الله « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا » .

ولم تكن هذه الصفوف ، والايدي المتكاتفه لا تملك معنى الرحمة والحياة . بل « إنما المؤمنون إخوة . . » [٢] فليس هذا التماسك الصلد تماسكا شكليا لا يتعدى حدود المعالم الظاهرية لهذا المجتمع

---

(١) دفاع عن الاسلام ص ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) الحجرات ١٠

بل إنه تماسك إنساني تلتقي فيه اخوة من حب ، وروح من ايمان وهذه هي منحة الله التي وهبها للمجتمع الذي ادار بنيانه واحكم قواعده « . . ولكن الله حبب إليكم الايمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان اولئك هم الراشدون » . (١)

فليس الدم ، ولا المال ، ولا اللغة ، ولا اللون ، ولا الطبقة ولا كل الاسباب المادية الاخرى بقادرة على رص الصفوف بوحدة قلبية مكينة اساسها العقيدة والحب العميق الذي يكنه كل واحد لاخوانه الاخرين .

لقد ظهرت اشكال عديدة من التماسك الاجتماعي على مر التاريخ تساعدها ظروف خاصة على الظهور في اول الامر قوية كقوة العقيدة ، دفاقة بالحب ، زاخرة بالعواطف كما يزخر الايمان الصحيح بها . ولكنها سرعان ما ينضب نبعها ويتبين زيفها وضحالتها ليتلاشى هذا التماسك وينهار ، فيبقى صورة مجردة تفقد معنى الحياة وعناصر البقاء .

لقد وحدت المصالح جماعات عديدة ، ودولا كثيرة . وظهرت وحدتها كأحسن ما يكون ، ولكنها حينما توصلت الى مصالحها ، وبدت لها آمالها التي سعت نحوها ، رات نفسها ان ليس لديها ما يجمعها على اساس واحد ، او يشدها برباط وثيق .

---

(١) الحجرات ٧

ولقد وحد (الخوف من العدو) أو (المنطقة الجغرافية الواحدة) مجتمعات كثيرة ولكنها رأت في النهاية ان هذه الاهداف التي التقت على صعيدها قد استنفدت اغراضها ، حيث فقدت المضمون الذي يزود مجتمعها بالتعاون المتواصل .

ولقد وحدت اللغة والوطن شعوباً متعددة وساعدت عليها ظروف زمنية خاصة ، ولكنها وجدت نفسها بحاجة شديدة إلى لغة تنبع من القلب لتتفهم آمال الاخرين والامهم ، ووجدت نفسها بحاجة ايضاً الى عقيدة تتعدى الظواهر والالفاظ لتذيب كل الحواجز الفردية والاقليمية لتجمعهم في { وحدة متراصة } تتمكن من الوصول إلى اهدافها العريضة ، وتحتل مكانها القيادي الذي حصلت عليه فى فجر تاريخها العظيم . ولتهب لها مجهوداً عجزت عن ان تهبه القوى المادية جميعاً « والف بين قلوبهم لو انفقت ما في الأرض جميعاً ما الفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم إنه عزيز حكيم » [١]

ولقد بين الاسلام واقع هذه الاسس العديدة التي ظهرت فى مراحل زمنية متعددة ، والتي لا تستقي من الحب مددها ، ولا من الايمان قوتها ، فكشف لنا عن جذورها التي ليس لها في

---

[١] الانفال ٦٣

الارض من قرار {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين}(١)

وليس هذا الحب الذي تهبه هذه العقيدة حباً يقعد بالمسلم عن تلبية الواجب و والقيام بمهماته الجسام ، فما ابعد العقيدة عن الضعف وعن العاطفة الضعيفة ، بل انه يتمكن ان يرتفع الى المسؤولية التي تدعو اليها العقيدة وتتطلبها حماية اهدافها « محمد رسول الله والذين آمنوا معه اشداء على الكفار رحماء بينهم . . . » (٢) بل هم «.. اذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين . . . » (٣) .

ولا تفقد هذه العزة والشدة على الاعداء والمتربصين به الدوائر الانسانية والرحمة . بل إن المسلم ليمد يده بالاحسان والرحمة الى الآخرين « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين»(٤) وليس هذا البر والقسط اليهم مجاملة شكلية او اسلوباً موقتاً وانما هو والمظاهر الاخرى التي يتصف بها المؤمن تنبع من واقع واحد من العقيدة في بساطتها وقوتها ورحمتها .

يقول محمد قطب فى كتابه ـ هل نحن مسلمون ـ (النيـة

{١} الزخرف ٦٧

{٢} الفتح ٢٩

{٣} المائدة ٥٤

{٤} الممتحنة ٨

وحدها لا تكفي . . لانها قوة كامنة لم تتحول الى حركة وعمل ولم تجرب نفسها امام العقبات !

والآن لننظر ما المعوقات الطبيعية فى حياة الانسان ، التي لا تكفي { النية } لمقاومتها . . والتي ينبغي تحويل هذه النية إلى قوة حقيقية لتعادلها اولا ، ثم لتزيد عليها لتنتج الحركة الحقيقية فى واقع الحياة ؟ !

معوقات كثيرة فى داخل النفس ، وموجودة كذلك فى واقع الحياة .

فمن داخل النفس : الالفة . . والعادة . . والتقليد . . والرغبة في الحياة السهلة . . وكراهة الجهد . . وكراهة التعرض للتعب والاخطار . . والعنوان العام الذي يجمعها هو { الهوى } اي الرغبة فى الاستجابة لما تهواه النفس من نزعات .

وفى الواقع الخارجي : العرف الاجتماعي الظالم والقوى المنحرفة التي قد توجد فى المجتمع وتسيطر عليه ، والعنوان العام الذي يجمعها هو { الطاغوت } اي كل قوة طغت عن حدها وتجاوزت خطها المستقيم .

الهوى من داخل النفس ، والطاغوت من خارجها ، هما { المقاومة } التي ينبغي ان تتحول النية الى قوة حقيقية لتعادلها اولا ثم تزيد عليها لتنتج الحركة المستقيمة المتمشية مع ناموس الكون وارادة الله .

العقيدة
في مجالات الحياة المتنوعة

والاسلام لما كان دين عمل وتطبيق فى وسائله واهدافه وفى كل مادة من تعاليمه .

لابد ان يعتمد على ركيزة عقيدية صلبة لها القابلية على تحمل الاهداف العملية الكبيرة والتأثير فيها ولا يمكن لهذه الاهداف ان تقف على قدميها بحرية وقوة الا اذا اعتمدت على مثل هـذه القاعدة العريضة لتعطي ثمارها على جنباتها وربوعها .

فالعقيدة الاسلامية لم تكن عقيدة روحية مجردة منفصلة عن الكيان العملي لتعاليم الاسلام ، بل إنها الى جانب كونها تطمن القلب وتنير الفكر ، تشع امام الانسان في دروب العمل ، وتحفزه على السير فى طريق التطبيق والتطوير .

١ — في المجال العبادي والخدمات العامة

فالعقيدة الى جانب كونها دعامة صلدة نرى ضوءها وآثارها تسري الى مختلف الشعب والمجالات العملية المتنوعة « قـد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون الا على ازواجهم او ما ملكت ايمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فاولئك هم العادون . والذين هم لاماناتهم

وعهدهم راعون . . . » {١} فالانسان حينما يعيش بعض الوقت في ظلال هذه الآيات المباركة لتنقل له بعض المشاهد التي يتجسم فيها الايمان حقيقة واقعة . يرى الايمان فيها مصلياً خاشعاً امام عظمة خالقه ، ومعترفاً بالنعم التي غمره بها . . وانساناً عملياً آمن بالواقع والمعاني الخيرة فاعرض عن اللغو والقشور . . وعضواً نافعاً في مجتمعه يزيل عنه كابوس الفقر واعراضه الاجتماعية الخطرة . . ورجلا امينا لا يستعمل امكانياته ورغباته وغرائزه الا في طرقها المشروعة المثمرة . . وانساناً قد التزم بالضوابط الاجتماعية الصالحة فيرعى عهده وامانته لتزدهر الثقة المتبادلة بينه وبين مجتمعه الذي يعيش في احضانه . والثقة عنصر اساسي لكل مجتمع ينشد التعاون الوثيق ، والتقدم الخلاق .

بل حتى — الصلاة — العبادة الاسلامية الهامة ، والتي لها صلة وثقى بالروح الأنسانية في صفائها ونقائها وتساميها . فانها إشعاع منير يأخذ بيد الأنسان الى العمل الابداعي الذي تنبثق منه اشعة الخير في جميع مجالات الحياة المتنوعة ، ويجنبه المسالك الوعرة التي لا يجد فيها الا حصيلة مرة ، واعمال شريرة مدمرة « ان الأنسان خلق هلوعا . اذا مسه الشر جزوعا ، واذا مسه الخير منوعا . الا

{١} المؤمنون ٢ الى ٩

المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون » {١} .

٢ — العقيدة والموارد الطبيعية والزراعية :

ولقد كرس القرآن الكريم كثيراً من آياته الناطقة . في مجال العمل والعاملين . لتتحول مفاهيم الأسلام على الصعيد العملي الى بذرة او غرسة توتى ثماراً يانعة ، والى انهار فضفاضة تغمر ارضنا وتروي قلوبنا « وآية لهم الأرض الميتة احييناها واخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ، وجعلنا فيها جنات من نخيل واعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته ايديهم افلا يشكرون » {٢}

ان الخمول والكسل لا يمكن ان يبقى مع الانسان المسلم حينما تطرق مسامعه مثل هذه الآيات المباركة . لتفتح قلبه على روعة وجمال هذه الطبيعة التي خلقها الله ، وأودع فيها مثل هذه النعم المتنوعة

وليست هي آية واحدة او أكثر قليلا . بل هي آيات منتشرة على صعيد الكتاب العزيز ، تبصر الأنسان بعظمتها ، وتنوع طاقاتها التي اختزنها الله للانسان في حناياها واحضانها ، او التي اظهرها لعين الأنسان تحت وهج الشمس . لكي يبذل الأنسان قصارى جهده لاستحصال مثل هذه الكنوز وهذه النعم الوفيرة « واوحى ربك

{١} المعارج ١٩ الى ٢٣

{٢} يسن ٣٤ الى ٣٦

الى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون » {١} « وان لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون » {٢}.

انها أوعية الرحمة تمد الأنسان بالغذاء والشفاء واللذة . وإن اختلف لونها او تنوع شكل حاملها. وما على الانسان الى ان يهتم بتربيتها وتهيئة المراعي والحقول التي تساعدها على النمو والتكاثر.

العقيدة والتصنيع

ولم تقتصر الآيات المباركة على ارشاد الأنسان الى هذه الموارد الطبيعية والتنعم بخيراتها ليكون المجتمع الاسلامي مجتمعاً ينعم بهذه الثروات الطبيعية والزراعية فحسب . بل أرشدته ايضاً الى الطرق التي يحافظ بها على سعادته هذه ويحافظ بها على كيانه العقيدي والاجتماعي من ان تناله يد العابثين والمستغلين « . . . وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس . . . » {٣} ارشاد فيه تحذير من

{١} النحل ٦٩، ٧٠

{٢} المؤمنون ٢٢

{٣} الحديد ٢٥

باس شديد كي لا يستغله الاعداء ، فيظهروا على المسلمين ويتغلبوا عليهم ، وفيه حث على استغلال المنافع التى كشف العلم الحديث عنها وعن اهميتها في مختلف المجالات .

ان هذا المستوى من الوعي العميق الذي تملكه الدعوة فى أولى مراحلها . لا يمكن ان يصل اليه غير الاسلام الذي سعى نحو المعجزة فى اولى خطواته وسار في الطريق من اجل تحقيقها .

ولم يكتف القرآن بهذه المرحلة من الترغيب ، والدعوة العامة الى الاستفادة من هذا المعدن . اساس الثورة الصناعية الحديثة ، بل اظهر للعقول المفكرة عظمة الاستفادة من هذا المعدن الحيوي الهام وعظمة الصناعة التي تؤسس من هذا المورد الطبيعي الحساس فالهمها الله لبعض عباده الصالحين ، والقى نورها فى عقولهم « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل انتم شاكرون » {١} « ... وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون » {٢} . فما على العقول المؤمنة الا ان تسعى وتتعاون في ايجاد خطة صناعية مدروسة لتحصننا من بأس العدو الداخلي والخارجي الذي يريد الاجهاز على كيان المجتمع المسلم ، والقضاء على معالمه الثقافية ومثله الاجتماعية .

{١} الانبياء ٨٠

{٢} النحل ٨١

العقيدة والوعي الاجتماعي :

ولم يكتف الاسلام بتجميع هذه المنافع الطبيعية بايدي اناس لا يحسنون استغلالها ، ولا يؤدون حقها . بل اهتم كذلك بانشاء المسلم الذي يؤدي حقوق هذه النعم ، ويلبي نداء الواجب الموجه اليه فى الاسهام العملي المثمر فى مختلف المجالات الاجتماعية« ايايها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله باموالكم وإنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون » (١) ، فالعقيدة لها نداء فى ضمير اصحابها لابد لهم من تلبيته ، والاستجابة له ، وللدعوة مستلزمات لابد لاهلها من تحملها والقيام باعباءها ، ولكيان الامة ضريبة لابد ان يؤديه ابناء هذه الامه .

لكى يبقى كيانها وهاجاً تحت نور الشمس ينبىء عما احرزته من انتصارات مؤكدة . لا تسمح للاعداء بالتغلب عليها ، او محاولة اختلاسها ، وتزوير اهدافها الخالدة « احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » (٢) وما هذه الاختبارات بالنسبة للجماعة الصالحة حينما تعرض لها . الاعوامل جديدة للمحافظة

---

(١) الصف ١٠ ، ١١

(٢) العنكبوت ٢

على النصر واستمرار المكاسب المثمرة . لانها من المؤثرات الهامة التى تعمل على بلورة العقيدة ، وتصفية المجتمع الصالح مما قد يعلق به من ادران في مراحل مسيرته الظافرة « ولما راى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله وما زادهم الا ايمانا وتسليما » [١] .

والامة التي لا تعرض لمؤثرات عديدة ، واجواء متنوعة لا تصلح لان تقام على يديها التجربة الانسانية الضخمة ، ولا يمكن لها ان تكون بحق (الامة الاسلامية) التي عناها قرآنها بقوله « وكذلك جعلناكم امة وسطاً لتكونوا شهدا على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا . . . » [٢] .

فالرسالة العقيدية الشاملة . تتعرض بسبب عوامل كثيرة الى عقبات ، ومؤثرات معاكسة ، وظروف طارئة فى جميع مراحلها التي تظهر فيها ! سواء كان فى مرحلة الزحف العقيدي وتكوين العقيدة الصحيحة فى ضمير ابناء المجتمع ام في مرحلة التطبيق العملي لمفاهيم الرسالة واهدافها . واخيراً في مرحلة الاستمرار والمحافظة على نتائج التطبيق من العقبات الداخلية والخارجية . ولكل من هذه المراحل طابع خاص يميز سلسلة المشاكل والاحداث التي تر دفيها

---

[١] الاحزاب ٢٣

[٢] البقرة ١٤٣

فلكل منها اطار عام تنتظم فيه تلك الاحداث الجزئية المتتالية وان بدت فى بعض الاوقات ان لا علاقة لبعضها مع البعض الآخر

شبهات واساليب ورد الاسلام عليها :

والرسالة الاسلامية وان كانت قد تخطت دور التثقيف والدعوة الى دور البناء والتطبيق العملي الهـادف ، فكانت تجربة رائعة تمكنت من ان تذيب اكبر الحواجز المعرقلة لانبثاق النهضة والبناء.

وقد ذللت في مسيرتها الظافرة اعظم الموانع والعقبات التي تقف حجر عثرة في طريق التقدم الانساني الخلاق.

حيث حولت المجتمع الضمي الى مجتمع مؤمن تتلاطم فى ضميره امواج العقيدة والايمان ، والمجتمع المنكوب بصراع ابناءه وتوزعهم فى صحراء الشمس . الى مجتمع متماسك قد احتضن فلذات قلبه وكل ابناءه المخلصين .

وحولت العواطف المتناثره والموزعة . الى عواطف انسانية منتظمة تتحول ببركة (المركز العقيدي) الى نهضة بناءة فى المجالات الانسانية المتنوعة .

ولكن هذه الحقيقة كلها لم تمنع بعض الجهات من ان توجه الى امكانيات ـ النظام الاسلامي ـ في العمل والنزول الى الحياة الخارجية . شبهاً متناقضة ومتضاربة في المنطق والمحتوى ؟ ! ولم

تكن اثارة مثل هذه الشبهات لاجل قصور في دراستهم لاحكام الاسلام ، او جهل بواقعه المشرق . بل لان الهدف غير نزيه في اغلب الاحوال .

فالباحث حينما يتتبع مثل هذه الشبهات في مصادرها الاولى وحينما يدرس بامعان اساليبها ومحتوياتها المتناقضة . يدرك بوضوح ان الدافع كل الدافع لهذه الاعمال انما هو التشكيك بامكانيات التشريع الاسلامي في مرحلة الحياة العملية ، فلذلك ولاجل تحقيق هذا الهدف العدواني لم تتحرج ان تسلك اي طريق واي اسلوب تتمكن عليه ! ! .

ولسنا نريد في هذا الفصل بالذات ان نختبر مدى قوة هذه الشبهات وثباتها امام الواقع ، فالبحث بكامله لم ينظم الا لتأليف قوة متراصة لها قابلية الاجهاز المحكم على مضمون هذه الشبهات ، وتعرية اساليبها الماكرة .

ولكننا نريد ان نشير الى بادرة لها دلالتها واهميتها في هذا المجال . وهي ان الاسلوب الذي صبت فيه مثل هذه الشبهات ، والمنطق الذي اعتمدت عليه في التشكيك والاثارة . يدل دلالة واضحة على انها لم تنطلق من منطلق علمي او واقعي ، فلهجة كل اسلوب منها يناقض اللهجة التي اعتمدت عليها الشبهة الاخرى في اسلوبها ، وتتضارب معها من البداية الى النهاية .

ولذلك فمجرد النظرة في هذه الاساليب التي اطلقها مثيرو هذه الشبهات والاوهام . تكشف لنا وتلمسنا حقيقة هذه الدوافع وما تنطوي عليه من احقاد متأصلة واطماع لاحد لها ولا امد .

الاسلام لا يمكن تطبيقه لانه وصل القمة فى المثالية الاجتماعية والفردية ؟ ؟

فأول ما يدعو اليه هو التنكر للمصلحة الفردية ، وتناسي الانسان رغباته وميوله الشخصية ؟ ؟ . ثم يعقبون على هذا بقولهم ولكن الانسانية اليوم مثقلة بانحرافات عديدة واطماع متأججة وواقع منخفض ؟ ! . لذلك فهي الآن فى بعد شاسع عن هذه المرحلة العليا التي ينشدها الاسلام .

والبشرية الآن لا يمكن لها ان تصل الى هذا المستوى الرفيع من التطور والرقى فى حياتها . الحاضرة . ويستخلصون من هذه المقدمات النتيجة التالية : وهي ان البشرية الآن لابد لها ان تختار بعض الافكار التي تقع فى مستويات تتناسب وواقع الانسان اليوم من الانخفاض ! .

والاسلام لا يمكن تطبيقه فى الخارج نظاماً شاخصاً وحقيقة واقعة ؟ لأنه مختص بمرحلة زمنية خاصة من التاريخ ؟ ؟ وهذه المرحلة قد انتهى دورها فلا يمكن إذن ان تفرض قوانينها على المجتمع البشرى في الوقت الحاضر ؟ !

فالانسان اليوم وفى هذه المرحلة من التاريخ قد قطع اشواطاً بعيدة في طريق النهضة والتقدم ، فتطبيق نظام الاسلام على حياة الانسان المعاصر ما هو الارجوع به الى الوراء مراحل عديدة . وهو امر لا يغتفر فى عصر الذرة والصواريخ الموجهة .

والاسلام لا يمكن تطبيقه ابداً وبأي حال ؟ ! لانه يمنع الانسان من ضرورة لازمة ، وغذاء حيوي نافع يمنعه من ان يتعلم ؟ من ان يستغل فوائد العلم التي ذللت له الصعاب ، وسخرت له قوى الطبيعة المعطاء ؟ ؟ .

واكبر شاهد على ان الاسلام يحرم المجتمع من السير في طريق العلم والاكتشاف ، والنهضة الصناعية . وقوف — رجال الكنيسة — الذين قادوا الحروب الصليبية ضد الاسلام والمسلمين . وقوف هؤلاء حجر عثرة في طريق العلم والنهضة الصناعية في العصور الوسطى ولو لم يحرم الاسلام العلم ؟ لما حرمه رجال الكنيسة ؟ ؟ ولو لم يمنع منه الدين الاسلامى لما طارد القساوسة علماء عصرهم تنكيلا وحرقاً.

ان اقتناع بعض الافراد بمثل هذه الشبهات ، وان ترديدهم لمثل هذه الاساليب . يتطلب علاجاً نفسياً قبل ان يعالج علاجاً علميا بطريقة موضوعية .

إنهم بحاجة ملحة الى من يشعرهم بأن لهم وجوداً على مسرح

هذه الحياة ، وانهم قادرون بما يملكون من امكانيات على ان يعيدوا المعجزة التي صنعها آباءهم المجاهدون السائرون على هدى تعاليم الاسلام .

وهم بحاجة ايضاً الى ان يفهموا بان الانسان هو الانسان. بما يملك من قوى ومواهب وقابليات ، والمبدأ الاسلامي هو ذلك المبدأ الذي تمكن ان يصنع المعجزة التى لا يزال صداها يتردد في مسمع التاريخ و (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم)

إن البرهنة العلمية على ان الاسلام لا يتنافى والعلم . انما هو – فيما اعتقد – ظلم لواقع الاسلام من غير قصد ، وظلم لتاريخه المشرق ايضاً . فالعلم واكتشاف قوى الطبيعة الفياضة من اهم ابعاد الدعوة الاسلامية ، وعامل قوي يساعد الدعوة على تركيز محورها فى العقيدة والايمان على اسس علمية رصينه « الم تر ان الله انزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلفاً الوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والانعام مختلف الوانه كذلك ، انما يخشى الله من عباده العلماء » (١) . « وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » (٢) .

لقد كان المسلم فى فجر الدعوة الاسلامية يؤمن ايماناً عميقاً

---

(١) فاطر ٢٦ ، ٢٧

(٢) العنكبوت ٢٣

بانه جزء لا يتجزا من الطبيعة التي تحوطه وتحضنه ، وان علاقته بها علاقة مودة وتألف . وقد خلقت من اجل يتسير شؤونه وحاجياته . ومن اجل القيام برغباته المتنوعة ، ومتطلباته العديدة « الم تر ان الله سخر لكم ما فى السموات والارض واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة . . . » (١)

ان هذا الادراك العميق الذي اتصف به الانسان المسلم لنعم الطبيعة وخيراتها وهذا التعاون الوثيق بينه وبين قواها المتنوعة كان من العوامل الهامة التي عملت على نجاح الدعوة الاسلامية ومنحها كل الخيرات والنعم .

إن اهم سبب لفشل النظم الوضعية حينما تظهر على مسرح التطبيق والعمل . هو مصادمتها لواقع الحياة ولغرائز الانسان الاصيلة فتحكم على نفسها بالعدم فى اولى خطواتها التي تخطوها على الصعيد العملي ، ولذلك فهي تلجأ تحت ضغط الواقع ومتطلبات ظروفه . الى تحوير كثير من معالمها الرئيسة ، واهمال اهدافها التي نادت بها قبل زمن التطبيق .

ولقد ادرك كثير من العلماء المسلمين هذا الواقع العلمي الذي تتصف به الدعوة الاسلامية ، فألفوا الكتب العديدة في بعض النتائج العلمية التي اكتشفها العلم الحديث والتي حملتها الدعوة فى

(١) لقمان ٢٠

دستورها الخالد ـ القرآن الكريم ـ ، كما الفوا فى التطور العلمي الذي حصل على ايدي المسلمين . حينما كانت اوربا تسبح في ظلامين ـ ظلام الفكر ، وظلام النور . وعلى هذا فبامكاننا ان نقول ان الدعوة الى العلم في الاسلام والسير في آفاقه الواسعة لم تكن دعوة بسيطة مجردة بل إنها احتوت على معالم الروح العلمية ومقوماتها وذلك إن القرآن قد تعرض للمراحل التالية :

١ ـ الدعوة الى السير فى جوانب الطبيعة التي خلقها الله والتفكير فى عظمة ملكوت السماء ، وآفاقة الواسعة وآياته البليغة ، وقد منح الله سبحانه اولئك المتفكرين وسام (العلم) وسماهم (بالعلماء) وذلك كقوله تعالى « انما يخشى الله من عباده العلماء » وقوله تعالى « وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » مما يدل دلالة واضحة على ان هذا العلم إنما هو جزء لا يتجزا من الدعوة الاسلامية وركيزة قوية تبتني عليها عقيدتها .

٢ ـ ارشاد الانسان الى الموارد الطبيعية التي هي المادة الأولى لكل عمل تصنيعي ونهضة صناعية .

٣ ـ بيان بعض الصناعات المستخرجة من هذه الموارد مما يتناسب وتطور العقلية الاجتماعية آنذاك .

٤ ـ بيانه لبعض النظريات العلمية في مختلف المجالات والتي يتحفنا العلم الحديث بكثير من اسرارها البليغة واياتها الباهرة .

لقد كان البناء العملي للمجتمع الاسلامي الذي ظهر على الصعيد المادي ، والأدبي ، والعلمي . صعيد العمل والفكر والثقافة ، والذي خلق روح الاجتهاد والبحث ، والانفتاح العقلي على القوى المتنوعه التي توصل الانسان باسباب القوة والمنعة . ما هو الا بعض من العطاء الذي قدمه القرآن وتعاليم الاسلام الفياضة الى المجتمع المسلم الذي لم يتحمل هذه الرحمة الكبيرة بكل ابعادها وحدودها ، وبجميع عطاءها ومحتواها .

وقالوا ايضاً : بأن الاسلام لا يمكن تطبيقه . لانه دين بلغ الذروة في المثالية الانسانية ، ووصل الى اعلى المستويات في التقدمية الاجتماعية ، فهو نظام الى المثالية اقرب منه الى الواقعية والتطبيق؟! وقالوا ايضا : بأنه لا يمكن تطبيقه لأنه نظام رجعي لا يتلائم والمجتمع التقدمى فى العصر الحديث .

شبهتان كل منهما تناقض الآخرى ، وتتعارض معها في صميم محتواها ، كما تشهد بزيفها وكذبها الفاضح . وتكشف فى نفس الوقت الدوافع العدائية المتسترة بامثال هذه الاباطيل .

الاسلام دين مثالي وهذا صحيح وهل شرع الا للانسانية والاخلاق الفاضلة . اما انه لا يمكن تطبيقه ، ولا يتمكن من انقاذ الانسان وتحرير كيانه من المستوى المنخفض الذي وصل اليه فهذا باطل من اساسه . فان كل مادة تنص عليها الشريعة الاسلامية ،

وكل حكم من احكامه ، سواء فى مضمونه الذي يحتوي عليه ام في إسلوبه الذي يدعو الى سلوكه للحصول على اهدافه . يشهد بكذب هذه الدعوى ، وانها افتراء محض على الشريعة الغراء واهدافها الاجتماعية الخلاقة .

حيث جاء الاسلام الى مجتمع وقد طغى عليه فى كل ناحية من نواحيه ، وفي كل بعد من ابعاده . الف مشكلة ومشكلة وقد انطلق بلا وعي في طريق السلبية والانهيار بكل قواه الهادمه فلقد كان على شفا حفرة من نار تريد ان تحرق وجوده الى الابد . ومع ذلك كله تمكن الاسلام من ان يثبث قدميه في مثل هذا المجتمع ، وان يحول سلبيته وانحرافه عن خط الانسانية الى طاقة ايجابية تسير في طريق الخير والبناء الشامل ، وتدعو الانسان فى ارجاء الارض الى السير معها في هذا الطريق اللاحب .

تاريخ الدعوة يتكلم

الكتاب مصور بالميكروفيلم

وحينما نستمع الى تاريخ الدعوة في انتصاراتها وانجازاتها . فانما نستمع الى حديث يزيل الضعف الذي اصاب معنوياتنا والادران التي علقت بقلوبنا ، والرواسب التي تراكمت على نفوسنا وافكارنا نتيجة انحراف طويل عن – الجادة المستقيمة – التي هدانا الله لها وارشدنا اليها .

نستمع اليه ليفتح قلوبنا ويضيء افئدتنا فنتصل بالدعوة في واقعها اتصالا مباشراً لنستوحي منها قوة في إرادة ، ونفاذاً في تصميم ، واملا في انتصار ، وسعياً نحو العمل الهادف المثمر .

ولا يمكن لنا ان نجسد تاريخ الدعوة في ضمائرنا فنتحسس عمليتها التحويلية الشاملة ، ونرى فصولها الانسانية الرائعة الا اذا تحررنا عن الضعف و (اللاشيئية) التي ارادها المستعمر لنا كي لا نقوم بمتطلبات عقيدتنا ومستلزمات اهدافنا .

لقد بذل المستعمر كل قواه الشريرة في ان يجعل من نفوسنا نفوساً – مترهلة – لا تقوم بدورها التاريخي الذي يراد منها ، وهاجم بكل ما يتمكن – تمركز العقيدة – في قلوبنا اساس وجودنا الاجتماعي المكين . ولذلك فقد لا نهضم الانتصارات الاسلاميةالعظيمة حينما تطالعنا ادوارها ، ولا نعتبرها استجابة خلاقة لدعوة العقيدة ونداءها .

ولعلنا نستكثر على – رسالة الاسلام – ان تدافع عن نفسها

او تقول كلتها وسط تكتلات عقيدية عدوانية ، او روح وثنية جاهلية .

لقد راينا باستمرار - الاساليب الغربية - التي يقصد منها تدمير كياننا واستغلال مواردنا وثرواتنا . وكانت هذه الوسائل العدوانية دعائية تارة ، وحربية اخرى ، فنغمض عنها اعيننا لنناقش بروح انخذالية بعض المواقف الحازمة التي وقفها الاسلام تجاه اعدائه ثم شاهدنا في فترة من الزمن - العدو الآخر - وقد اراد ان يجهز على وجودنا ، ويمد يد الخراب والدمار الى معالم حضارتنا ومقومات رسالتنا ليقضي عليها قضاءاً تاماً كما فعل ذلك باجزاء عزيزة من الوطن الاسلامي الكبير .

ولا يمكن لنا ان ننتظر من دين الاسلام ورسول الاسلام وهو الذي ارسل رحمة للعالمين ان يعامل المجتمع معاملة هؤلاء ، كما لا نقصد بذلك الموازنة بين السيرتين سيرة هؤلاء وسيرة الرسول الاعظم(ص) لنثبت من خلالها رافة وانسانية الرسالة الاسلامية . ولكننا نريد ان نعلم اننا لا يمكن ان نلمس الرحمة الكبيرة التي قدمها النبي لابناء مجتمعه الذين عاش معهم ، ولا يتأتى لنا ان نعي (العفو العام) الذي اصدره عن ابناء قومه في ساعة النصر والظفر بهم وقد تربصوا به وبدعوته الدوائر واذا قوه والمسلمين معه شتى صنوف الاذى والاضطهاد وتتبعوه الى البلد الذي احتضن رسالته ودينه فلا يمكن لنا ان نتطلق في

دراستنا إلى هذه القمم الانسانية الرائعه الا اذا درسنا سيرته بروح الداعية المبدئي الذي يدرك جيداً واجبات الرسالة التي يحملها والنوايا العدوانية التي يبيتها الاعداء للانقضاض عليها فى كل الفرص المناسبة .

فلا يتيسر لنا ان ندرك مدى الانسانية والرحمة في كلمته الخالدة (اذهبوا فانتم الطلقاء) وان نلمس النعمة الكبيره في الاية الكريمه التي صدح بها القرآن الكريم « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » (١) الا اذا اتصفنا بهذا الوعي وهذه اليقظة المدركه .

وحينما نصل الى هذا المستوى الذي تريده الدعوة لانصارها أمكن لنا ان نفتح عيوننا على النصر العظيم الذي حققته فى فجر تاريخها الزاهر على ماتحلت به من روح التسامح مع الافراد والجماعات ماوجدت إليه سبيلا .

ولنشاهد أيضاً نكث العهود والمواثيق والغدر بالمسلمين من جانب اعدائهم واعداء رسالتهم التي صنعت معهم صنعاً جميلا وقدمت لهم يد الصلح والموادعه .

ثم لندرك جيداً كيف ان الاسلام تمكن ان يغير مجتمعاً وعالماً تغييراً استوعب كل الافاق والتي عجزت التفسيرات التطورية

---

(١) الممتحنه ٨

المادية عن تفسير هذه الانطلاقة وهذا التحول الهائل .

ولقد راينا من خلال دراستنا الموجزة ان الاسلام حيث انه جاء عن طريق الاسباب الطبيعية والبشرية فلم يكن ليسلك طريقاً يفوق طاقتهم وقدرتهم في نشر احكامه والعمل برسالته فراينا ان قسماً من اهدافه قد سعى اليها تارة على نحو ـ التدرج في التشريع ـ تدرجاً زمانياً فيتم بعضه البعض الاخر . واخرى على نحو ـ التدرج في التطبيق ـ تدرجاً في المكان او في الجماعات التي يطبق عليها ذلك التشريع واهدافه التي يحملها .

ويفترق هذا التدرج الذي نحن بصدده الآن افتراقاً جوهريا عن التدرج والمرحلية التي تنتهجها الشيوعية او الاشتراكية للوصول إلى اهدافهما .

وذلك لان الشيوعية حينما سلكت (طريق الاشتراكية !!) كخطوة اولى في سيرها نحو هدفها الاخير لم تكن تؤمن باهداف الإشتراكيه ومالها من معالم وآراء ، ولم تلتزم بها الا حينما الجاتها الظروف الاجتماعية والفطرة الانسانية عن السير في طريق المسخ المشوه لتلك الغرائز الانسانية الاصيلة .

وهكذا الاشتراكية حينما سلكت طريق (البرجوازية !!) وحينما شجعت بعض استثماراتها ومشاريعها فانها لم تؤمن بها ولا باهدافها . ولكن الضرورة ايضاً الجأتها الى الممر في هذا الطريق .

فالالتزام بهذه المرحلية من قبل الشيوعية والاشتراكية انما هو التزام باهداف مناقضة للفكرة تماماً ومضادة للغايات التي يبغون تحقيقها .

ولكن التدرج الذي حصل فى التشريع الاسلامي فى قسم من احكامه واهدافه لم يكن خارجاً عن صميم الهدف الجوهري في الاسلام بل إنه جزء لايتجزء امن هدفه العام وداخل في نطاق دائرته .

وحتى النسخ ما هو في الواقع الا تدرج للوصول الى الهدف النهائى الذي يبتغيه الاسلام فالتوجه فى الصلاة الى بيت المقدس يمكن ان يكون تدرجاً وانتقالا من دور الوثنيه الى دور الايمان الخالص والوصول في النهاية الى الشعار الخالد لهذه الروح الايمانية المتبلوره واعني به البيت المعمور والكعبة المشرفه فى عبادة المسلمين وصلواتهم

فهو اذن من صميم الهدف العام في عبادة (الواحد الأحد) وليس خارجاً عن نطاقه .

ولتوضيح هذه النقطة التي تميز تدرج الاسلام عن مرحلية النظم الوضعية هذه . نأخذ مثلا : تدرج الاسلام فى تحريمه للخمر على ماينقلها المؤرخون ، والالتزام بالربا والمعاملات الربوية فى مرحلية الاشتراكية والشيوعية .

فالقرآن حينما حرم السكر فى حال الصلاة لم يكن هذا التحريم والثمرة المترتبة عليه بخارجة عن الهدف العام والاخير في تحريمه

نهائياً وابدياً . بل انها حالة من الاحوال الدائمية التي يريد الاسلام تحريم الخمر فيها ، ولذلك فهي لم تخرج عن الخط الذي يسير فيه التشريع الاسلامي في احكامه وغاياته .

وهذا ما يغاير التزام الاشتراكيين والشيوعيين بالمعاملات الربوية مع انها دعامة مهمه من دعائم الاقتصاد الراسمالي وفلسفته فى الاستغلال والثراء . فسلوكهم فى هذه المعرات واتباعهم لمثل هذه الاساليب ما هو الا احتقار كبير لاهدافهم التي يسعون إليها ويعملون من اجلها (١) .

فالاسلام حينما جاء الى مجتمع قد تجمعت لديه رواسب عديدة ادت به الى تشويه كثير من معالم فطرته ، وحينما اثقل كاهله بتركات اوجبت له انخفاضاً هائلا عن المستوى الانساني الذي ينشده الاسلام كان لابد عليه ان يسلك فى جانب التشريع اوجانب التطبيق طريق التدرج في كثير من احكامه وغاياته . الى ان يصل الى المستوى الذي ينشده ويسعى إليه .

---

(١) من الغريب جداً ان يتهم الاسلام بالتقصير فى مكافحة الاستغلال والثراء غير المشروع وهو الذي يعلنها حرباً شعواء على مثل هذه الاساليب اللانسانيه في استغلال جهود الفقراء وكدح الكادحين بدون عمل او عناء . بينما نرى هذه المبادى التي تدعي انها ذات الامال العريضة تسلك هذه الوسائل التي تمتص جهود الامم الضعيفه والدول النامية .

فنحن بدراستنا لجانب كبير من احكام الاسلام وغاياته نتمكن ان نلاحظ فيها ان النبي « ص » قد سلك في بعضها سلوكاً تدرجياً في الاعلان والتشريع . وفي البعض الآخر اعلان وصدح بالهدف الاكبر من اول الأمر مع سلوك السبل المشروعة في تطبيقه وتحقيقه

التدرج في التشريع :

فاذا لاحظنا الجانب العسكري وجانب الدفاع عن العقيدة وحرية انتشارها . نرى الاسلام قد تدرج في ذلك وابتدا من امر المسلمين بالهجرة الى الحبشه تارة والى المدينة اخرى تخلصاً من اذى المشركين وجورهم . الى الدفاع عن العقيدة ورد الاعتداء والظلم « اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير * الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله ... » (١) الى قتال المشركين والوثنيين كافة « ... وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا ان الله مع المتقين » (٢) وقتال التكتلات العقيدية والعدوانية التي تمنع من انتشار الدعوة وحريتها والتي تريد

(١) الحج ٣٩ ، ٤٠

(٢) التوبة ٣٦

ان تبني لها كياناً على حساب كيان الاسلام ورسالته الشاملة (١) وحينما نعيش مع هاتين الآيتين نطلع على موقف الدعوة مع الآخرين من اهل الكتاب « قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولايحرمون ما حرم الله ورسوله ولايدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون » (٢) وقوله تعالى « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » (٣) يقول السيد الخوئي حفظه الله . . . فان الايات القرآنية الآمرة بالقتال إنما وردت فى جهاد المشركين ودعوتهم الى الايمان بالله تعالى وباليوم الآخر . واما اهل الكتاب فلا يجوز قتالهم الا مع وجود سبب آخر . من قتالهم للمسلمين ، لقوله تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا إن الله لايحب المعتدين » (٤) او إلقائهم الفتنة بين المسلمين لقوله تعالى بعد ذلك : « والفتنة اشد

(١) ملحوظة لانقصد بهذا تأريخ سيرة النبي او تدرج التشريع من ناحية فقهية وانما نذكرها من وجهة تاريخية كما يذكرها المؤرخون او المفسرون . لا الاحاطة بظروفها المحيطيه او دلالتها اللفظيه .

(٢) التوبه ٢٩

(٣) الممتحنه ٨

(٤) البقرة ١٩٠

من القتل » البقره ١٩١ او امتناعهم عن اعطاء الجزية للاية المتقدمه)
– البيان مبحث النسخ –

فليست هي عقيدة تفرض بالسيف او تريد إبادة اعدائها والمخالفين لها فى الراي كما نشاهدها في المبادىء المادية الحديثه وانما يهدف الى إزالة الموانع والجماعات المقاتلة ان الدين من ان تقف في وجه الاسلام او تصد دعوته .

وليس من المحتم علينا ان نذهب الى ان دين الاسلام لم يبح للمسلمين الا الدفاع عن وجودهم وانفسهم من ان يبادوا ويقضى عليهم ، ولايكون موقف المسلمين إلا انتضار الهجمات من الاعداء ليقوموا بردها واتقاء اخطارها ، وليس للمسلمين دور الا قتال الوثنيين والكافرين الذين يغزونهم فى عقر دارهم وبلادهم .

ليس هذا من طبيعة دعوة ايجابية تريد ان تنشر اهدافها وان تبني كيانها وسط أمواج متلاطمة من الوثنية والكفر والظلم . بل لايمكن لها البقاء ان شرعت هي ذلك .

وحروب النبي {ص} وغزواته أكثرها او كلها وأن أيدت راى هؤلاء فاثبتت الموقف الدفاعي للاسلام ، وان النبي لم يقم الابرد كيد المعتدين والناقضين للعهود والمواثيق بعد ابرامها حيث نراه فى غزوة بدر يقول : (اللهم هذه قريش قد اتت بخيلائها تحاول ان تكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني . اللهم

ان تهلك هذه العصابة اليوم لاتعبد) .

وفي غزوة احد تجهز المشركون للاخذ بثارات بدر والاصرار على الغي والاعتداء ، وفي الخندق للهجوم على مدينة الرسول {ص} وعلى الدعوة في معقلها ، وفي فتح مكة حيث نقضوا العهود وخالفوا المواثيق .

ولكن الاسلام شرع القتال مع الوثنيين ، ومع الجموع المقاتله في الدين من الكتابيين الذين ارتكبوا احد الأمور الثلاثة المتقدمه . حيث دلت على ذلك آيات الكتاب العزيز . ولكن ذلك لايعني سلب الحرية عن اهل الكتاب وفرض الاسلام عليهم بالقوة ، وسنتحدث باسهاب في بعض فصول الكتاب عن الحرية التي منحها الاسلام لغيره من اهل الاديان الكتابية الاخرى ، وعن الحماية التي هيئها لهم ، والتشريعات التي تكفل حقوقهم والتي نص عليها الاسلام في دستوره الخالد .

فنرى من خلالها انه لايمكن لأية دولة او اي تشريع ان يمنح مثل هذه الحقوق لاناس افترقوا عنه في كثير من الاسس التي يهتم بها الاسلام وتكون جانباً كبيراً من معالم دينه وكيان دعوته ، فنعرض نماذجاً من المجتمعات الراسمالية وكيف تعامل الفكر الاشتراكية والشيوعية ! . كما نعرض نماذجاً من المجتمعات الشيوعية وكيف تعامل الفكر الراسمالية والبرجوازية ! . لنعرف الحرية

الكبيرة ، والنقطة الجوهرية التي يفترق بها الاسلام عن سائر هذه المبادىء التي غذاها الانسان بظلمه وجوره واستبداده .

فنشاهد الدولة الاسلامية وقد بنيت على قاعدة عريضة تجعل من المسلمين واهل الكتاب مواطنين يستظلون بلواء الاسلام إنهم التزموا باحكامه واهدافه ولم يخرجوا عليه .

وهكذا الحال فى الميدان الاقتصادي حيث تدرج الاسلام فى تشريعاته التي تهدف الى ابادة الفقر وزرع التعاون المثمر بلا اضرار بالغرائز الفردية والحرية الفطرية الاصليه . ووصل فى سيره التشريعي فى مراحله الاخيرة الى تشريع الفريضة المهمه فى الاقتصاد الاسلامي واعني بها - الخمس - حيث او جبها في الغنيمه « واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ... » {١} قال المفيد {ره} فى المقنعه : الغنائم كلما استفيد بالحرب من الأموال وما استفيد من المعادن والغوص والكنوز والعنبر وكل مافضل من ارباح التجارات والزراعات والصناعات من المؤنة والكفاية ...) {٢} ... ويرشد إليه صحيحة عبد الله ابن سنان قال سمعت ابا عبد الله «ع» يقول : ليس الخمس الافى الغنائم خاصه . وبالجملة ان الذي يستفاد من كثير من الأخبار ان

{١} الأنفال ٤١

{٢} آيات الأحكام للجزائري

الغنيمة ليست مختصة بالماخوذ من دار الحرب بل هي اعم من ذلك ولعله الظاهر من كلام اهل اللغه) {١}.

وفي التطبيق أيضاً :

واما الاهداف والغايات التي صدح بها واعلنها بابعادها كلها حينما جاء دور إعلانها . فمنها انسانية الدعوة الاسلامية . وكان الرسول {ص} الى جنب القرآن يؤكد هذا الهدف الاكبر بمالامجال فيه لتردد او انحراف ، ولم يقتصر القرآن في بيانه لهذا الهدف على آية واحده او ايتين او اكثر قليلا بل هي آيات متعددة تعلن هذه الحقيقه المشرقه وان هذه الرسالة وهذه الرحمة الكبيرة لا تقتصر على قوم دون آخرين ولا على طبقة دون اخرى بل هي للانسان اينما وجد « إن هو الا ذكر للعالمين » {٢} « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » {٣} « وما ارسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيرا {٤} « يأ ايها الناس اني رسول الله

{١} نفس المصدر . ملحوظة لسنا الآن في صدد بيان ادلة الخمس من جميع وجوهها وانما نحن مع الآية فى دلالتها .

{٢} ص ٨٧

{٣} الفرقان ١

{٤} سبأ ٨٧

إليكم جميعاً » {١} « وما ارسلناك الارحمة للعالمين » {٢} * الى غير ذلك من الآيات التي تعلن هذه الغاية العظمى من الرسالة الاسلامية والتي جاءت لانقاذ بني الانسان من القوى التي تشدهم الى الهاوية فى اي مجال كان وايا كان مصدرها .

وسعى النبي العظيم {ص} في تطبيق هذا الهدف . من المؤاخاة الأولى بين المهاجرين ، الى المؤاخاة الثانية بين المهاجرين والأنصار ، إلى توحيد المجتمع المدني ، ومنه انطلق لتوحيد مجتمعه الاسلامى الكبير .

وههنا ظاهرة تثير انتباهنا في هذا المجال لأن لها دلالتها ومغزاها : وهي ان النبي {ص} على ما يذكر المؤرخون كاتب ملوك العالم من الفرس والروم وغيرهم بعد صلح الحديبيه وقبل فتح مكة اي قبل — توحيد العرب وقبائلهم — بل قبل توحيد شطر من الجزيرة العربية وما ذلك الاليبرهن على هذه الحقيقه الناصعة وانها جزء لايتجزا من رسالة الاسلام واهدافه الاجتماعية الكبيره .

فلا يحق للمسلمين إذن اذا سنحت لهم الفرص فى دعوة اقوام مختلفين وبقاع متنوعة من العالم الى دين الاسلام ان ينتظروا توحد

{١} الاعراف ١٥٨

{٢} الأنبياء ١٠٧ * استرشدنا في الآيات بكتاب (بين الجاهليه والأسلام) لمحمد مهدي شمس الدين . وكتاب (دفاع عن الاسلام) للدكتوره فاغليري

بقعة مخصوصة او قوم معينين ليفرطوا بهذا الهدف الاسلامى العظيم بل عليهم ان ينشروا دين الاسلام وان يسعوا الى توحيد المسلمين مهما وجدوا إليه سبيلا وإن لهم فى رسول الله إسوة حسنه وليطهروا نفوسهم من كل شائبة قد تحجب انواراً من العقيدة او تلقي عليها ضباباً كثيفا ، وليكونوا بحق اتباعاً لنبيهم الكريم .

ومن تلك الاهداف التي صدح بها نبينا [ص] بكل واقعها وشمولها- الخلافة والامامة - .

وتعيين صاحبها الذي يصلح لها . وكان هذا الاعلان قد ابتدا مع الدعوة الاسلامية فى اشراقها وبزوغ نورها وبدايته حديث الدار : (كان ذلك في مبدا الدعوة الاسلامية قبل ظهور الاسلام بمكة حين انزل الله تعالى [وانذر عشيرتك الاقربين] فدعاهم الى دارعمه - ابي طالب - وهم يومئذ اربعون رجلا يزيدون رجلا او ينقصونه ، وفيهم اعمامه ابو طالب وحمزه والعباس وابو لهب . والحديث فى ذلك من صحاح السنن المأثوره ، وفى اخره قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يابني عبد المطلب إني والله ما اعلم شاباً فى العرب جاء قومه بافضل مما جئتكم به ، جئتكم بخير الدنيا والآخره ، وقد امرني الله ان ادعوكم إليه ، فايكم يؤازرني على امري هذا ، على ان يكون اخي ووصيي وخليفتي فيكم فاحجم القوم عنها غير علي - وكان اصغرهم - إذ قام فقال

انا يانبي الله اكون وزيرك عليه ، فاخذ رسول الله برقبته ، وقال إن هذا اخي ووصيي وخليفتي فيكم ، فاسمعوا له واطيعوا ، فقام القوم يضحكون ويقولون لابي طالب : قد امرك ان تسمع لابنك وتطيع) المراجعات رقم ٢٠ صفحه ١٢٤ . الى مؤاخاته الأولى فى مكة ومؤاخاته الثانية (وكانت فى المدينة بعد الهجرة بخمسة اشهر حيث آخى بين المهاجرين والأنصار ، ويصطفي لنفسه منهم علياً ، فيتخذه من دونهم اخاً تفضيلا له على من سواه ويقول له انت مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لانبي بعدي المراجعات رقم ٢٤ ص ١٦٠ فيعقد رسول الله هذه المؤاخاة على ما بينهما من فارق فى السن كبير وكانت الآيات القرآنيه والاحاديث تترى وهي تنوه بفضائله وافضليته على سائر المسلمين لأنه امامهم وخليفة رسولهم الكريم وكان آخر ذلك اعلان الرسول امامته من بعده في يوم الغدير حيث .

كان النبي صلى الله عليه وآله يرجع من فريضة الحج الى المدينه المنورة ، عاصمة الدولة الاسلامية في ذلك الوقت ، فى حشد كبير من اصحابه ، تمتلىء بهم البيداء ، وتعج بهم الصحراء ... فكانت الجماهير المسلمة من صحب النبي صلى الله عليه وآله منبثة فى اطراف الصحراء ، مد البصر ، فى ركب صاحب الرسالة . وكان الطريق متعباً ، والحر هجيراً ، والشمس تلهبهم من فوق رؤسهم والغبار متطايراً ، ونداءات التكبير والتهليل ، شعار الاسلام وكلمة

التوحيد ، تشق عنان السماء . . . وكانت الجماهير الاسلامية الناشئة تموج في البيداء كما تموج الخضم ، وتسير من هنا وهناك بين يدي النبي وعن يمينه وشماله وخلفه .

كانت الدولة الاسلامية قد شقت طريقها الى الحياة وظهرت على الجاهلية الكافرة في الجزيرة العربية . . . فكان النصر حليف المسلمين وكانت العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

فيلتفت النبي صلى الله عليه وآله الى هذا الحشد العظيم والاجتماع الهائل من المسلمين فتأخذه نشوة النصر والظفر فتتحرك شفتاه الكريمتان بالتكبير والتهليل شعار الاسلام وكلمة التوحيد (١) .

ولكن الزعيم العظيم ، صاحب الرسالة الأنسانية الخالدة ، يتأمل في مصير هذه الأمة الكبيرة من بعده ، والأيادي الأثيمة التي تترقب وفاته بفارغ الأنتظار لتلعب بمصالح هذه الأمة الكبيرة ولتقلب المسلمين على اعقابهم الجاهلية ، ولتقضي على هذه الجهود التي بذلها في سبيل هذا الدين فيعظم الأمر في نظره ، وتشيع على قسمات وجهه الكريمة سمات الهم والاهتمام ، اذ لم يبلغ الرسالة بعد كاملة ، ولم يفرغ بعد عن الخطوة الأخيرة ، ولابد منها فينزل عليه الأمين جبرئيل بقوله تعالى : (يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) .

---

(١) من مقال نشر في مجلة النجف السنة الخامسة لهيئة تحريرها

فيستوقف النبي العظيم هذه الجموع المنتشرة فى ذلك الحر الهجير وفى اثناء السير ، والغبار متصاعد الى السماء وحر الشمس يلفح الوجوه ، ذلك فى موقع غدير خم . فيثار التساؤل بين المسلمين تظهر على وجوههم علامات الاستفهام فيرتقى النبي صلى الله عليه وآله اقتاب الابل والمسلمون ، كلهم آذان صاغية ، انه قد اوشك على الرحيل ، وانه قد اودع الأمر علياً عليه السلام من بعده . بعد حديث طويل فياخذ له البيعة من المسلمين . . . وينزل من اقتاب الأبل ليستمر فى السير . . . بعد ان اطمأنت نفسه الكريمة ، وبعد ان خطى الخطوة الأخيرة لتحقيق الدولة الأسلامية واستمرارها من بعده . . . فينزل عليه قوله تعالى .

اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا) فنحمد الله على اكمال الدين واتمام النعمة .

فيعلن الآية على المسلمين ويشكر الله المسلمون على كمال الدين وتمام النعمة ويمضون فى سيرهم نحو المدينة المنورة عاصمة الدولة الاسلامية الناشئة .

* * *

كان غرض النبي (ص) واضحاً من هذا العمل ، ولم تخف على احد مهمة النبي من هذه الخطوة الجريئة . . . في مثل ذلك الوقت .

كان النبي يعلم بأن الدولة الاسلامية لا تتحقق ولا تؤتي ثمارها ناضجة شهية الا اذا طبق الاسلام في المجال الاجتماعي بصورة شاملة وفى جميع جوانبه .

والاقتصار فى التطبيق على بعض جوانب الاسلام دون بعض يؤدي الى تلاشي المجتمع الاسلامى والدولة الأسلامية .

فالاسلام كل لا يتجزأ واطار موحد وتشريع لا يقبل التفكيك والتجزيء . ولا يصلح احد للقيام بهذه المهمة ، ادارة الدولة الاسلامية من بعده ما لم يستوعب الفكرة الاسلامية بكاملها وما لم يؤمن بالاسلام كفكرة موحدة ويخلص له ويتخلص عن رواسب الجاهلية ودوافع الشهوة ويتزود بالثقافة الاسلامية بجميع جوانبها وبمختلف شؤونها .

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله قد احتضن الامام امير المؤمنين علياً عليه السلام منذ نعومة اظفاره واشرف على رعايته وتربيته ، فكان التلميذ الأول لمدرسة الاسلام والنسخة الثانية لشخص الرسول ، صاحب الرسالة الجديدة .

فعهد الأمر اليه ليقوم بهذه المهمة من بعده ، وليحقق فكرة الدولة الاسلامية الشاملة من بعده على مجال اوسع ، يتجاوز حدود الأقاليم واللغات والقوميات ، ولئلا تتقطع الدولة الاسلامية الناشئة وتتمزق اشلائها بين ناس تمكنت منهم رواسب الجاهلية

وتغلبت عليهم دوافع الشهوة شهوة البطن وشهوة الحكم (١)

التعاون والتشاور :

وقد ظهر فى المجتمع الاسلامي طابع التعاون والتشاور فى اتخاذ الحلول النهائية والطرق الخاصة أزاء بعض الوضعيات والمشاكل التي تعرض عليه وذلك ضمن اطار التشريع الاسلامي واهدافه واساليبه في الحياة فلقد حدثنا التاريخ عن تشاور النبي (ص) مع اصحابه فى جملة من المسائل المهمة للقيام ببعض التدابير الوقائية اوالدفاعية أزاء العدو المهاجم (ومن ذلك ما صنعه ببدر – والمعنا اليه آنفاً – حين اشار عليه الحباب بن المنذر بالانتقال الى مكان غير الذي نزلوا فيه أول الأمر . ثم بتعوير الآبار وبناء حوض للشرب لا يصل اليه الاعداء . وقيل فى روايات كثيرة أنه عمل بمشورة سلمان الفارسي فى حفر الخندق عند المنفذ الذى خيف أن يهجم منه المشركون على المدينة . فحفر الخندق وعمل النبي بيديه في حفره) . (٢) وكان ذلك تطابقاً مع قوله تعالى « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك

(١) راجع الغدير للشيخ عبد الحسين الاميني ، والمراجعات للامام شرف الدين تقديم آية الله الشيخ مرتضى آل ياسين .

(٢) عبقرية محمد (ص) للعقاد ص ٦٦

فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله . . . » (١)

قال الورثاني (وهو من فقهاء السنة) للشيخ المفيد : « أليس من مذهبك ان رسول الله (ص) كان معصوما من الخطأ مبرءاً من الزلل . مأمونا عليه من السهو والغلط ، كاملا بنفسه غنياً عن رعيته ؟ .

قال المفيد : بلى ، كذلك كان رسول الله (ص)

قال الورثاني : فما تصنع بقوله تعالى « وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله . واذا أفقره الله الى اصحابه ، وأمره بالاستعانة بهم ، فكيف يصح لك ما ادعيت مع ظاهر القرآن ؟ !

قال المفيد : ان رسول الله (ص) لم يشاور اصحابه ، لفقره الى آرائهم ، ولا لحاجة دعته الى مشورتهم ، كما ظننت وتوهمت ، كيف والنبي اكمل الخلق باتفاق اهل الكلمة ، واحسنهم رأياً ، واوفرهم عقلا ، واكملهم تدبيراً وكانت الملائكة تتواتر عليه بالتوفيق من الله عز وجل ، بالانباء له عن المصالح ومن كانت هذه صفته لا يستشير من هو دونه ، لان الكامل لا يفتقر الى الناقص ولا العالم يحتاج الى الجاهل .

ثم قال الشيخ المفيد للورثاني : اما الآية التي استدللت بها

---

(١) آل عمران ١٥٩

وهي « وشاورهم في الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله » فهي حجة عليك لا لك لأن الله امره ان يفعل متى عزم هو ، لاحين يشيرون عليه ، فعلق وقوع الفعل بعزم النبي لا بمشورة الاصحاب ولو كان الأمر على ما زعمت وادعيت لقال له : فاذا أشاروا عليك فاعمل بمشورتهم ، واذا اجتمعوا على أمر فامضه . .

وان قال قائل : إذن ما الغاية من المشورة ؟ قلنا في جوابه إن الغاية منها ان يتألف النبي اصحابه ، ويعلمهم كيف يصنعون ويتعاونون فيما بينهم فالاستشارة كانت لذلك لا لحاجته إلى آرائهم)(١)

فمن الجدير بالمسلمين ان يتعاونوا ويتشاوروا في الأمور العامة التي تهم المجتمع المسلم والدعوة الاسلامية وذلك للوصول الى الحلول التي تعود بالنفع والحصول على الاهداف المطلوبة . وعلى المسلم ان يجعل هذا الاسلوب وهذا الطريق جزءاً لا يتجزء من كيانه . إن ترك التشاور والتعاون الآخوي في تبيان معالم الطريق ليساوق التفريط باهداف مهمة تعود عليه وعلى المسلمين بالخير العميم واذا ساغ له ان يفرط في اهدافه ، فليس من السائغ بحال ان يفرط باهداف الجماعة التي يسعى لصالحها او باهداف الرسالة التي يعيش من اجلها ، ولأجل عظمة هـذا الأمر الحيوي المهم امتدح الله

(١) « شرح رسالة الحقوق» للقبانجي نقلا عن (مع علماء النجف) لمحمد جواد مغنية .

المؤمنين به وجعله صفة لازمة لعقيدتهم وايمانهم « والذين استجابوا لربهم واقاموا الصلاة وامرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون » (١)

وما كان لمؤمن ولا مؤمنة :

واباح الاسلام هذه الشورى والعمل الجماعي المثمر ضمن إطار التشريع الاسلامي وفى حدود ما يقضي به الله ورسوله سواء كان ذلك في الاحكام العامة ام في الجانب التطبيقي لها وسواء كان ذلك فى الوقائع العامة او الخاصة وذلك التزاماً بقوله تعالى « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امراً ان يكون لهم الخيرة من امرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً »(٢)

فالاهداف العامة التي اعلنها الاسلام والاحكام التي شرعها والقضايا العامة او الخاصة التي يرد فيها قضاء من الله عز وجل او رسوله الامين لا يحق لأي مؤمن ولا مؤمنه الخيرة فيها ولا يسوغ لهم التشاور على حسابها ليؤدي ذلك الى اهمالها وتركها او تعطيل جانب منها (واعلموا ان فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الامر لعنتم . . [٣] وقد حدثنا التاريخ عن موارد كثيرة بين النبي (ص) رايه فيها على نحو الجزم والتعيين لا مجال فيها لتشاور او اختيار (ومن ذلك انه عليه السلام بعث عبد الله بن جحش ومعه كتاب امره الا ينظر فيه حتى يسير يومين ، وفحواه (ان

(١) الشورى ٣٨ (٢) الاحزاب ٣٦ (٣) الحجرات ٧

سر حتى تاتي بطن نخلة على اسم الله وبركاته ، ولا تكرهن احداً من اصحابك على المسير معك ، وامض فيمن تبعك حتى تأتي بطن نخلة فترصد بها عير قريش وتعلم لنا من اخبارهم » (١) .

ومن ذلك امره (ص) في واقعة احد والذي لم ينفذ في اخر الأمر وكان سبباً لتضرر المسلمين في تلك الواقعة . حيث انه صلى الله عليه وآله وسلم قد وضع خمسين من الرماة على شعب في الجبل وقال لهم : « إحموا لنا ظهورنا فانا نخاف ان يجيئونا من ورائنا . والزموا مكانكم لا تبرحوا منه ، وان رايتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم . وإن رايتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا ، وإنما عليكم ان ترشقوا خيلهم بالنبل ، فان الخيل لا تقدم على النبل » (٢) وكان الرماة بازاء خالد بن الوليد حينما كان على راس خيل المشركين آنذاك .

وصنعه [ص] مع اهل مكة بعد الفتح (يوم فضل بالغنائم اناساً من اهل مكة الضعيف ايمانهم على اناس من الانصار الذين صدقوا الاسلام وثبتوا على الجهاد ، فلما غضب المفضولون ... قال لهم (ص) « اوجدتم يامعشر الانصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم الى اسلامكم ؟ الا ترضون يامعشر الانصار ان يذهب

(١) عبقرية محمد . للعقاد ص ٧٢

(٢) حياة محمد لهيكل ص ٢٩٣

الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم ؟ . . » (١)

صور ناطقة من المجتمع المسلم :

ولقد تجسدت العقيدة في ضمير كثير من ابنائه المخلصين واقعاً بسيطاً لها في تجسدها ، وحياة مشعة بانوارها وضيائها فلا يحتاج المسلم حينما يلبي نداء الواجب ، او يستجيب لمتطلبات رسالته إلى كثير من الاناشيد الحماسية او الانغام الموسيقية الصاخبة بل كانت آية من القرآن ترتل عليه ليسرع إلى ساحة الجهاد ، او خطاباً من النبي (ص) ليحظى بالنعمة التي صار لها اهلا . بل لقد حدثنا التاريخ عن المعجزات التي صنعتها العقيدة الاسلامية حينما تستوعب كيان الانسان وحينما يشع بها ضميره وقلبه فترى كثيراً من المسلمين يسارعون الى اللحاق بالركب الأسلامي الزاحف مع انهم لم يكلفوا بهذا الواجب ولم يلزموا به .

قال الواقدي : وممن شهد احداً واستشهد - عمرو بن الجموع - وكان رجلا اعرج وكان له بنون اربعة يشهدون مع النبي (ص) المشاهد امثال الاسود ، فاراد قومه ان يحبسوه وقالوا له انت رجل اعرج ولا حرج عليك وقد ذهب بنوك مع النبي فقال : بخ بخ ايذهبون إلى الجنة واجلس عندكم . فقالت امرأته هند بنت عمرو

(١) عبقرية محمد ص ١٢٨

بن حزام : كاني انظر اليه مولياً قد اخذ درقته وهو يقول اللهم لا تردني إلى اهلي فخرج ولحقه بعض قومه يكلمونه فى القعود فابى . وجاء رسول الله (ص) فقال : يارسول الله إن قومى يريدون ان يحبسوني عن هذا الوجه والخروج معك فقال له النبي اما انت فقد عذرك الله ولا جهاد عليك فابى وقال : إني ارجو ان اطأ بعرجتي هذه في الجنة فقال النبي (ص) لقومه وبنيه لا عليكم ان تمنعوه لعل الله يرزقه الشهادة فخلوا عنه فقتل يومئذشهيدا

وحدثنا التاريخ ايضاً ان النبي (ص) رد جماعة من المسلمين عن الجهاد لصغر سنهم منهم اسامة بن زيد ، وابو سعيد الخدري وزيد بن ثابت ، ورافع بن خديج ثم اجاز - رافع بن خديج - لما قيل انه رام . وذكر المؤرخون ان هذا الفتى اخذ يتطاول يتطاول على اطراف اصابعه ! فسر الرسول وعلم انه رام فسمح له بالخروج .

ووصلت العقيدة حداً من التبلور والصفاء أن الموت الذي يعتبراً حدثاً رهيباً بالنسبة للكافرين والظالمين قد صار بشارة وافراحا للانسان المسلم حينما تحل بساحته المنية .

ادرك الموت بلالا فاحاط به اهله يصيحون واكرباه وهو يجيبهم واطرباه (غداً ألقى الاحبة محمداً وصحبه . . !)

ولقد أثرت العقيدة أثراً فعالا فى كل الميادين سواء في الميدان

الجهادي او الاجتماعي او الاقتصادي او غيرها من الميادين وكان المسلم في جميع ذلك صورة ناطقة عن العقيدة الصادقه ومظهر حياً للتشريع الاسلامى في احكامه واهدافه وفي عدالته واحسانه .

لقد علم الاسلام أن المجتمع لايمكن له ان يسير في طريق التطور والتقدم اشواطاً بعيدة اذا اقتصر على الكفاية والعدل وتخلى عن الاحسان ليقتصر على الواجب والضرورة . « إن الله يأمر بالعدل والاحسان . . . » وقد اتبع في ذلك أصدق الوسائل واسلمها للوصول الى هذا الهدف الكبير فى ميدان الفرد والمجتمع والحياة

ولقد اعلن القرآن الكريم هذا الأنتصار الذي حققته الجهود الاسلامية المخلصه فى ظلال الشريعة الاسلامية الغراء وفي إطار منهجها في التطوير والتطبيق « كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر . . . » لقد أعلن القرآن هذا الانتصار العظيم ليكون حقيقة خالدة تدمغ كل من يحاول التشكيك بنتائج الجهود الاسلامية المخلصه التي يقوم بها العاملون في سبيل انسانية الانسان واسترجاع عزته وسعادته السليبة .

وليكون هـذا الاعلان مشعلا وهاجاً يضيء الدرب امامهم ويكتسح العراقيل التي في طريقهم .

قلوب تبتهل وشفاه ترتل :

ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عـذاب النار . البقره ٢٠١

ربنا لاتزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك انت الوهاب ٨ آل عمران .

ربنا هب لنا من ازواجنا وذرياتنا قرة اعين ٧٤ الفرقان .

ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا او اخطأنا ربنا ولاتحمل علينـا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولاتحملنا مالا طاقة لنـا بـه واعف عنا واغفر لنا وارحمنا انت مولانا فانصرنا على القوم الـكافرين البقره ٢٨٦

وقل رب ادخلني مدخل صدق واخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً ٨٠ الاسراء .

وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ٢٤ الاسراء .

رب لاتذر على الأرض من الـكافرين دياراً ، إنك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجراً كفاراً ، رب إغفرلي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات نوح ٢٦ | ٢٧ | ٢٨

ربنا أغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولاتجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ١٠ الحشر .

من اسباب نجاح التشريع الاسلامي
في العمل والتطبيق

المعالجة الجذرية الشاملة :

وقدعبى الاسلام كل الطاقات الانسانية الخيرة من اجل تحقيق الخير اللانسان وقطع الطريق على كل خطر يهدد بقاءه واستمراره ان الاسلام لا يؤمن فى معالجة المشاكل (بانصاف الحلول) ولا يؤمن بمعالجتها علاجاً ظاهرياً سطحياً ليترك جذورها واسبابها ومناشئها .

بل انه يؤمن اشد الايمان بضرورة المعالجة الجذرية الشاملة لكل المشاكل والعوامل المساعدة عليها يقول الامام علي امير المؤمنين ع فى عهده الخالد لمالك الاشتر حين عهد اليه ولاية مصر : « ولا تدع تفقد لطيف امورهم اتكالاً على جسيمها فان لليسير من لطفك موضعاً ينتفعون به وللجسيم موقعاً لايستغنون عنه » ويقول [ع] فى مكان آخر من عهده « وكل قد استرعيت حقه فلا يشغلنك عنهم بطر فانك لا تعذر بتضييعك التافه لاحكامك الكثير المهم فلا تشخص همك عنهم ولا تصعر خدك لهم » .

فالاسلام يعلم حق العلم ان اهمال بعض المشاكل بدون حل لابد وأن يؤدي الى تضخم المشكلة وازديادها بشكل واضح فالتساهل امام بعض الجوانب من المشكلة العامة يؤدي في النهاية الى التساهل امام الجوانب المهمة ذاتها .

ان القاء الستار على بعض المشاكل التي تبقى بدون حل بحجة

انه امر عادي يقتضيه واقع الحلول وطبيعة البيئة امر لا يقره الاسلام باي حال ، فلا يرى مبرراً لأن يحمل الانسان بقايا بعض الامراض الاجتماعية ومضاعفاتها ولا يؤمن باستحالة تغلب الحلول على المشكلة من جميع ابعادها وهو يرى في هذا المنطق الذي يبرر البقاء بانه منطق مبتور وهو في حقيقته اعتراف ضمني بانحراف الحلول التي جاءوا بها عن الطريق الذي يجب ان تسير في نطاقه.

ولذلك فهو يؤمن بضرورة تجميع كافة القوى البناءه من اجل انجاز تجربته الضخمة واهدافه العظيمة التي ينشدها .

ولست ادعي ان مهمة الاسلام تقف عند هذا الحد وعند اتيانه بالتشريع الذي يلحظ كافة المشاكل الاجتماعية فيعالجها ويضع الحلول لها ، ولست ادعى ايضاً ان هدف الاسلام الكامل يتحقق عند ما يصل الى هذه المرحلة من سيره التشريعي ، فليس النظام الكامل وحده سبباً تاماً للقضاء على الجريمة بكل اشكالها وليس هو وحده سبباً كاملا لتهيئة السعادة بجميع الوانها .

ولكن العقيدة المتبلورة الواعية والنظام الانساني المتكامل في معالمه واهدافه وفي طرقه واساليبه هو الشرط الاساسي والجو الملائم الذي تتوفر فيه المناعة الكافية التي تمنع الجرائم والانحرافات ان تعصف بكيانه او تتغلب على طابعه الانساني العام .

كما ان هذا النظام بمحتواه العقيدي المشرق هو التربة الصالحة

التي ينمو فيها كل ما يساعد على ازدهار لرفاهية والسعادة ، ان كثيراً من المآسي التي ابتليت بها المجتمعات الحديثة كانت بسبب من انها لم تتبين معالم الطريق الصحيح فاصطدمت فى سيرها بالجماجم البشرية فحطمتها وبالمعاني الانسانية المهذبة فشوهت معالمها ومسخت حقيقتها .

لقد رات كثير من الجماعات التي اعتنقت فكر مختلفة انها تمر فى ممر ضيق يكلفها كثيراً من الجهود والتضحيات التي هي فى غنى عنها ولذلك راى الاسلام ان اول الطريق تبيان معالمه وان اول السعادة تهيئة الجو الملائم لنباتها وازدهارها ، وبعدها لم يدخر وسعاً في توفير الضمانات التي تحافظ عليها فى مرحلة التطبيق والبناء

فلقد هيأ العناصر الكفيلة بذلك ، من العقيدة الواعية والبيئة الصالحة والثقافة الاجتماعية المهذبة والضمير الحي الزاخر بالعاطفة الانسانية المتعاونة التي تصل الى المستوى الذي يريده النبي (ص) بقوله المروي عنه « من اصبح ولم يهتم بامور المسلمين فليس بمسلم »

ولم تكن مثل هذه الضمانات تعمل على سهولة تطبيق النظام الاسلامي ونجاح تجربته في الحياة العملية فحسب بل تجعل الاطار الاسلامى العام هو الوضع الصحيح الذي لا يمكن للمسلم ان يتخلى عنه او يعيش داخل اطار آخر لا يمت له بصلة .

ولم تكن هذه الظاهرة بالنسبة للنظام الاسلامي تختص بجانب

خاص او بميدان معين من ميادينه العملية والتطبيقية بل تجدها شاملة لكل ذلك فلقد وعى المشكلة بجميع مناشئها وابعادها ، فوضع للمجتمع تخطيطاً يجنبه المشكلة بكل صورها ومضاعفاتها ويزيل اعراضها التي تظهر نتيجة ضروف شاذة او انحراف عن التخطيط الاسلامى فى الحياة الاجتماعية العامة .

(منهجه في الجانب الاقتصادي)

فالمنهج الاسلامي فى الجانب الاقتصادي مثلا والمنابع التي اوجدها للملكية الفردية والمنابع التي تملكها الملكية العامة الراجعة الى المجتمع او الملكية العامة التى تسيطر عليها الدولة لترعى بها مصالح المجتمع والافراد الذي تدير شؤونهم او ترعى بها الاهداف الحيويه لشؤون الدعوة عامة لا تؤدي ابداً الى اقطاع مستعبد او (راسمالية) تستولى على ثروة البلاد ومقدراتها .

لأنه يؤمن في تخطيطه العام بالاهداف الاصيله واللازمة لتوازن المجتمع والمحافظة على انطلاقته السائرة .

فهو يؤمن بالملكة الفردية للانسان لأنها من شؤون انسانيته وبشريته ولانها مظهر لحريته المقدسة كانسان له كرامته وكيانه .

وهو يؤمن بالتوازن الاقتصادي الكفيل باستمرارية المجتمع متضامناً ومتعاوناً ، بعيداً عن التمزق والانقسام ، وهو يؤمن

ايضاً بالضمان الاجتماعي والتكافل الاجتماعي لأنهما السبيل الوحيد لتركيز الطمانينة النفسية وتقوية الروح المعنوية لكل فرد من افراد مجتمعه العام .

فالاسلام اذن قد وضع منهجه الاقتصادي العام على مثل هذه الركائز الصلبة ذات المحتوى الانساني العظيم . فالسبب الموجب للملكية الزراعية فى اولى مناشئه هو احياء الأرض وزراعتها ومن المعلوم ان القدرة التي يمتلكها الانسان صاحب هذا المجهود محدودة جداً ، ولذا فمن الممكن لكل انسان ان يستغل طاقاته المحدوده هذه لشخصه بالذات لا يمنعه عن ذلك اي حاجز او مانع حيث ان المسلمين كلهم متساوون فى هذا الحق الحيوي الهام فلا يسمح لبعضهم بهذا الحق ليمنع الآخر بل الكل في ذلك شرع سواء .

ومهما تمكن الانسان ان يتوسع فى حياته الزراعية فيستغل امكانياته في هذا المجال لانها فى مثل هذا المحيط تيسر فى نطاق محدود حيث ان الجميع متكافئون فى الفرص ومتساوون في الحقوق ، وبعد ذلك كله فتشريع الأرث في النظام الاسلامى من اهم العوامل لتوزيع الثروة الزراعية والأرض التى يمتلكها على افراد عديدين فترجع الأرض الى مساحتها السابقة في اغلب الظروف ومع ذلك فان الحصة الاجتماعية العامة (الزكاة) تؤخذ من ثمرتها اذا كانت من الغلات الاربع التى تشكل مورداً رئيسياً من الثروة الزراعية .

وقد يناقش البعض فلا يضع اهمية لفريضة (الزكاة) باعتبارها كلمة مألوفه لا يمكن بما تحمل من مضمون ان تعمل على التوازن الاجتماعي اقتصاديا او تقوم بدور فعال في رفع مستوى حالة الفقراء الاقتصادية ، ولكن المتتبع لمنابع هذه الحصة العامة التي شرعها الاسلام يدرك بوضوح ان كلمة الزكاة على بساطة كلمتها ذات محتوى اجتماعي مهم يعمل باستمرار على ازالة الفوارق الطبقية الظالمة وشق طريق عام تلتقي على صعيده جميع طبقات المجتمع وكافة افراده .

وذلك لأن الاسلام فرضها واوجبها في الموارد الرئيسية من الثروة الحيوانية والثروة الزراعية والثروة النقدية فقد ذكرت الكتب الفقهية ان الزكاة يجب اخراجها من الحنطة والشعير والتمر والزبيب والأنعام الثلاثة الابل والبقر والغنم والنقدين الذهب والفضة واوجبها بعضهم فى اموال التجارة ايضاً .

وقد ذكرت هذه الكتب الفقهية مرحلة اولى لوجوب الزكاة وهو ما يعبر عنه [بالنصاب الأول] لا يكاد يعفى عنها اي انسان يمتلك حصة من هذه الموارد المتقدمة .

ولم يقف الحق الجماعي من الثروة الزراعية عند هذا الحد بل اوجب اخراج الخمس من المنافع الفاضلة عن نفقته السنوية من الثروة الزراعية ليخرج هذا الخمس بكامله عن نطاق الملكية الفردية الى نطاق الاموال لتسخر في خدمة المجتمع الأسلامى على ما هو

مفصل في كتب الفقه الأسلامي وليس معنى هذا ان الأسلام يؤمن بتحديد ملكية الأراضي بقدر معين فان الاسلام لا يرتضي الضغط الشديد على حريات الأفراد والتحكم في قابلياتهم واماالهم ولذلك فهو لم يعمد الى التحديد [الكمي] في مثل هذه الأمور وآمن بتحديد [الكيفية] للملكية التي يسوغ امتلاكها للآنسان فعين المنابع التي تنبع منها هذه الملكية والطرق التي تسير فيها والمنتهى الذي تنتهي اليه باخراج الحق العام منها وابقاء الباقي حقاً فردياً وملكية شخصية لصاحبها وبذلك تمكن من ان يقضي على المشكلة في كل صورها بلا ان يؤدي الى خلل او ضغط على القابليات الاجتماعية الخلاقة .

واما بالنسبة الى المناشئ التي تنشأ منها الرأسمالية المستغلة في الجانب التجاري والصناعي والثروة النقدية فقد اغلق الابواب عليها اغلاقاً محكماً وتمكن ان يقضي على هذا الانحراف الاجتماعي في مراحله الاولى التي يمكن ان يظهر فيها .

وذلك بما هيء للدولة الأسلامية في فريضة واحدة دون غيرها من طاقة ضخمة في الملكية العامة تتمكن بواسطتها ان تمتلك خمس القوة المالية الشرائية والتجارية تقريبا والتي يمتلكها افراد الشعب بكاملها وهي طاقة ضخمة تفوق كل ما سواها لأن الثروة الاساسية في كل مجتمع انما هي الثروة التي يمتلكها افراد ذلك المجتمع والاسواق

التجارية المنتشرة فى ذلك المجتمع الكبير .

واذا ذهبنا الى القول باضافة ارباحها المغتصبة من قبل بعض المالكين الذين لم يؤدوا هذا الحق الشرعي المهم طيلة سنين عديدة فقد تصل هذه الطاقة المالية التي تحتوي عليها هذه الفريضة الاجتماعية الى ما يقرب من ثلث مجموع الثروة العامة بكاملها .

وان مالكا يصل الى هذا المستوى من القدرة والامكانية لقادر بكل سهولة ان يضرب الاحتكار والاستغلال والرأسمالية الظالمة في مهدها وفي بذرتها الاولى .

وبذلك يتمكن الاسلام ان يوزع الثروة الأقتصادية فى طرق وانهار وروافد يستقي منها ابناء المجتمع كافة .

صور من الحياة الاقتصادية في ظلال الاسلام

وليس معنى هذا ايضاً ان التشريع الاسلامي يريد ان يسير في منهجه هذا الى القضاء فى نهاية المطاف على الملكية الفردية والتكسب الحر الذي هو حق اصيل من حقوق الفرد ومطلب من متطلبات كيانه المستقل ، فالانسان حينما ينظر بامعان الى المجتمع الاسلامي الذي يخطو في اقتصادياته على ضوء التشريع الأسلامي وفى نطاق تخطيطه العام لابد ان يجد المالك [لمشروع كبير] لا يظلم العامل فيه ولا يمنع اداء الحق العام الذي يجب ان يقدمه

ولا بد ان تجد ايضا (الشركة التعاونية) التي يسهم فيها المالكون الصغار من ابناء الشعب فيقومونها بامكانياتهم بغية الحصول على ارباحها ومنافعها مع مراعاتهم ايضاً لحق مجتمعهم العام والدولة التي ترعى شؤونهم ، فيقدمونه حقاً كاملا غير منقوص وهناك [الشركة التعاونية] التي يسهم فيها الجانب الخاص من افراد المجتمع مع الجانب العام الذي يمتلكه جميع افراد المجتمع او الدولة التي ترعى مصالحه وحقوقه وكيانه العقيدي مع الاستمرار فى الحق العام الواجب فيها ، كل هذه الانواع تسير جنباً الى جنب مع الجانب العام في استقلاله وشخصيته الاجتماعية التي لا يشترك فيها فرد مخصوص باموالة وقابلياته الاقتصادية ، وسوف يكون هذا الجانب اقوى الاجهزة الاجتماعية التي نراها فى المجتمع الأسلامي لما يملك من امكانيات وفيره تنمو باستمرار بحسب ارباحها وما يدخلها من موارد حديدة تجر من الثروة التي يملكها افراد المجتمع فيكون هذا الجانب العام حارساً آميناً على توازن القوى الاجتماعية التي تعمل فى الميدان الاقتصادي وليكون مضخة هائلة لها القدرة الكافية على ايصال الثروات الاجتماعية الى كل فرد من ابناء المجتمع الاسلامي الكبير .

فالملكية الجماعية اذن وحق المجتمع العام حق مقدس في نظر الاسلام لا يمكن التنازل عنه في كل الظروف والاحوال ولا

يسمح لأي فرد ان يعمل على عرقلة انطلاقة المجتمع وزرع الالغام امام روحه التعاونية المتماسكة .

(والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون

روي في الكافي عن سماعة بن مهران عن ابي عبد الله ع قال (إن الله عزوجل فرض في اموال الاغنياء فريضة لايحمدون الاباداءها وهي الزكاة بها حقنوا دماءهم وبها سموا مسلمين) فتماسك المجتمع وقوته تتركز على التعاون فيما بين افراده والحب العميق الذي يكنه افراد المجتمع بعضهم للبعض الآخر ولا تتحقق هذه الظاهره الاساسيه وتنتشر بين صفوف المجتمع كافه الاباداء كل فرد حق مجتمعه المدين به .

اما المجتمع الذي لايؤدي ما فرض عليه من الحقوق فلابد وان يبتلي بالانقسامات الشديده وتسعى كل طبقه منه الى الانقضاض على الاخرى لاستعبادها وهدر دماءها وازالتها من الوجود وبذلك يتحول كفاح المجتمع وطاقاته النضاليه البناءه الى كفاح داخلي سلبي يقضي على كيانه العام وتماسكه المتين .

فاداء هذا الحق العام اذن لم يكن نفعه ليعود الى خصوص الطبقات التي يعطى لها بل هو شامل النفع لكل من آخذ الحق او

صاحبه الذي اعطاه .

كما ان الاسلام فى نفس الوقت آمن بالملكيه الفرديه كحق مقدس لايمكن انكاره اوالكفران به فالناس يملكون اموالهم المشروعه ويتمتعون بثمرة اتعابهم ويتصرفون بها بارادتهم الحره المستقله (فلايحل مال امرىء الا بطيب نفسه) وبهذه النظره المستوعبة المحيطه التي اطلقها الاسلام على حاجات الفرد والمجتمع وعلى وسائله التي يمتلكها يتمكن باستمرار ان يقود عجلة الاقتصاد والثروات الماليه والزراعيه والحيوانيه والصناعيه ليسير بها في طريقها السليم الواضح .

ان من المؤسف حقاً ان يتعرض الفرد في محيطنا وهو اللبنة الاساسيه في بناء المجتمع العام لاتجاهات مختلفة ويواجه تيارات واحاسيس متضاربه توزع جهوده الفكريه والبدنيه وتمزق شخصيته المتماسكه ، ففي الوقت الذي تنطلق ارادته من عقالها ليؤكد على ذاته وارادته الحره التي هي محور وجوده المستقل وكيانه المتميز ، يرى فى القوانين السائده في مجتمعه صخره ناتئه تحطم هذه الاراده وتدمرها وتعتقل هذه الرغبات والامال ، فالفرد فى فلسفتها يجب عليه ان يلغي وجوده والارادة الحرة لامفهوم لها فى رايها ومحيطها وبذلك يتعرض افراد المجتمع الى احد عاملين خطرين اما الى الكبت وتوزع الشخصيه وانشطارها واما ان يؤدي الى تنفيس هذه الرغبات المكبوته والسعي الى تأكيد هذه الشخصيه المعتقله تأكيداً

مفرطاً في مجالات اخرى باسلوب اجتماعي مقنع يخفي وراءه الاطماع الفرديه المجنونه لتعود على المجتمع في نهاية المطاف الى الاستبداد بمقدراته واستعباد افراده وخنق حرياتهم المقدسه .

اصالة المذهب الاقتصادي في الاسلام

ولذلك اعرض الاسلام عن هذا المنزلق الخطير واغلق ممراته اغلاقاً محكماً فامن بكل قابلية وبكل طاقة لأنه آمن بوجود المجتمع وآمن بوجود الفرد عنصر المجتمع الفعال فهيء لارادة الفرد طريقاً واسعاً لاتصطدم فيه بارادة المجموع وقابلياته وعين لكل منهما طريقه المشروع ولذلك آمن الاسلام (بالملكية الفرديه) المحيط الصالح لنمو قابليات الفرد وازدهاره الخلاق لتعود عليه وعلى مجتمعه بالخير العميم وبذلك يلتقي مع الاقتصاد الحر في بعض الجوانب ، وآمن (بالاقتصاد المنهج) الذي هو حق المجموع في الملكية الاجتماعيه العامه وملكية الدولة لتصرف في الصالح العام ولتقويم كيان الدولة الاسلاميه في الداخل والخارج وبذلك يلتقي مع الاقتصاد الاشتراكي في هذا الطريق وآمن ايضا (بالاقتصاد الموجه) ومراقبة الدوله للاسواق التجاريه والاشراف على وسائل تشغيل الثروة واستغلالها ليضرب على ايدي المستغلين والمحتكرين والمتلاعبين بالاسواق يقول الامام علي امير المؤمنين (ع) في عهده لمالك الاشتر بعد ان مدح التجار

وثمن الجهود التي يبذلونها لتشغيل الحركه التجاريه وتقديم الخدمات المهمه لابناء مجتمعهم (واعلم - مع ذلك - ان في كثير منهم ضيقاً فاحشاً وشحاً قبيحاً واحتكاراً للمنافع وتحكماً فى البياعات وذلك باب مضرة للعامه وعيب على الولاة فامنع من الاحتكار فان رسول الله صلى الله عليه وآله منع منه) ويقول عليه السلام بعد ذلك (وليكن البيع سمحاً بموازين عدل واسعار لاتجحف بالفريقين من البائع والمبتاع فمن قارف حكرة بعد نهيك اياه فنكل به وعاقبه في غير اسراف).

ولاجل هذا فلا يمكن اذن تفسير الاقتصاد الاسلامي باي مذهب من هذه المذاهب المتقدمه وان التقى مع كل واحد منها فى بعض نقاطها.

بل إنه يؤمن بالملكيه الفرديه وبالملكية العامه وبتوجيه الاقتصاد العام ومراقبة الدولة للمرافق الحيويه الهامه، والاطار العام الذي تنتظم فيه هذه النقاط وهذه الركائز هي اطار (الاقتصاد الاسلامي)

فللاقتصاد الاسلامي اذن طابع عام وكيان متميز في الماضي والحاضر والمستقبل، ومهما بقيت المذاهب الاقتصاديه تتأرجح بين تيارات مختلفه واتجاهات متباينه وتتعرض الى مد وجزر في كثير من الظروف فسيبقى الاقتصاد الاسلامي ابداً محتفظاً بمعالمه الرئيسيه وطابعه الخاص. لأنه يؤمن بضرورة الاحتفاظ بهذه المعالم الحيويه

التي لايمكن ان يستغني عنها المجتمع فى وقت من الاوقات فهويرى فى التملك الفردي استجابة لنداء الغريزة والفطره التي تحث صاحبها باستمرار على الاستجابة لنداءها ولذلك احتاجت الى ضوابط وقيود تعين لها طريقها التي تيسر فيه كي لاتنقض على معالم المجتمع العام او تثير الغبار والعواصف على اجواءه العامه .

وآمن بالملكية العامه التي هي حق من حقوق المجتمع العام حيث يعلم ان المجتمع لايمكن ان يسير بدون هذا الحق فى طريق الثوره البناءه وفى طريق التعاون الوثيق .

وهو يرى فى الاشراف على الاسواق والمرافق الحيويه الهامه عملية لازمه لحفظ الشريان الحيوي من الهبوط والانخفاض ومن التأزم والضغط المرتفع .

ولم يكتف الاسلام بكل هذه الاحتياطات التي توفر للجماهير المسلمه وسائل الرفاهية والسعادة وتفتح باب الأمل على مصراعيه ، فلقد راي من خلال الاحصاء الدقيق ومن ثنايا النظرة الفاحصه لكل افراد مجتمعه الذين يستظلون بلواءه ان هناك من لايقدر وحده على الاستقاء من نهر الملكية العامه حتى مع تلاطم امواجه ووفرة مياهه وذلك لمرض البدني او العجز الذي يمنعه من اخذ نصيبه الذي فرضه الله له او لضعف نفسي يعقد به عن مواجهة المسؤولين والمشرفين على هذا الحق العام لاعلامهم بحقيقه حاله ،

فامر الاسلام بتهيئة الايدي والسواعد القويه بايمانها لتنقذهم مماهم فيه وليهيؤا له مكانهم في ركب مجتمعهم السائر يقوم الامام عليه السلام (وتفقد امور من لايصل اليك منهم ممن تقتحمه العيون وتحقره الرجال ففرغ لاولئك ثقتك من اهل الخشية والتواضع فليرفع اليك امورهم ثم اعمل فيهم بالاعذار الى الله يوم تلقاه فان هؤلاء من بين الرعيه احوج الى الانصاف من غيرهم وكل فاعذر الى الله فى تأدية حقه إليه) ويقول عليه السلام (وتعهد اهل اليتم وذوي الرقه في السن ممن لاحيلة له ولاينصب للمسألة نفسه وذلك على الولاة ثقيل — والحق كله ثقيل — وقد يخففه الله على اقوام طلبوا العاقبه فصبروا انفسهم ووثقوا بصدق موعود لهم) .

ولم تكن هذه الفقرات الزاهره امنيات مجرده خلجت بها نفس عظيم او عواطف زخر بها قلبه وفواده بل انها تعليمات في وثيقه وقعها الامام عليه السلام لتكون المنهج العملي الذي يسير الولاة على هديه وضوئه .

الجانب الفقهي للاقتصاد الاسلامي

ولقد اكدت كتب الفقه الاسلامي الحق العام والملكية العامه تأكيداً لاغموض فيه فذكرت بوضوح منابعه وخطوطه وانهاره التي تصب فيه وتلتقي عنده فذكرت الموارد التي يؤخذ منها الخمس

اهم دعامة فى الملكيه الاجتماعيه وملكية الدوله قال المفيد رحمه الله فى المقنعه { الغنائم كلما استفيد بالحرب من الاموال وما استفيد من المعادن والغوص والكنوز والعنبر وكل مافضل من ارباح التجارات والزراعات والصناعات من المؤنة والكفايه . . . } .

ونحوه قال الشهيد في البيان والطبرسي في مجمع البيان {١} فهذه الموارد الحيويه كلها مورداً خصباً للحصة العامه ركيزة القوه والحريه والتعاون ، وقد اوجب بعض الفقهاء هذا الحق العام في موارد لايخلو منها اي انسان قال الشهيد ان في الجزء الاول من الروضه { واوجبه ابو الصلاح في الميراث والصدقه والهبه محتجاً بانه نوع اكتساب وفائده فيدخل تحت العموم . . . . { والاول } اي وجوبها حسن لظهور كونها غنيمه بالمعنى الاعم فتلحق بالمكاسب)

وقد تعرضت ايضا لمناشىء الزكاة فبينت بالتفصيل القدر الذي تجب فيه هذه الفريضة الاسلاميه الهامه من الثروة الحيوانيه والزراعيه والنقديه كما ذكر [بعض الفقهاء] وجوبها في الثروة التجاريه المنتشره فى محيط المجتمع الكبير فبينت مقدارها وشروطها بالتفصيل ولو تأملنا فى هذه المنابع الغزيره لهذا الحق العام لادركنا نظرة الاسلام واهدافه الاجتماعيه البعيده ، حيث يضع كافة الضوابط الاجتماعيه التي تمنع تمرد الثروة الاقتصاديه واستعمال قوتها ونفوذها

{١} آيات الاحكام للجزائري .

للاضرار بقوى المجتمع العامله وبمصالح الجماهير الحيويه الهامه .

كما تعرضت هذه الكتب للمجالات التي تصرف فيها مثل هذه الثروة الضخمه والامكانيات الوفيره يقول الشهيد ان عليها الرحمه] في الروضة « وفي سبيل الله وهو القرب كلها » على اصح القولين لأن سبيل الله لغة الطريق إليه والمراد هنا الطريق الى رضوانه وثوابه لاستحالة التحيز عليه فيدخل فيه ماكان وصلة الى ذلك كعمارة المساجد ومعونة المحتاجين واصلاح ذات البين واقامة نظام العلم والدين وينبغي تقييده بما لا يكون فيه معونة لغني لايدخل في الاصناف كما تعرضت كتب الاخبار ايضاً لخصائص الزكاة التي تثبت اهميتها القصوى وانها من الدعائم التي بني عليها الاسلام وان التهاون بها انما هو تهاون في شعائر الله وباهدافه ويكون ذلك التهاون اعانة كبيرة على تسرب المبادىء الكافره الى ساحة المجتمع المسلم وايجاد الثغرات الواسعه في كيانه وقوته التي يمتلكها يقول الجزائري رحمه الله في آيات الاحكام (١) (فائدة نذكر فيها مايدل على فضيلة الزكاة وهي امور متعدده (منها) قوله تعالى واوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حياً فان التنصص بالوصية عليها يدل على ألافضليه كما ورد في بعض الاخبار (ومنها) قوله تعالى قد افلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ، حيث قدم الزكاة ، فانه يدل على شدة

(١) الجزء الاول كتاب الزكاة

الاهتمام الدال على الافضليه ، لكن الوارد في بعض الاخبار في تفسير هذه الآيه ان المراد صلاة العيد وزكاة الفطرة [ومنها] اقترانه بالصلاة فى الآيات التي هي افضل الاعمال [ومنها] الاخبار الداله على توقف قبول الصلاة التي هى افضل الاعمال على اخراجها] .

وقد ذكرت الكتب الفقهيه ايضا بعض الموارد الاخرى التي تستغل لصالح المجتمع والدولة الاسلاميه لاتختص باحددون آخر فمنها ماذكره الشهيدان في اللمعه [واما المعادن فالناس فيها شرع على الاصح لاصالة عدم الاختصاص وقبل هى من الانفال ايضاً (١)

فالمعادن اما ان تكون داخلة في الملكية الاجتماعيه التي تشرف عليها الدولة الاسلاميه اذا اقتضت المصلحة الملزمه التي تدعو الدولة الى تنظيم مثل هذه الموارد الحيويه التي تلعب دوراً اساسياً في

« تم القسم الاول ويوشر بطبع القسم الثاني بتوفيقه تعالى »

(١) الجزء الاول باب الخمس .

الإسلام
والتطور الاجتماعي

القسم الثاني

الطبعة الاولى

سنة ١٣٨٤ هـ — ١٩٦٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة المباركة على رسوله محمد وآله الميامين وصحبه الطيبين .

ربنا لاتزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك انت الوهاب .

دعاء أبوي تفضل به

سماحة آية الله علم الهدى الشيخ مرتضى آل ياسين دام ظله

بسم الله وله الحمد وصلى الله على محمد وآله

وبعد فهذا مجهود آخر لولدنا المهذب الفاضل الشيخ عبدالعالي المظفر حفظه الله يقدمه لقرائه شعوراً منه بما يتطلبه الوضع الديني الراهن من دراسات اسلامية تنير الطريق لأبناء هذا الجيل وتلقي اضواءها على ما يتبناه الدين الحنيف من فكرة وعقيدة ، وما رسمه للبشرية في مجالات هذه الحياة من مثل عليا وقيم خيرة ، وما تضمنه من حلول لما يعج به هذا المجتمع من مشاكل وانه لمجهود جدير بالتنويه والتقدير إذ جاء موفقاً في موضوعه كل التوفيق ولعل المكتبة الاسلامية لا تزال في حاجة الى المزيد من هذه الجهود المشكورة الدائرة حول هذا الموضوع لتملأ بها « على الاقل » طرفاً من هذا الفراغ الفكري المنبعث قبل كل شيء عن الجهل بما ينطوي عليه الاسلام من ثروة تشريعية تزخر بكل عناصر الحق والقوة والخير والجمال فاسأل الله تعالى ان يمد هذه الأقلام بعونه وان يجعل منها الأداة الصالحة للعمل في سبيل الاسلام والمسلمين ما وجدت الى ذلك سبيلا والله الموفق وهو المعين .

مرتضى آل ياسين

منهج البحث

نعود مرة اخرى فنذكر انفسنا والقاري. الكريم بالنقاط التي التزمنا بها في اسلوب العرض وطريقة الاداء :

اولا : تلاقى الواقع مع المفاهيم الاسلامية ونظراتها وتشريعاتها لنرى حصيلتنا الحاضرة التى نهدف اليها فى ضوء المفهوم والتشريع .

ثانياً : التيسير والتبسيط والطريقة المتناسقة فى عرض البحوث وادائها ، والاقتصار على قدر تفرضه علينا ايجابية عقيدتنا على طريق متناقضات خصومنا .

وقد تناول بحثنا في القسم الاول بعد التمهيد . دور العقيدة فى تطوير الانسان والحياة ، فالعقيدة فى مجالات الحياة المتنوعة ، وبعدها قدمنا دراسة موجزة عن بعض الجوانب المهمة من تاريخ الدعوة اقتضاها تدرج البحث ، ثم ذكرنا ضمن عنوان عام (من اسباب نجاح التشريع الاسلامى فى العمل والتطبيق) سببين منهما وهما : المعالجة الجذرية الشاملة ، ومنهجه في الجانب الاقتصادي المتميز فى بناءه العام بل وفي كل لبنة من لبناتها اسلوباً وهدفاً .

وفي هذا القسم : نبدأ بعون الله بالسبب الثالث واعني به

- المفهوم السليم - الذي يقدمه الاسلام في ميدان التطور . بعد التمهيد له بجواب ضروري عن سؤال قد يخطر ويلح على المؤلف والقاريء معاً في تقديم الاجابة العامة عنه وقد عبرنا عنه بعنوان (سؤال في الطريق) ، ثم بينا عرضاً عاماً للنقطة الجوهرية الفارقة بين المفهوم الاسلامي عن التطور وبين المذاهب الوضعية على اختلاف آراءها ومذاهبها ، ثم تكلمنا عنها بالتفصيل قبل ان نلج البحث عن الخطوط العامة للتطور في نظر الاسلام وذلك لتتبلور فكرتنا عن الاهداف التي يبتغيها الاسلام من هذا المجال ولنكشف المفاهيم الخاطئة عن هذه الكلمة - التطور - لخسبته الذبذبة العقيدية ، والقلق الفكري ، واستيراد المباديء المختلفة .

ولا يخفى على القاريء الكريم كما - ذكرنا في القسم الاول - ان هذه الدراسة ليست فتوى عملية ، ولا نتيجة اجتهادية مستخلصة من الادلة المعتبرة القائمة بالدلالة على مؤداها ، ولا تفسيراً بالنص وانما هي محاولة اولية تجمع ما بين التشريع وما بين الواقع بما فيه من مؤثرات وعلى ضوء آمالنا واهدافنا ، ولذلك فهي لا تستغني عن كثير من الدراسات المفهومية التي تتطلبها مثل هذه المواضيع .

ومن الله تعالى نستمد العون والتوفيق

والحمد لله اولا وآخراً

النجف الاشرف — المؤلف

سؤال في الطريق

سؤال قد يعترض ذهن الانسان في لحظات متعددة ! ؟ فقد يعترضه حينما تكثر عليه المسؤوليات التي تستوجبها الدعوة إلى الاسلام ، وقد يعترض حينما تدعوه المغريات التي نشرها المستعمر وساعدت عليها ظروف بعيدة عن واقع الاسلام واهدافه التي ينشدها للفرد وللمجتمع والحياة ، فتحاول هذه المغريات ان تشده الى هاويتها ودركها المنحط ، ويمر في ذهنه ايضاً حينما لا تتضح له رؤية اهداف عقيدته من جراء صخب الافكار المعادية وضجيجها ، وقد يمر في ذهنه ايضاً حينما يريد ان يفعم نفسه بالامل ، ويغمرها بالطمأنينة لكي يندفع بصورة اقوى واشد في طريق الاهداف الاسلامية ومثله العليا التي لا تستقيم للمسلمين بدونها الحياة لانها المضمون الحقيقي للانسانية في رحابها وابعادها . فهو يسأل نفسه ايضاً ليكون على علم من هدفه وفي رؤية واضحة في كل خطوة يخطوها او طريق يسلكه فيضاعف من جهوده ويكتسح الموانع التي في طريقه .

ما هي اهمية الدعوة إلى الاسلام وما هي الثمرات الايجابية

التي نحصل عليها ؟ ؟

هذا هو السؤال الذي يمر فى خاطر الانسان فى مثل هذه اللحظات وقبل ان نحاول الاجابة عليه وبيان بعض الحقائق التي قد تخفى لشدة وضوحها . علينا ان نفرق بينه وبين السؤال عن اهمية الدين نفسه ، فلقد انفردت دراسات اسلامية ، بالاجابة على هذا السؤال ، وتبيان اهمية الدين واثره الفعال في مجالات الحياة والانسان فرداً ومجتمعاً . (١)

والحق ان كل مؤلف اسلامي يستمد نظراته من القرآن الكريم ومن السنة المباركة ما هو إلا اجابة مفصلة او موجزة بطريقة مباشرة او غير مباشرة عن هذا السؤال .

وبيان اهمية الدين نفسه ، والاجابة التى تبين ابعاد هذه الاهمية وإن كانت هى القاعدة العريضة التي تسير عليها الاجابة على اهمية الدعوة وتنطلق منها . لانها حينما توضح الاهمية الضرورية للدين فى مثل هذه المجالات وبمثل هذه الاصالة والشمول ، فلابد ان تكشف فى نفس الوقت عن جانب كبير من الثمرات والاهداف الايجابية

---

(١) وقد اجاب – استاذ الجيل – الشيخ محمد امين زين الدين بصورة مباشرة عن هذا السؤال ، وبجواب مفصل من هدي الكتاب ، واهل البيت ، والعقل المستنير . وذلك فى كتابه القيم – الاسلام – ينابيعه مناهجه ، غاياته .

التي نحصل عليها فى دعوتنا وعملنا الاسلامى هذا .

ولكن مع ذلك كله يجب على من يحاول الاجابة عن اهمية الدعوة إلى الاسلام - ان يبحث عن المناشيء التى عملت على ظهور مثل هذا السؤال الذي يدور حول عقيدة يؤمن من صميم قلبه باحقيتها ، واحقية الشريعة التى تركزت عليها وتشابكت مع جذورها واغصانها .

واذا اردنا الاجابة عن مثل هذا السؤال . لا نريد ان نتعجل فنثبت ان العمل الى الدين والدعوة إلى الاسلام حكم شرعي قبل كل شيء (ولتكن منكم امة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون) (١) وقد اكدته الآيات المباركة فى مواطن عديدة ، ولا نريد ايضاً ان نستوعب ابعاد هذا الحكم فنبين مراتب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير والاسلام وشمولها لكل طاقاته الايجابية ليده ، ولسانه ، وقلبه . فلعل سرعة الاجابة على هذا السؤال قد تدعو صاحبه إلى التشبث به قليلا قبل ان يستقر جوابه في قلبه ويطمئن فى ضميره . ولا نريد ايضاً ان نكرر ما تعرضنا إليه - فى القسم الاول - مع عنوان العقيدة والوصول إلى الهدف حيث تبين لنا ان المسلم مع هدفه اينما سار ، لا فاصل يفصله منه

---

(١) آل عمران آية ١٠٤ .

ولا بعد ينأى به عنه .

ولكن نريد هنا ان نلفت الذهن الى حقائق ليست بالبعيدة عليه لتزيل الشبهة إن كانت ، او لتوضح له مجال الرؤية للهدف فى مضمونه وابعاده إن كان طالباً لمزيد من الثقة والاطمئنان اللذين يفتقر إليهما الداعية في دعوته وفي ايجابيته السائرة في طريق العمل الاسلامي المثمر . او لاجل اضعاف معنوية الخصم وسل عناده منه ان كان يحاول ان يكدس الموانع ويثير الغبار على طريق العاملين .

وعلى هذا فيجب ان تبين حقيقة العمل الى الاسلام وواقع الدعوة الى دينه ؟ حتى نتلمس اهميتها والثمرات المترتبة عليهما .

العمل للاسلام والدعوة لدينه هما العمل والدعوة الى سيادة تشريع شامل لمختلف مجالات الفرد والمجتمع والحياة متركز على عقيدة يؤمن المسلم باحقيتها وبانها التفسير الناطق الصحيح الذي يفسر حقيقة هذا الكون الكبير الذي يعيش الانسان بين حناياه واجواءه .

فاذا تأمل الانسان المسلم قليلا بعد وضوح هذه الحقيقة المشرقة عنده يرى ان هذا التشريع قد ضم بين حناياه احكاماً وارشادات تدعو إلى ثمرات ايجابية ، واحكاماً ونواهي تحذر من شرور وإضرار سلبية ثم يفتح عينيه على ما حواليه وعلى مجتمعه الكبير فيرى ان هذا المجتمع شانه — كاي مجتمع آخر — لا يستغني لحظة عن تشريع يخطط له طريقه ، ويفلسف له حياته ، ويبصره باهدافه ، ويحذره

من الاخطار والانحرافات التي تريد ان تضعف كيانه ، وتعرقل تقدمه ونموه ، او تدمر حياته ومستقبله فينهاه عن ارتكابها ويحذره من مزاولتها ، او الاقتراب منها . ويرى ايضاً اذا استمر لحظات اخرى من التفكير مبادىء وفكراً وضعية مختلفة تتصارع ما بينها حول هذه السيادة لتفوز بقيادة المجتمع ، وادارة شؤونه ، والتسلط على مقدراته ، فعندما يتدرج في هذه المراحل من التفكير وتتضح له هذه النتائج الواحدة تلو الاخرى . لابد ان تتحرك عقيدته داخل ضميره ، ولابد ان يطالبه التشريع بالعمل على وفق منهاجه والدعوة الى سيادته ، ولابد ان يتبلور عنده ان الدعوة إلى الاسلام والعمل على سيادة شريعته هو :

اولا : استجابة ضرورية وفطرية إلى متطلبات عقيدته ، ومستلزمات رسالته لتتحقق وتشمل مختلف المجالات ، وعلى جميع المستويات (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون) (١) وفي الحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله « كل مولود يولد على الفطرة وإنما يهودانه وينصرانه ويمجسانه ابواه » فعلى ضوء هذا الحديث المروي ندرك ان الانحراف عن طريق الفطرة هذا ودخول الشاب المسلم في التكتلات

(١) الروم آية ٣٠

الفكرية الوافدة انما هو ناشيء من سلوك اجتماعي متاخر ، واتصال شخصي مباشر واغراء بمختلف الوانه من دعاة تلك الفكر ومروجيها في ربوع وطننا الاسلامي الكبير ، وعلى هذا فالتزاماً بهذا المفهوم الذي اعطاه الحديث المروي هذا يتحتم علينا تهيئة الجو الصالح والبيئة النقية لاستمرار تلك الفطرة ونموها سليمة ومعافاة ومستقيمة .

ثانياً : واندفاعاً عن ايمانه باهدافها التفصيلية التي دعت الى تحقيقها ومعرفته بمدى حيويتها واهميتها يسعى إلى الدعوة الى تحقيقها على صعيد الحياة وتطبيقها في مجاله « ولتكن منكم امة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف . . . » (١)

ثالثاً : وسيراً على وفق تبصره بمدى المضاعفات والاضرار التي تنشأ من الانحرافات ، والشرور ، والمحرمات التي نهت عنها الشريعة الاسلامية وحذرت منها ومن الاضرار والعلل التي تستتبعها للفرد والمجتمع (٢) فيدعو إلى احكام دينه ونظام شريعته لينقذ مجتمعه من مصير مظلم لابد ان يؤول إليه اذا حمل معه تلك العلل الاجتماعية وطفيلياتها وجراثيمها كما شاهده في مسيرات اقوام كثيرين ومجتمعات

---

(١) آل عمران ١٠٤

(٢) المعروف من مذهب العدلية تبعية الأحكام الواقعية للمصالح والمفاسد في متعلقاتها . راجع حقائق الاصول لآية الله الحكيم والمحاضرات بقلم الفياض لآية الله الخوئي .

عديدة ، وكما اعترف بها ايضاً اناس قد اكتووا بجحيمها واصيبوا باضرارها يقول – اشبنجلر – صاحب كتاب « تدهور الغرب » :

« ان امام هذا الانسان المعاصر ان يختار احد امرين اما ان يسلم نفسه وذاته طوعاً لتتحجر في عالم مادي كان قد فقد كل زخمه الروحي والمعنوي منذ امد طويل وهـو فى طريق التصلب المتكامل التدريجي وعند ذلك يصبح الانسان كائناً يوجه ويصمم حسب العوامل المادية المسيطرة . او ان يقوم يبعث البقية الباقية من القوى الروحية والمثل السامية الخالدة الموجودة والكامنة في اعماق النفس وهى بأمس الحاجة إلى من يوقد الجذوة المنطفئة فيها

ثم يقول : وعند ذلك تنفجر ابداعات وطاقات جديدة تقود الانسانية نحو عالم المثل والغايات . وبهـذا الحل الانساني العظيم نستطيع انتشال الحضارة المعاصرة عن واقعها المادي المنخفض ورفعها إلى مستوى الحضارة الانسانية »(١)

خامساً : وانقاذاً لنفسه ومجتمعه من تناقض مستقطب وافتراس تام من المباديء المادية الحديثة التي تقف والاسلام على طرفي نقيض فلا تلاقى بينهما فى كل هدف وفي كل نظرة بل وفي كل حرف تشريعي . وقد ارشدنا القرآن الكريم الى هذه الحقيقة المروعة والنوايا التي تنطوي عليها قلوب الأعداء لنحترس منهـا ونبذل فى

(١) الاسلام ومعركة المصير الانساني لمحمد عبد الساعدي ص٨٨.

سبيل الوقاية منها كل جهودنا وامكانياتنا (. . . ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا . . .) (١) وهكذا المذاهب الاخرى على اختلافها (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . . .) (٢) وانا اعتقد جازماً ان الصراع الواقعي الحاسم الآن إنما هو بين الاسلام وما يدعو إليه من اهداف ، وبين النظرة المادية سواء كانت باسلوب فردي او طبقي او حزبي والتي تقع الرأسمالية في طريقها والماركسية فى قمتها ونهايتها المحزنة وما هذه الافكار الوضعية المختلفة فى المجتمعات الاسلامية والتي تختلف شدة وضعفاً من حيث الاسلوب والغاية إنما هي افكار تقع بين شد وجذب هذين المركزين المتصارعين (الاسلام والماركسية) فيما يحمل الاسلام من مضمون كامل ونابض بالانسانية ، وما تحمل الماركسية من مادية هي فى غاية التحجر والشدة ، وبقدر مالهما من قوة ايجابية وانصار فى داخل المجتمع ، وعلى مدى التموين لكل القوتين نرى حصيلة نظمنا وقوانيننا التي تشرع فى محيطنا وبلداننا .

ولم يكن هذا الاستنتاج لهذه الظاهرة الاجتماعية حصيلة اجتهاد شخصي ونظرة عاطفية وانما هى نتاج واقع محسوس يلمسه كل من يحاول ربط مظاهر الصراع الظاهر والخفي والتماس الدوافع التي تدعو إليها يقول - العالم السوربوني مؤلف كتاب (المدنية والاسلام):

---

(١) سورة البقرة آية ٢١٧ .

(٢) سورة البقرة آية ١٢٠ .

« إن العالم في هذه الآونة من تاريخه تتجاذبه قوتان ماديتان جبارتان ، قوة روسيا السوفيتية ومعها بلاد ما وراء الستار الحديدي وقوة امريكا ومعها جماعة حلف الاطلنطي والدول الرأسمالية الغربية وهاتان القوتان الماديتان في طريقهما إلى الفناء ، وستبقى فوق (أرض الله) قوة واحدة لا يعرفها اصحابها ، وهذا من حسن حظنا حتى الآن ، ولكن قد يأتي يوم يعرف اصحاب هذه القوة قوتهم فيدين لهم العالم باسره ، هذه القوة التي حاربناها بضعة قرون ولم نستطع ان نستأصلها هي (الاسلام) فالاسلام يضع الرجل (المثالي) الذي لا يقهر ولا يغلب وسر قوة هذا الرجل أنه (يؤمن) بان الله واحد لاشريك له ، وان الامر كله بيده ومن شأن هذا (الايمان) ان هذا الرجل إذا نوى القتال لايهاب الموت لانه يعتقد في قرارة نفسه ، انه يقاتل في سبيل الله وبامر من الله ، وفي حياته اليومية يقف في الصفوف مصلياً ، وما صلاة الجماعة عند المسلمين الا مظهر للتنظيم العسكري الصلب عند المسلمين(١)

واخيراً فان هناك مجتمعاً لا يزال يتلهف كثير من ابناءه إلى التبصر بشريعته التي يؤمن بها ، والاستزادة من معرفة اهداف اسلامه مصدر قوته وسعادته ، ولا تزال هناك قلوب ترغب مخلصة بالدعوة إليه والنظر الى شريعته وقد اشرقت شمسها على افاقنا ترسل دفيء اهدافها وتنشر نور شريعتها وما ذلك على الله بعزيز .

---

(١) راجع ص ١٤٤ من كتاب « قالوا في الاسلام » .

التطور في نظر الإسلام

بحث مقارن

التطور بين المذاهب الوضعية والاسلام

نظرة عامة

يجب علينا قبل ان نبدأ بعرض التفصيلات للمذاهب الوضعية المختلفه ، ومقارنتها بالواقع البشري والحقيقة الموضوعية ، واختبارها على ضوء الفكر السليم الذي يستمد بصيرته من روح الاسلام وقوته من قوة الاسلام واصالته ، وقبل ان نبدأ ايضاً بعرض بعض التفصيلات للمفهوم الاسلامي عن التطور ، ومحتواه المتكامل علينا ان نتعرض الى بيان نقطة جوهرية يفترق بها الاسلام عن سائر هذه المباديء الوضعية المختلفة ، وبها نتمكن ان نتبين القاعدة التى تنطلق منها عملية التطور في كل من هذه المذاهب والاسلام .

وبعبارة اخرى ان عملية التطور بما تحتوي عليه من مضمون لابد ان يكون لها مركز تتركز عليه ، وقاعدة تنطلق منها ودعامة تبتني عليها ، وهى التى تكون ملتقى خطوط التطور وتفريعاته ، والهدف الذي تتجمع عنده نظرات المذاهب ، واراؤه . وببيانها نتمكن ان نكون صورة عامة عن البناء الذي يقدمه كل من هذه النظريات والفارق الذي يفترق به عن البناء التطوري والمفهوم الذي

يقدمه الاسلام في هذا الميدان .

وهذه النقطة الجوهرية هى موقف الانسان في هذا البناء ، ودوره في عملية التطور الخلاقة ازاء القوى المتنوعة التى اودعها الله فى هذا الكون الرحيب ، فما هو موقفه منها وما هو دوره تجاهها ؟ ؟

هل هو مسير لها وقابض على زمام المبادرة نحوها ؟ او انها هى التى تسيره إلى اي وجهة شاءت واي جانب تريد ؟ .

وهل بعد ذلك ان يتحكم فى مستقبله ومصيره ، يزدهر مستقبله وحياته إن ازدهرت جهوده ؟ ويسير بخطى بطيئة ومتثاقلة إن هو اختار الكسل والتثاقل اسلوباً له في الحياة وطريقاً يسير عليه ؟ وهل يرجع مستقبله الى الوراء ويصاب بنكسة ارتدادية إن هو اختار طريق الشر والانحراف والتهور والاستبداد ؟ هل يكون هو صانع ذلك بما اودع فيه من قابليات وبما هيء له من صلاحية وتوفيق ، وبما فسح له فى الفرص والظروف ؟ ؟ او ليس لهشأن فى ذلك كله ، حيث لا يملك الدور القيادي الواضح ، ولا المكانة التوجيهية الرائدة ؟ وانما هو قزم ضئيل يسيره الزمن ولا يسير مضمون الزمن ، وتحوطه ماكنة القوى الانتاجية الهائلة ، او الظروف الحياتية والطبيعية المتنوعة ، فتلفه فى نطاقها ، ويدخل فى دورتها لا يتمكن ان يخرج عنها ، او يشذ عن المسيرة التي رسمت هي

طريقها وصممت على سلوك ذلك الطريق ؟ ! واذا قدر على شيء او استطاع من القيام بمحاولة ، فهى قدرة ضئيلة ومحاولة محدودة لا تتعدى امكانية السجين بين جدرانها ، ولا تتجاوز مبلغ يدي الموثوق والمرتهن في هذا النطاق الجبار ؟ حيث انه قد يساعدعلى زيادة التناقضات الحتمية ؟ ! او تخفيف حدتها شيئا ما ، ولـكنه لا يتمكن ان يوجه عجلة الحياة ، او يرسم خطوط مستقبله ويتبين معالم طريقه الذي يسير فيه ؟ ؟ !

ثم ما هو دوره في تاريخه العام والحلقات التى توالت ومضت من عمر الزمن وعمر الاجيال هل تمكن ان يقوم او يلعب الدور الواضح فى ذلك ، او انه نقطة ضئيلة ازاء التأثير المتدفق للقوى الانتاجية ، او المحيطية والحياتية بشكل عام ؟ !

هذه هى الاسئلة التى لابد لنا ان نلتمس الاجابة عليها من هذه المذاهب الوضعية المختلفة ، ومن الاسلام ايضاً ، لنعرف البداية التى تبتدأ منها ، والطريق الذي تسير فيه ، والغاية التى تتجه نحوها .

ونحن حينما نؤكد على معرفة الاجابة على هذه الاسئلة الرئيسية الثلاثة ، دوره فى حاضره ، وتأثيره في مستقبله ، ومكانته فى تاريخه ومدى ما نستحصله من اجوبة او ردود في موضوع هذه النقاط الجوهرية الثلاثة ، انما نهدف إليه من هذا التأكيد هو الكشف

عن نقطة رهيبة التزمتها المذاهب الرئيسية لهذه الفكر الوضعية المختلفة

ولا نغالي او نذهب مع شيء من العاطفة اذا قلنا انها حاولت قتل ايجابية الانسان ، واستهدفت ذبح مواهبه ودوره القيادي الذي وهبه الله اياه ولم تكتف هذه المذاهب بهذا العمل غير المشرف ازاء ملكات الانسان وامكانياته العظيمة ، وانما حاولت ايضا ان تجري هذه العملية في ظلال كثيف من المغريات وتحت وقع تخدير المنومات والمخدرات التي لا تترك للذبيحة البشرية فرصة الالتفات الى ما يقوم به الجزار ازاءها واتجاهها ، حيث اتفقت هذه المذاهب على اختلاف نظراتها ، وتنوع جملها واساليبها وتفصيلاتها على نقاط اساسية ازاء الانسان ودوره في الوضعيات التى تحوطه ، وازاء المستقبل الذي ينتظره ودوره فى الحلقات التاريخية من حياته ، حيث اجابت هذه الفكر عن الاسئلة المتقدمة بالاجوبة التالية :

إما عن دوره الفعلي ازاء حاضره ومستقبله فقد اجابت بالنفى وبسلب القدرة المؤثرة عنه اتجاه القوانين المادية العامه التى تدعي تحكمها الحديدي فى الحياة والمجتمع والفرد ! ؟ فهي القابضة على مقاليد اموره وهى التى تسيره إلى اي وجهة شاءت واي هدف تريد ، وليس هو الذي يفكر فى شؤون حياته ويتمثلها ويتأمل فيها ويختار الطريق الصالح منها او الطريق الذي يشاء كل هذا

ليس له بل لا ينبغي له ذلك ؟ !

إلا انها مع هذا لم تترك الانسانية في فقر مدقع من الامكانيات وفى إفلاس تام من اي عمل ايجابي فيقابلها الانسان بالتكذيب والنفي والرفض من اول وهلة ومن اول كلمة تقع على اذنيه بل وهبته واعطته دورا بسيطاً ازاء بعض جوانبها من شد المتناقضات واحكامها ، او تخفيفها وتقليلها داخل إطارها العام ! وفي نطاق قوانينها الحديدية العامة ، لا يتمرد عليها ولا يخرج عن دائرتها لانها هبة لا تملك التمرد وقابلية لا تقوى على التحكم لتقوم هى بتوجيه هذه المؤثرات الوجهة الصالحة او الوجهة الطالحة . بل إن عجلة القوى الانتاجية لكثرة ما تلفظ من متناقضات ، وما تقدم من حلقات متصلة تصنع حاضر الانسان ومستقبله لابد ان تتغلب على هذا الانسان الضئيل ، ولابدان تغطى على ما فعلته يداه وتستوعب الدرجة التي تتحول بها المرحلة الكمية الى مرحلة كيفية جديدة يراها الانسان بعينيه ، واذا حاول الانسان ان يؤخر سير التاريخ وعجلة الزمن ! ودور القوى الانتاجية برهة من الزمن باحلام يقظته وخياله البسيط فان عمله هذا فى نهايته سيكون اهون من بيت العنكبوت ازاء عجلة الزمن الجبارة .

فالماركسية تقول : « ان علاقات الانتاج تحدد جميع العلاقات الاخرى ، التي توحد بين الناس فى حياتهم الاجتماعية . واما علاقات

الانتاج فيحددها وضع القوى المنتجة (١) فالقوى المنتجة هي التي تخلق الوضع الاقتصادي ، على رأي هذه النظرية ، وتطوره يكون تبعاً لتطورها ، والوضع الاقتصادي هو الاساس العام لهيكل البناء الاجتماعي ، وما فيه من ظواهر واوضاع (٢) .

وهكذا تقول النظرية : التى تذهب الى ان الحضارة تدور فى حلقات دائرية كما تدور ازياء الملابس وتصاميمها فى حلقة دائرية لا تتعداها او تخالف محيط دائرتها وإذا دخلت عليها بعض التحسينات والتعديلات فانها امور تقتضيها طبيعة البيئة والزمن ولكنها لا تمس جوهرها بالصميم ويصطلح علماء الاجتماع على هذه النظرية « بنظرية المودة » كما سنعرض لها بالتفصيل في الفصول الآتية (٢) .

فالحضارة على رأي هذه النظرية لابد ان تمر في هذه الحلقة المفرغة التي لا يدرى اين طرفاها ، ولابد ان تتكرر هذه الدورات إذا امتد بالحياة عمر الزمن وطال بها الأمد ، ولابد للانسان ايضاً شاء ام ابى ، احب ام كره ان يدخل ايضا ضمن

---

(١) المفهوم المادي للتاريخ ص ٤٨ .

(٢) اقتصادنا . الكتاب الاول . ص ٦٨ .

(٣) مقتبسة من محاضرات الدكتور حاتم الكعبي في علم الاجتماع .

نطاق هذه الدائرة الحضارية وهذا الخط البياني الذي افترضوه انه يمثل سير الحضارة في كل ادوارها ومراحلها .

فكل عادات الانسان على هذا وافكاره ، ونظمه ، واخلاقه وتقاليده لابد ان تتفق في النقطة والدرجة التي وصلت إليها مع ما يوازي هذه المرحلة وما يقع « في درجتهامن خطالعرض » فى الدورة السابقة ولابد ان يتفق المرحلتان في الجوهر وان كان الفاصل الزمني بعيداً والذي اقتضاه مسير الحضارة في دورتهاالجديدة وإذا كان هناك بعض الفروق ما بين المرحلتين فانما هي فروق فى المظهر وفى التحسينات والوسائل التي اقتضاهاتقدم الوسائل وظروف الحياة الجديدة ، فلابد ان تمر الحضارة والانسان فى فردية مستبدة الى جماعية طاغية ومن روحية شفافة الى مادية متحجرة الى روحية جديدة وهكذا سائر الاسس الاخرى التي تؤلف بناء الحضارة ومعالمها ، وستبقى هذه الحضارة تدور فى هذه الحلقة المفرغة ماشاء لها الزمن من الدوران وما شاءت لها الايام من البقاء اما الانسان فلا يتمكن ان لا يمر بالمرحلة المهلكة وبالدورة المنحرفة ولا يتمكن ايضاً من الاحتفاظ بالحياة الصالحة وبالحضارة المعبرة عن اهدافه وامانيه .

وهكذا نظرية ـ الانتخاب الطبيعي ـ (١) التي ذهب إليها

(١) ملحوظة تعرضنا للنظرية الماركسية باعتبار ان تفسيرها

(سبنسر واتباعه) حيث انهم (لا يترددون لحظة في اخضاع الاخلاق ـ كاي شيء آخر ؟ ـ لقوانين التطور وانتخاب الطبيعة وبعبارة اخرى يريدون ان نلقي بزمام الانسان فى يد الطبيعة نفسها تختار له من الاخلاق ما تشاء ، فلابد على رايهم : ان تخضع مباديء الاخلاق للانتخاب الطبيعي وتنازع البقاء ، وليبق من اخلاقنا ما يقف امام التجربة القاسية ، وليفن منها ما تذروه هذه الريح العاصفة (١) .

فالاخلاق واي شي آخر من النظم والافكار والعادات لابد على ـ رأي هؤلاء ـ ان تخضع لانتخاب الطبيعة العمياء ، وان

المادي للتاريخ هو المودة الحاضرة والذي تشبثت بـه بعض الفكر المحلية ، وتعرضنا لنظرية « دورية الحضارة » بهذا المعنى لانها تمثل جانباً من الاراء المتفشية حديثاً وما كلمة « التاريخ يعيد نفسه » الا صدى يمثل جانباً منها (وتعرضنا) لنظرية الانتخاب الطبيعي (لان تعبير ان هذا طبيعي او حق طبيعي او سنة طبيعية) اصبح شائعاً الان وسيأتي بيانهـا مفصلا وبيان الموارد التي يصح التعبير بانه طبيعي ومالا يصح والوجوه المتصورة فى هـذا المجال ولذلك فنعتبر هذه المذاهب مذاهباً رئيسية في الفكر الحديث عملنا على مقارنتها بجانب من الذي يقدمه الاسلام في هذه الميادين .

(١) قصة الفلسفة الحديثه الجزء الثاني ص ٤٩٥ .

نسلم كل مقاليدنا بيد الصدف والمقادير تعمل فيها ما تشاء .

اما الانسان فليس له اي موضع قدم في ركب الطبيعة ومسيرتها وأي مكان في التوجيه والادارة والقيادة ، وليس له اي شأن يذكر في الاسهام العملي في حاضره ومستقبله ، فأن من الواجب عليه كما يقول بعضهم – ان يأخذ غذاء جاهزاً من الطبيعة العمياء نفسها (١) كما يأخذ البدن الاغذية الجاهزة من الادوية والعقاقير الطبيعية ليس له حركة موجهة ولاتفاعل مريد يصدر عن امكانياته وينمي قابلياته كما تنمي الحركة والتفاعل مع الطبيعة اجهزة البدن وقواه المادية .

فهذا الرأي كما يقول بعض العلماء ، لا يصلح ان يكون دليلا خلقياً بأية حال من الاحوال ، إذ كيف نترك مصيرنا في كف الطبيعة العمياء ، وهي كما قال بعضهم (ملطخة بالدماء نابياً ومخلباً) نعم كيف نذر الطبيعة تصب في قوالبها ما يطيب لها من اخلاق وهي كثيراً ما تمجد الوحشية والمكر والخداع ، وتمقت الرحمة والعدل والحب (٢) هذا هو خلاصة افكارهم ازاء دور الانسان في حاضره الفعلي ومستقبله الآتي .

فالانسان فيها اول ضحاياها وامكانياته فريسة سائغة لها

---

(١) قصة الفلسفة الحديثة .

(٢) نفس المصدر .

واما دوره في تاريخه الماضي بشكل عام ، فقد اجابت بالنفي وبالسلب ايضاً ، فلم يكن لتتراجع في التاريخ عما حكمت به في الحاضر والمستقبل وهو كما يقول الماركسيون (وغني عن البيان ، باننى قد عمدت الى سرد المواضيع في الرياضيات والعلوم ، سرداً عاجلا وملخصاً بغية ان اطمئن تفصيلا الى ما لم اكن اشك منه بصورة عامة ، الى ان نفس القوانين الديالكتيكية للحركة ، التى تسيطر على العفوية الظاهرة للحوادث في التاريخ ، تشق طريقها فى الطبيعه ... » (١) .

هكذا قالت الماركسية قانون حديدي مادي قد تحكم تحكماً حديدياً في التاريخ الفائت وهو يشق الان طريقه في الطبيعة ويلعب فى الحاضر والمستقبل نفس دوره السابق .

ولكن هناك حقيقة ساطعة لا تتمكن ان تخفيها من على المسرح وهى تعلم جيداً انها لا تتمكن ذلك ، وذلك دور الفرد القائد في التاريخ ، ذلك الفرد الذي طالما لعب دوراً بارزاً على مسرح التاريخ وطالما كانت ارادته وافكاره ومبادؤه او رغباته وشهواته ونزواته لها الكلمة العليا والمنفذة على صعيد الحياة الخارجية وطالما ظهر مصلحون وجهوا بيئتهم ومجتمعهم واثروا فيها اكثر مما هي اثرت فيهم ووجهوها الى الوجهة التي يهدفون إليها .

(١) ضد دوهرنك ج ٢ ص ١٩٣ .

فعندما رأوا هذه الحقيقة الضخمة والتي لا يمكن ان تلفها مغالطة او نظرية عابرة اضطروا إلى الاعتراف بها جزئياً بصورة لاتتنافى مع حتميتهم التي يفترضونها لقوانينهم المادية الموهومة فقد قال بليخانوف : (إن الخصائص الفردية ، التي يتصف بها الرجال العظام ، تحدد السمة الخاصة للحوادث التاريخية ، وتحدد عامل المصادفة . . . وتلعب دوراً جزئياً في مجرى هذه الحوادث التي تحدد اتجاهها فى النهاية ، والاسباب الموصوفة بالعامة ، اي بتطور القوى المنتجة ، وبالعلاقات التي تحددها هذه القوى بين الناس)(١)

وهكذا بقية المذاهب الاخرى فان الانسان كما يدور فى هذه الدائرة الحضارية فى حاضره ومستقبله ـ على راي هذه النظرية ـ فهو قد مر في مراحل عديدة من هذه الدورات الحضارية الحتمية لا يتمكن الانسان من ايقافها او تغيير خط سيرها البياني هذا.

وكما تختار له الطبيعة (ونظام الانتخاب الطبيعي) الاصلح فى كل شيء فقد اختارت له ايضا فى تاريخه هذا الهدف الارجواني وقامت بوظيفته خير قيام .

هذه هي معالم نظرياتهم العامة ، وخطوطها الرئيسية ، وقد اصدروا فيها احكاماً واراءاً اسبغوا عليها صفة الحتمية والشمول ، ولكنهم حينما انتهوا من صياغة نظرياتهم ـ غير الجيدة ـ هذه .

(١) اقتصادنا الكتاب الاول ص ١١٧ .

اخذوا يضيفون إليها بعض العوامل والايحاءات النفسية التي تصرف الفكر عن التأمل فى محتواها لمناقشتها وحسابها حيث عقبوا على نظرياتهم المحزنة هذه ـ والمحزنة حقاً ـ للانسان وهو يرى ما يملك من امكانيات وقابليات وهى تسلب منه علانية وجهراً فارادوا ان يشيعوا فى الجو بعض المخدرات التي تشغله عن الحالة التي يريدون ان يوقعوه فيها فقالوا واتفقوا : على ان الانسان لا ضير عليه في ذلك كله وان سلبت امكانياته الرئيسية وقواه ومواهبه بل وارادته وتصميمه ! ! فلا ضير عليه فى ذلك وان سلب منه كل هذا ما دام الامل باسماً والرجاء متفائلا فالحياة ـ على رايهم ـ وراي فلسفتهم الجبرية هذه تسير تلقائياً وبصورة عفوية نحو الترقى والصعود في كل المجالات الاجتماعية والمادية والخلقية (١) فقلقه لابد ان يزول وقلبه لابد ان يطمئن ولابد ان يستبشر ايضاً من صميم قلبه للمناظر الخلابة التي سيمر بها وهو يطل عليها من ركب قوى الانتاج الجبارة او القوى الطبيعية الاخرى ، وستطالعه في سيره المحتوم هذا الرؤى الجميلة والاحلام وان هو لم يتمكن ان يفر من مسيرة هذا الركب بسبب اليقظة المستمرة التي تتمتع بها القوى المنتجة ، والعلاقات المادية التي

(١) ملحوظة نستبعد عامل العلم والتصنيع من البحث فله موضوع مستقل يأتي تفصيله انشاء الله تعالى فى القسم الثالث من هذا الكتاب.

تنشا منها .

فالماركسية تقول : للاسهام العملي في هذا الترفيه والانعاش ازاء الانسان السجين والذي اوثقته كتافاً حديدياً صارماً تقول على لسان لينين في اجتماع عقده الشباب الاشتراكي فى سويسرا قبل شهر واحد من ثورة شباط وقبل عشرة اشهر من ثورة اكتوبر الشيوعية اي قبل ما يقارب (تسع واربعين سنة) فخطب فيهم وقال في خطابه .

(لعلنا نحن ابناء الجيل الذي يكبركم لن نعيش لنرى المعارك الحاسمة للثورة الاشتراكية الموشكة على الاندلاع ولكن يبدو لي اننى استطيع ان اعرب باقصى ثقة عن الامل ! ! بان يتاح للشبان العاملين في الحركة الاشتراكية الرائعة في سويسرا وبقية انحاء العالم الحظ الطيب ليس فحسب بالمساهمة فى القتال اثناء الثورة البروليتارية الوشيكة بل كذلك في الخروج منها ظافرين) قال لينين هذا وبعده بعشرة اشهر فقط تزعم الثورة الاشتراكية التي وقعت فى روسيا وجاءت به الى الحكم واما الشبان العاملون في الحركة الاشتراكية الرائعة في سويسرا ـ على حد تعبيره ـ فلا يزالون حتى اليوم ، لم يتح لهم الحظ الطيب الذي تمناه لهم بالمساهمة في الثورة البروليتارية والخروج منها ظافرين) (١) .

(١) اقتصادنا ج ١ ص ٦٣ للحجة السيد محمد باقر الصدر .

فهذه العطور المفعمة بالامل وباحلام اليقظة لم يحصل الشبان الاشتراكيون في سويسرا على شيء منها ولم يكن هناك حتى الان ما يدل على قرب هذه الاطياف الجميلة كما لم يتح للينين نفسه ان يدرك خروشوف بعد مسيرة منهكة للاشتراكية من الدماء والدموع التي بذلت في سبيلها ليسمعه باذنيه - وهو يصرح - بان المزارع الفردية التي جعلت ادارتها بيد فلاحين معينين قد جاءت بنتائج تبعث على الارتياح - ليرى بام عينيه دور الفرد الواضح في تيسيير قوى الانتاج وفي تخطيط البرنامج الاجتماعي العام - .

وهكذا ارباب المذاهب الأخرى حيث انطلق بعضهم في هذا التفاؤل الى ابعد الحدود وحلقوا في سماء الخيال وفضائه بالاجنحة الفارهة حيث قالوا بالنص : (ولعل اصدق مايوصف به التاريخ انه تنازع على البقاء وبقاء الاصلح - اصلح الكائنات واصلح الجماعات واصلح الاخلاق ، واصلح اللغات ، واصلح الافكار ، واصلح الفلسفات . . . الخ (١) .

وعبروا عن ذلك كله - بالانتخاب الطبيعي - فحصيلة النزاع والصراع الواقع في مختلف المجالات انما هو بقاء الاصلح في كل شيء ، وهذه النظرية هي القمة والذروة في التفاول والتخدير بل الدرجة الاخيرة منها والتي حاولوا اعطاءها للانسانية لتتم عمليتهم

(١) قصة الفلسفة الحديثه ج ٢ ص ٥٠٠ .

غير المشرفة فى اهدار كرامة الانسان وسرقة امكانياته .

انا لا نتكر ان يكون هناك صراع فى الحياة الاجتماعية العامة ، ولهذا الصراع ايضاً مظاهر عديدة وجولات متعددة ، فصراع بين الشرور والاهواء انفسها لاختلاف اتجاهاتها والاراء التي انبثقت عنها والرغبات التي تدعو إليها (ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن . . .) (١)

(وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . . .) (٢) . فاهواء البشر وميولهم لابد ان تتعدد وتتشعب ، ولابد ان تتكاثر انقساماتها كلما مرت عليها ايام من الزمن فتقع في حماة الصراع الرهيب الذي لا ينتهي مداه وان ألقيت فى المعركة من قوى وامكانيات تستوجب انتصار احدها على الاطراف الاخرى انتصاراً موقتاً . حيث ان هذه الاهواء المنتصره لابد ان تنقسم على نفسها بمقتضى نشأتها ، وعوامل تكونها فتظهر جبهات جديدة وثغرات متعددة . وتشعب هذا الباطل وتضارب اهواءه قوة معنوية للحق وتفتيت اكيد لقوى الشر من ان تتجمع عليه ولعل هذا هو ما تدل عليه الآية فيما تدل عليه (. . . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت

(١) المؤمنون ٧١ .

(٢) الانعام ١٥٣ .

صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز) (١) وقوله تعالى (. . . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين) (٢) .

وهناك ايضاً صراع ما بين الحق والباطل من جهة اخرى عبر امتداد التاريخ والزمن لان ذلك من سنة النظام الكوني العام حيث اقتضت ان يكون بينهما مساجلات متلاحقة مهما اختلفت مظاهرها او الوسائل التى تستخدمها ، اما ان الاصلح لابد ان يكون هو المتغلب ، في كل مساجلة ومعركة ، وان نتيجة الصراع لابد ان تتمخض عن الاصلح فى كل شيء كما يتمخض صراع الغابة عن تغلب ذي الانياب البارزة والعضلات القوية فان ذلك مما لا يقره الاسلام بل لا تقره ذلك اي نظرة صادقة ومستخلصة من صميم الحياة وسنتها ، وذلك لأن الغلبة الفعلية تتبع الامكانيات التي يملكها معسكر الخير ومعسكر الشر فقد يتغلب الشر فى بعض المراحل نتيجة انحرافات متلاحقه وهبوط خلقى عام يطرأ على الامم والمجتمعات ، على القوى التي تمثل الخير والحق باهدافها ودعوتها ، ولا يدل على ان المتغلب هو الاصلح في كل شيء ، بل يرى

---

(١) الحج ٤٠ .

(٢) البقرة ٢٥١ .

الاسلام ان مثل هذه النظرات مما تحذر الانسان عن تهيئة القوى الصالحة وتجميعها في سبيل تحقق الغايات المثمرة والاهداف النبيلة فلا يسمح لها بانتشارها وتفشيها فضلا عن معارضتها وتخطئة نظرياتها ولذلك دعا الانسان تكرار ومراراً الى ان يعد العدة المستطاعة والقوة التي تتطلبها منازلة الباطل واهدافه الشريرة .

وصحيح ان حكمة الله اقتضت ان يتغلب الحق تغلباً واضحاً وفعلياً في بعض مراحل الحياة وادوارها ، ولا يمكن للباطل ان يقف بوجهه مهما ملك من جحافل ظلام او اساليب ملتوية ومنحطة حيث ان القوى المعنوية ونصر الله المحتوم قد اوجب ذلك وفرضه (اللهم هذه قريش قد اتت بخيلائها تحاول ان تكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد (ولقد نصركم الله ببدر وانتم اذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون * إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم ان يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين * بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين * وما جعله الله الا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم (١) .

وهذه ملحمة من ملحمة النصر العظيمة التي وعد الله بها

---

(١) آل عمران ١٢٣ ، ١٢٦ .

بوعد قاطع جازم وأكدها بآيات كثيرة (يريدون ان يطفؤا نور الله بافواههم ويابى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون * هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) (١)

فيظهر نور الاسلام رغم الدياجير الحالكة من الظلام الاسود الضارب باطنابه والمخيم بظلاله القائم على كل شبر وعلى كل قوم ، وتمتداضواءه في قلب التاريخ والزمن والاجيال .

وشاء الله ايضا (. . . ان الارض يرثها عبادي الصالحون) الانبياء ١٠٥ ولكن النصر الفعلي فى كل مرحلة من مراحل التاريخ يتوقف على الطاقات الفعلية والامكانيات التي تبذل وتقدم فى هذا المجال (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم. .) ولذلك فالقرآن الكريم يرشد المسلمين إلى هذا القانون الحياتي فيخاطبهم ويخاطب الرسول (ص) (واذا كنت فيهم فاقمت الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا اسلحتهم فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة اخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم واسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن اسلحتكم وامتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم

(١) التوبة ٣٢ ، ٣٣ .

اذى من مطراً وكنتم مرضى ان تضعوا اسلحتكم وخذوا حذركم ان الله اعد للكافرين عذاباً مهينا) (١) وهذا هو الوعي العميق والمتبلور الذي عرف واقع الحياة وخبر الظروف ووسائلها واسبابها .

ولكن الاسلام كما يشيد بالطاقات المادية يثمن الطاقات المعنوية وايجابيتها (. . . كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) (٢) (. . . ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز) (. . . هو الذي ايدك بنصره وبالمؤمنين) (٣) ولا نحاول الان مناقشة هذه الافكار المتفائلة والمخدرة من وجهة واقعية ومن خلال المفهوم الذي قدمه الاسلام في هذا الميدان فلذلك بحث سيأتي تفصيله انشاء الله تعالى . ولكننا نحاول الآن ان نستنتج من هذه النظريات ومن وراء اخطاءها شيئاً له آثاره البعيدة على المجتمع والفرد ولعله هو الهدف الاول من إشاعة مثل هذه النظريات والعمل على ترويجها واسباغ صفة الواقعية عليها والحتمية والشمول ذلك هو :

---

(١) النساء ١٠٢ .

(٢) البقرة ٢٤٩ .

(٣) الانفال ٦٢ .

المغزى النفسي والاجتماعي:

فان لهذا التأكيد البالغ على سلبية الانسان ، وعلى هذا التطور الحتمي الذي لا مفر منه مغزى نفسياً واثراً اجتماعياً يحصلون عليه ويهدفون إليه بكل ما يتمكنون وما يملكون من وسائل واساليب

وذلك لأنه من الملاحظ بوضوح - في الوقت الحاضر - وجود نزعتين طاغيتين تعيشان جنباً الى جنب في فكر الانسان المعاصر ، وفي المحيط العام للانسان الحديث ، وهما يمتازان بالوضوح والظهور بشكل ملحوظ ، وبالتناقض والتعارض ايضاً في الوقت ذاته ولا اقصد بهما . النزعة الرأسمالية ، والنزعة الاشتراكية والشيوعية بل ان هاتين النزعتين تعيشان في كل مجتمع حديث على الاغلب مهما كانت صبغته الاقتصادية واعني بهما : حب التجمع والتكتل وظهور الاعمال والفعاليات المختلفة ومظاهر السلوك المتنوعة بشكل عمل جماعي منظم من جهة ، وظهور النزعات الفردية عند كثير من الافراد وعند الافراد القيادية الذين ألقت إليهم المقادير قيادة المجتمع وادارة شؤونه بشكل خاص وقد ظهرت هاتان النزعتان الجماعية الطاغية ، والنزعة الفردية الطاغية وكل منهما تطالب صاحبها بعكس ما تطالبه الآخرى ، وتدعو الى ما يناقض ما تدعو إليه الآخرى تماماً ، ولأجل التوفيق بينهما . بل ولأجل غلبة النوازع الفردية

وتسلطها على كل امكانيات المجتمع والجماعة ، هو تركيز مثل هذه الافكار الجبرية ونشر مثل هـذه النظريات المتفائلة بين صفوف المجتمع وفي افكارهم ، فكل ما يقوم به الفرد القائد على هذا او الكتلة القائدة انما هو استجابة حتمية لعملية إيصال حلقات التطور الحتمي الذي لا مفر منه ، بل وحتى هذا الايصال لسلاسل التطور وعقده الذي يصدر من هذا الفرد او تلك الكتلة ليس ناشئاً من محض اختيار الفرد وارادته بل إنه استجابة ضرورية للقوانين العامة التى توجه سلوك الفرد والمجتمع فلا يكون عمله هذا تنفيذاً للتطور من خارج قوانينه ونطاقه بل هو داخل ضمن هذا الاطار العـام الموهوم ! ؟ فليس هو اذن ولا الكتلة المتسلطة وعاءاً كبيراً لتجمع كل هذه الامكانيات العظيمة فى شخصه بل إنه جانب من جوانب القوانين المادية للتطور واداة منفذة لاوامرها ورغباتها ! ؟

وبهذا الاسلوب الماكر الذي يلبس ثوب النظرية والحتمية تغلبت نوازع الفرد على كل امكانيات الجماعة وقد توافدت مثل هذه المبادىء من كل حدب وصوب وهي تؤكد على هذه النقطة وان اختلفت اسماؤها وتعددت عناوينها وتفصيلاتهـا لتقضي على البقية الباقية من الفـكر المبدع ، والارادة الواعية ، والايمان المتبصر . ولـكن الاسلام لن يرتضي للانسان هذا المسخ المشوه ، ولن يوافق على هذه السرقة العلنية لـكل قابلياته ومواهبه المودعة في ذاته

بل ولن يسمح من أول الامر لظهور مثل هذه الافكار وتفشي داءهـا بين افراد مجتمعه . ولا نريد في هـذا العرض التمهيدي ان نبين الحمـاية العامـة التي وضعهـا الاسلام لمثل هذه القابليات من ان تهدر حيث - سنعرض - خطوطهـا التفصيلية في البحث الآتي انشاء الله تعالى . ولـكن لنؤكد هنا على الفرق الجوهري الذي يفترق به الاسلام عن هذه المبادىء الوضعية المختلفة حيث ان الاسلام افهم الانسان :

اولا : واقعة الوجداني المتحرر الذي يتلقى فيضه المتواصل من خالقه وباريه (انا هديناه السبيل إما شاكراً واما كفوراً) (لهاما كسبت وعليهاما اكتسبت) (ومن يعمل من الصالحات من ذكر اوانثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا (١) (من جاء بالحسنة فله عشر امثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الامثلها(٢)

وثانياً : افهمه مكانته الرفيعة ومنزلته السامية (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم

---

(١) النساء ١٢٤ .

(٢) للاطلاع على الآيات المباركة والروايات الواردة عن اهل البيت عليهم السلام فى هذا المجال يراجع (المختار في الجبر والاختيار) بقلم الصادقى تقريرات السيد العلامة الفاني .

على كثير ممن خلقنا تفضيلا) (١) وإنه لتاكيد حق ونكته بارعة حينما يؤكد القرآن على هذا التفضيل حيث افصح عنه بصيغة الفعل واكدها بالمصدر ليرشد الانسان إلى هذا السر الثمين الذي تمكن ان يحصل عليه بفضل القوى والمواهب التي يمتلكها دون ما حواليه. ولذلك فقد توجه إليه بالذات لا إلى غيره لأنه مركز الثقل في هذه الارض وحامل الامانة التي اشفقت السموات والارض عن حملها (إنا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين ان يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان . .) (٢) ولذلك فالاسلام يتوجه إليه لا الى غيره وارشده :

ثالثاً : إلى القوى التي تحوطه من زراعية وثروات طبيعية ومعادن صناعية ليستغلها الانسان ويحصل على ثمراتها ويتحقق ـ العمل الصالح ـ والعمل الصالح الذي اكدت عليه الآيات والاخبار يشمل مختلف المجالات المتنوعة ويتحقق ويتمثل في النتائج التي اشتركت فيها الثروات الطبيعية والعمل الانساني المدرك وبهذا الادراك والارادة الواعية تمكن الانسان ان يوجه مختلف وجوه النشاط في ميادينه الاجتماعية ولذلك امره الاسلام بأن يسخر امكانياته في اعداد القوة المستطاعة لحماية الاهداف التي يؤمن بها

---

(١) الاسراء ٧٠ .

(٤) الاحزاب ٧٢ .

والمثل التى يسعى لتحقيقها (واعدوا لهم ما استعطتم من قوة ..) وبهذه الخطوط الرئيسية وامثالها يعمل الاسلام على صيانة كيان الانسان وحفظ قواه العظيمة متلاحمة متنامية لتسير في طريقها المستقيم نحو غايته المنشودة (وماخلقت الجن والانس الا ليعبدون)(١) ويمتاز الاسلام عن غيره لانه ـ دين الله الذي خلق كل افاق الانسان والحياة . يمتاز هذا الدين العظيم بأن عبادته التى جعلها هدف الانسان من وجوده وايجاده تشمل شتى اوجه النشاط ومختلف قواه الفكرية والبدنية والروحية والغريزية والنفسيةولذلك فهو دين يحث على السير نحو قمة الرشد الانساني التى تركز عليهاودعا البشرية الى الصعود نحوها والترقى في مدارجها ومراحلها الرشيدة ولذلك فمن الجدير بنا ان نستخلص نظرتنا في هذا المجال من صميم نظرة الاسلام وما قدمه من امثلة ومفاهيم وان نقدم من قوانا فى كل مجالاتها نموذجاً للعمل الصالح وللعبادة الاسلامية الحقة حيث نرى الصور المتنوعة للعبادة التى يبتغيها الاسلام ونتمكن على ضوءها ان نستثمر كثيراً من عواطفنا وقوانا فى خدمة الاهداف الكبيرة ونقدم على ساحتها نماذج تزخر بالرحمة والعطاء وبالفوائد التى يقتطفها المسلمون في دعوتهم الاسلامية الرشيدة (ما كان لاهل المدينةومن حولهم من الاعراب ان يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوابانفسهم

(١) الذاريات ٥٦ .

عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ضمأ ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع اجر المحسنين * ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً الا كتب لهم ليجزيهم الله احسن ما كانوا يعملون) (١) .

وحينما تنتكس هذه المذاهب فى نظرياتها واراءها ازاء الانسان وقواه يذهب الاسلام فى طريق الايجابية مراحل عديدة ويقطع شأواً بعيداً فى هذا المجال لتعمل كل هذه القوى والامكانيات متلاحمة ومتعاونة في تحقيق الهدف المنشود (. . . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) .

فهذه مراحل ايجابية لابد للمسلم ان يسير على هداها اذا اراد ان يبصر هدفه الكامل متحققاً ومتجسداً ، وعلى ضوء هذه الآيات المباركة تبدأ الايجابية هذه من الايمان المركز في ضمير الانسان وكيانه لانه قاعدتها القوية ، الى تحقيق هذا الايمان في مجال العمل والتطبيق بعمل الصالحات ، الى العمل على استمرارية هذا الهدف العظيم بالتواصي - بالحق - الى تحمل المسؤوليات التي تستلزمها هذه الاستمرارية بالتواصي بالثبات والصبر من اجل الحصول على الثمرات المنشودة ، ودفع عاديات الزمن ومكائد الاعداء عن اجواءها

(١) التوبة ١٢٠ ، ١٢١ .

التطور

فى المذاهب الوضعية

بحث تفصيلي

[illegible]

نظرية – دورة الحضارة –

وخلاصتها ان المباديء والعقائد والاتجاهات الفكرية تسير في خط بياني دائري يلتقي بالنقطة التى ابتدأ منهـا . حيث تتشكل باشكال عديدة فتبتعد كثيراً عن الصور الاولى التى ابتدأت منها دورة الحضارة في مسيرتها هذه . الا انها تعود بعد حين إلى نفس الشكل القديم الذي انطلقت منه وتقمصت روحه ، فتنتهي بذلك دورتها هذه لتعود من جديد في دورة جديدة تمر فيها بكل الاشكال التى مرت بها في دورتها السابقة ، واذا كان هناك اختلاف بسيط في بعض التحسينات العامة ، والامور الجانبية التي يفرضها اسلوب العصر والمرحلة الزمنية التي تظهر فيها فان روحها القديمة ومعالمها الرئيسية لابد ان تحتوي عليها وتحتفظ بها .

فالحضارة التي تظهر على مسرح المجتمع الانساني وفى محيط فكره وثقافته لا يمكن لها ان تخرج عن نطاق هذه الدائرة الحضارية المحتومة (١) والأنسان مهما حاول وتشبث بكل الوسائل والاساليب فلا يمكنه ان يخرج عن هذا القانون الدوري العام .

فالانسان على ضوء هذه النظرية لابد ان يمر بفردية مستبده

---

(١) مقتبسة من محاضرات الدكتور حاتم الكعبي في عـلم الاجتماع .

الى جماعية طاغية الى فرديه مستبدة وهكذا دواليك ، ولابد ايضاً ان يمر مثلا بروحية مترهبة الى مادية متحجرة الى روحية شفافة . وهي كما يقول الدكتور حاتم الكعبي في بيانها : (ان ما يعبر عن تلك النظرية خير تعبير هو راي هذين المفكرين في ما يتعلق بتغير الحكم من الملكية إلى الاستبداد ، ومن الاستبداد إلى الحكم الارستقراطي ، ومن الحكم الارستقراطي إلى حكم أقلية او انفار قليلين او فئة (اي إلى الحكم الاوليكاركي) ومن هذا النوع من الحكم الى الدمقراطية ، ومن الدمقراطية إلى الفوضوية ومن هذه الأخيرة عوداً إلى الملكية حيث تبدأ سلسلة التغير من جديد وهكذا دواليك (١) .

فلا يمكن للانسان ان يقف على قاعدة يرتضيها لنفسه لاينحرف عنها يميناً ويساراً . بل لابد ان يسير مع الأمواج العاتية المنبعثة من هذا الدوران المتواصل للحضارة الانسانية ، وليس له ان يحترز من الارتطام بصخورها او التخلص من اخطاءها بل ليس له ان يحافظ على شيء من منافعها ان حصل فيها على شيء من المنافع فمنافعها واخطاؤها وثمراتها واضرارها لابد ان تمر جميعاً على محيطه ومجتمعه فيستفيد من منافعها ويكتوي بعذاب اخطاءها وشرورها لأنها امور حتمية خارجة عن اختياره وارادته ولابد للحضارة وللتاريخ ان يمر في دورته هذه رضي الانسان بذلك واحبه ام كره

(١) نمو الفكر الاجتماعي ص ١٨ .

ذلك وضجر منه .

ويجب علينا قبل ان نناقش محتوى هذه النظرية ان نكشف اولا وقبل كل شي عن مغالطتها التي اعتمدت عليها حيث يجب علينا ان نسأل اصحاب هذه النظرية عن هدفهم الذي يقصدونه من (هذه الدورة المحتومة للحضارة) ؟

هل يقصدون بذلك اعطاء صورة تاريخية لما مضى من السلوك البشري على مر التاريخ والعصور ؟

او يقصدون بذلك اعطاء نظرية توجيهية يقصد منها توجيه حياتنا ومستقبلنا على ضوءها وتفسير كل مظاهر السلوك الحاضرة والمستقبلة بما ينسجم وهذه النظرية لانها التعبير الحتمي والواقعي عن الحاضر والمستقبل كما كانت تعبيراً صادقاً عن التاريخ الذي مرت به الاجيال البشرية .

فان ارادوا الأول والاقتصار على الجانب التاريخي منها وجعلها { نظرية تاريخية } اكثر منها كنظريه سياسية وتوجيهية وتربوية نوجه مستقبلنا بوحي منها ومن مفهومها . فهذا مما نوافق عليه في شطر من التاريخ (اي بصورة جزئية ومحدودة) حيث ان التاريخ في جانب منه لما كان يحفل بالنظم البشرية والافكار الوضعية التي غذاها الانسان بظلمه وجهله واستبداده وهذه الافكار لابد ان تفرش ارضيتها بطبيعة الحال بعنصرين اساسيين وهما :

اولا : ـ عنصر الذاتية في مثل هذه القوانين مما يوجب

وضعها وتشريعها على صورة لها ارتباط وثيق بذات المشرع نفسه وما يختلج فى ضميره من رغبات وشهوات ومؤثرات ، حيث قد تحتوي هذه النظم واللوائح القانونية على عنصر البطش والاستبداد وقد تحتوي على عامل المصلحة الشخصية والفردية وقد تحتوي على المصلحة الطبقية والحزبية . وقد تتوافر فيها عوامل كثيرة من امثال هذه بسبب تمكنها من ذات المشرعين انفسهم وضمائرهم وافكارهم .

وثانياً : ـ عنصر المحدودية في القابليات الفكرية للشخص المشرع او الاشخاص المشرعين فالانسان مهما اوتي من ذكاء وفطنة ومن معارف ونظريات لا يمكن له ان يحيط بحاجيات نفسه ومتطلباتها واهدافها التى تصلح لها فضلا عن ان تحيط بمشاكل غيره وحلولها وبمشاكل مجتمعه الكبير او مشاكل المجتمع الدولي بشكل عام . وهو يقصر ايضاً عن ان يحيط بمتطلبات مرحلة زمنية محدودة فلا يقوى على الاحاطة بمرحلة اطول من عمر الزمن والحياة

ولهذا فاذا تغيرت الوجوه والاشكال وحل مشرعون جدد مكان المشرعين السابقين لابد وان يزيلوا النظم السابقة كلها او اكثرها او قسما منها اما لاجل ان تحقق هذه التشريعات الجديدة مصالحهم ورغباتهم بدل مصالح اولئك ورغباتهم واما لتكشف اخطاءها واضرارها إن هى استمرت نافذة الكلمة في مرحلة

التطبيق والتنفيذ . وهكذا تبقى لأئمة التشريع بين شد وجذب وتذبذب ازاء هذه العوامل المتناقضة والظروف المتباينة وهي حقاً تدور في دورة من الافكار والاراء واتجاهات حضارية متضاربة وستبقى تدور فى فلكها ما دامت المناشىء التى تؤدي اليها كثيرة ومتوفرة وما دامت الاهواء والرغبات تقوم بدورها الفعال ﴿ ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن...﴾ (١)

واما اذا نظرنا إليها كنظرية ذات مخطط عام لتنفذ فى ميدان التربية والمجتمع وتدرس على انها عقيدة لابد للانسان ان يتبناها ويصوغ المجتمع كل نشاطاته واعماله في نطاق هذه النظرية وعلى هدي من محتواها وايحاءها . اما هذا فالاسلام لا يرتضي به لأنه يعارض كل المعارضة ان تكون مثل هذه الفلسفات والاراء هى التى تصوغ الحياة العملية للمجتمع وذلك لان مثل هذه الفلسفات لابد ان تصطدم بكثير من النظرات الاساسية فى الاسلام والتى تكون جانباً كبيراً من معالم فلسفته ازاء الانسان ولذلك فهو :

اولا : يعارض فلسفتها الجبرية والتي تجعل الانسان طاقة سجينة ومحدودة لا يتعدى نطاق هذه الدورة الحتمية في تاريخ الحضارة وسيرها في مراحل الزمن . لانه لا يرتضي لنا ان نكون فكرة مغلوطة ومقلوبة عن المركز الرئيسي في سير الحضارة صعوداً

(١) المؤمنون ٧١

وانحدارا . حيث انه يؤمن كما سبق ذكره بان الانسان هو الموجه المختار ، والقائد ذو الارادة الحازمة للمظاهر الحضارية ومراحلها . بل إن هذا الدين ليشير إلى ـ السر العظيم ـ الذي احتوى عليه هذا الانسان والذي عجزت القوى المادية على ضخامتها عن القيام بمتطلباته او القدرة على اداء حقه « إنا عرضنا الأمانة على السموات والارض والجبال فأبين ان يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان . . . . » (١)

وثانياً : ـ فانه يعارض اشد المعارضة ان تكون عقائد الامة وقيمها الحضارية ، وخصوصاً اخلاقها التى هى جوهر رسالتها واصالة وجودها اموراً سطحية تتشكل باشكال عديدة وفق الظروف والمناسبات ليس لها جذور عميقة فى نفس الفرد والمجتمع ، وليس لها منابع فياضة تستمد منها مبررات بقاءها وجوهر ذاتها وان اختلفت اساليب التعبير عنها . بل يرى الاسلام ان عقيدة الانسان وايمانه وشريعته مهما تفتحت اوراقها بتوارد الرسالات المتعاقبة ومهما امتدت جذورها واغصانها فانها تستند بسبب وثيق إلى الفطرة التى فطرت عليها ذات الانسان وتركز وجوده ، وان اساليب الخير والحق مهما تنوعت وفتحت افاقاً جديدة فانما هى جزء من الحلبة المتوغلة في حياة البشرية وفى

(١) الاحزاب ٧٢

تاريخها المديد « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي اوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . . . . » (١) وسيأتي بيان ذلك في الموضوع التفصيلي لمفهوم التطور على ضوء الاسلام انشاء الله تعالى .

وثالثا : فالاسلام لا يؤمن بان الانسان لا يتمكن ان يحتفظ بالتشريعات الصالحة ولا يتمكن من ازالة التشريعات الطالحة التي لا تعبر عن الاهداف الحيوية للانسان حيث انه لا يؤمن بهذه السلبية الهزيلة له « ما لله لله وما لقيصر لقيصر » بل إنه يأمر بالدفاع عن المرحلة الصالحة والحفاظ عليها « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » ويأمر ايضاً بمقاومة المبادىء التي تخرج على عقيدة المجتمع واهدافه في الحياة الحرة الكريمة وان الاسلام ليسهب ويفصل في بيان انواع المقاومات التي يسلكها المسلم لتلك الافكار الضارة قبل ان تأخذ حصتها الوافرة من سعادة المجتمع واستقراره » (٢) .

---

(١) الشورى ١٣ .

(٢) راجع كتاب ـ النظام السياسي في الاسلام ـ لباقر شريف القرشي في فصل المقاومة الايجابية ، والمقاومة السلبية . وكتاب ـ اسلوب الدعوة في القرآن ـ لمحمد حسين فضل الله حيث يذهب المؤلف إلى انه لا مقاومة سلبية في الاسلام بل إنها

ولذلك فانه يرى ان مثل هذه الافكار السلبية انما تعبر عن جانب من النكسة التي مرت بها البشرية واكتوت باخطاءها وعذابها واذا كان المجتمع الاوربي - قد حصل على الحظ الوافر من امثال هذه النكسات في تاريخه واصيب باخطاءها الدموية وصراعها الفكري اللاهب فانه ليس من الضروري لنا ان نصاب بمثل هذه التشنجات الفكرية التي تحاول ان تشل قوى الانسان ، وتصيب امكانياته بالوهن والخذلان .

ولذلك فالاسلام لا يبرر للانسان سلبيته الميته ازاء التشريعات التي تنفذ في محيطه وتمر على اجوائه ازاء الفكر والمباديء التي تتصارع ما بينها على اخذ زمام المبادرة في مجتمعه بل إنه لينظر الى الانسان نظرة الواثق بقدرته الخبير بأهمية دوره الذي يقوم به .

فاذا كانت مثل هذه التشريعات الظالمة قد فرضت عليه من خارج ذاته ونشأت من عوامل اجنبية عن ارادته وامانيه فانه قد شرع له من المقاومة انواعها العديدة وحثه على ان يبذل مختلف امكانياته في سبيل اضعافها وتقليص ظلها وازالتها عن مسرح مجتمعه الذي يعيش فيه .

مراحل للمقاومة الايجابية التي شرعها الاسلام حسب ما تكون هي المؤثرة والصالحة في ظرفها الخاص .

وإذا كانت مثل هذه التشريعات الخاطئة قد سنت وشرعت وفق اهواءه ورغباته فهو يرى بان الانسان لا يملك ان يبدد قواه وسعادته ويضحي باهدافه الصحيحة في الوسائل المدمرة والتشريعات الطائشة ولذلك فتشريع الاسلام يختلف اختلافاً جوهرياً عن التشريعات التي تشرع وفق مصالح ورغبات افراد او جماعة او طبقة أو حزب بل إنه ليهيب بالانسان ان لا يسلك مثل هذه الطرق المحزنه (ولا تلقوا بايديكم إلى التهلكة) ، ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن . . . (١)) ويخاطب القرآن المجتمع المسلم ليبين لهم دور النبي القيادي المرشد (واعلموا ان فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الامر لعنتم . . . (٢)) .

وخلاصة القول ان الاسلام لا يرتضي للانسان ان يكون نقطة ضئيلة ووجوداً محدوداً تتقاذفه تيارات الافكار المتضاربة فيشقى بشقائها ، ويتوحل فى اخطاءها ، بل إن له الكلمة العليا والارادة السامية في الحصول على مكانته اللائقه في الكرامة التي اضفاها عليه وبالخلافة التي جعله اهلا ومتحملا لواجباتها ومتطلباتها .

نعم من الممكن ان يكون للاسلام راي في دورة الحضارة

---

(١) المؤمنون ٧١ .

(٢) الحجرات ٧ .

من جانب آخر يختلف في جوهره عن النظرة السابقة . وهو انتقال القوة والتقدم والروح الحضارية من مجتمع إلى مجتمع حسبما يقدمه ذلك المجتمع من امكانيات فى سبيل المحافظة على حضارته ومقوماتها الرئيسية ، وحسبما يصدر ايضا من تهاون او انحراف واخطاء تؤدي إلى افول حضارته في المنحدر الذي تهوي فيه. ولعل ذلك هو المقصود بقوله تعالى « ولكل إمة اجل . . . » وسواء ذهبنا إلى ما ذهب إليه – مالك بن نبي – فى كتابه شروط النهضة تنقله بتفصيلاته لما له فائدة فى تنوير فكر القارىء فى هذا المجال : وهو يرى بأن كل نهضة تمر بمراحل ثلاثة مرحلة الفوران الروحي الذي تفجره العقيدة الدينية والمبدأ الذي يتجاوز حدود الارض والمادة « فكأنما قدر للانسان الا تشرق عليه شمس الحضارة الا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الارضية ، او بعيداً عن حقبته إذ حينما يكتشف حقيقة حياته الكاملة ، يكتشف معها اسمى معاني الاشياء التي تهيمن عليها عبقريته ، وتتفاعل معها

ومن هنا يستطيع المؤمن ادراك الحقيقة الساطعة التى يفسرها التاريخ ، في الفقرة التى وردت في احد الكتب المنزلة القديمة : (فى البدء كانت الروح) ومن المعلوم ان جزيرة العرب مثلا لم يكن بها قبل نزول القرآن الاشعب بدوي يعيش في صحراء مجدبة يذهب وقته هباء لا ينتفع به لذلك فقد كانت العوامل التلاثة :

الانسان والتراب والوقت راكدة خامدة ، وبعبارة اصح ، مكدسة لا تؤدي دوراً ما فى التاريخ ، حتى إذا ما تجلت الروح بغار حراء - كما تجلت من قبل بالوادي المقدس ، او بمياه الاردن - نشأت من بين هذه العناصر الثلاثة المكدسة حضارة جديدة فكأنما ولدتها كلمة (إقرأ) التى ادهشت النبي الامي واثارت معه وعليه العالم ، فمن تلك اللحظة وثبت القبائل العربية على مسرح التاريخ حيث ظلت قروناً طوالا تحمل للعالم حضارة جديدة ، وتقوده إلى التمدن والرقي .

ومما هو جدير بالاعتبار ان هذه الوثبة لم تكن من صنع السياسيين ولا العلماء الفطاحل ، بل كانت بين اناس يتسمون بالبساطة ، ورجال لا يزالون فى بداوتهم غير ان انظارهم توجهت فى تلك اللحظات إلى ما وراء افق الأرض او إلى ما وراء الافق القريب ، فتجلت لهم آيات فى انفسهم وتراءت لهم انوارها فى الآفاق (. . . وفى الوقت نفسه يواصل المجتمع الذي ابرزته الفكرة الدينية إلى النور تطوره . وتكتمل شبكة روابطه الداخلية بقدر امتداد إشعاع هذه الفكرة فى العالم ، فتنشأ المشاكل المحسوسة لهذا المجتمع الوليد نتيجة توسعه ، كما تتولد ضرورات جديدة نتيجة اكتماله ، وحتى تستطيع هذه الحضارة تلبية هذه المقاييس المستمده تسلك منعطفاً جديداً ، فاما ان يتطابق مع (النهضة) كما نراها

بالنسبة إلى الدورة الاوربية . واما ان يتطابق مع استيلاء الامويين على الحكم كما هو شان الدورة الاسلامية . وفى كلتا الحالتين فان المنعطف هو منعطف العقل ، غير ان هذا العقل لا يملك سيطرة الروح على الغرائز . وحينئذ تشرع الغرائز فى التحرر من قيودها بالطريقة التى شاهدناها فى (عهد بني امية) . إذ اخذت الروح تفقد نفوذها على الغرائز بالتدريج ، كما كف المجتمع عن ممارسة ضغطه على الفرد . . . وعندما يبلغ هذا التحرر تمامه ، يبدأ الطور الثالث من اطوار الحضارة . طور الغريزة التى تكشف عن وجهها تماماً ، وهنا تنتهي الوظيفة الاجتماعية للفكرة الدينيةالتى تصبح عاجزة عن القيام بمهمتها تماماً ، فى مجتمع منحل يكون قد دخل نهائياً في ليل التاريخ وبذلك تتم دوره الحضارة . (١)

فهذا ـ الكاتب الاسلامى ـ يؤمن بان المجتمع عندما تتفاعل روحه الدينية مع عناصره الثلاثة ـ الانسان ، والتراب والوقت ـ تنطلق شرارة الحضارة الجديدة إلى مسرح التاريخ لتحمل للعالم معالم حضارتها واهدافها .

حيث قدر للانسان الا تشرق عليه شمس الحضارة الا حيث يمتد نظره إلى ماوراء حياته الارضيه ، او بعيداً عن حقبته إذ

(١) مقتبسات من فصل (الدورة الخالدة) وفصل (اثر الفكرة الدينية فى تكوين الحضارة) .

حينما يكتشف حقيقة حياته الكاملة ، يكتشف معها اسمى معاني الاشياء التي تهيمن عليها عبقريته ، وتتفاعل معها كما يقول الكاتب

وقد دفع الكاتب وهماً وشبهة قد ترد عليه حيث يثير تاكيده على ان الروح الدينية هي اساس كل حضارة سؤالا عما يسمى (حضارة شيوعية) إذ لا يمكننا ان نرى فيها (طابع الروح) الذي عرفناه فى الدورة العامة للحضارة . . . هذا الخطأ الشائع إنما يأتي اولا من تفسير اصول الشيوعية . باعتبارها (حضارة) ومؤلفات ماركس وانجلز تخفي - فى الواقع - التكوين الحقيقي للظاهرة الشيوعية بفصلها ظاهراً عن دوره الحضارة المسيحية ... فنحن على هذا مضطرون إلى ان نعتبر الشيوعية (ازمة) للحضارة المسيحية .

هذا من الناحية التاريخية . ولنا ان نأخذ فى اعتبارنا الناحية النفسية (السيكولوجية) التي تهمنا اكثر .

فمن هذه الناحية تعتبر الشيوعية النظرية قبل كل شيء (فكرة) فكرة ماركس ، ولكن هناك شيوعية واقعية ، هي في جوهرها نشاط المؤمنين المدفوعين بنفس القوى الداخلية التي دفعت غيرهم من المؤمنين في مختلف العصور ، اولئك الذين شهدوا مولد الحضارات ، فالظاهرة متماثلة في جوهرها النفسي ، ومحددة هنا وهناك بنفس سلوك الفرد حيال مشاكل المجتمع الناشئ .

فنحن لا يمكننا ان نفكر في المثل الذي ضربه (استخانوف) للطبقة العاملة فى روسيا إبان تنفيذ المشروع الاول للسنوات الخمس حين رفع مستوى الانتاج اليومي إلى الضعف في مناجم الفحم ، دون ان نفكر في المثل الذي ضربه (سلمان الفارسي) الذي كان يقوم باضعاف العمل الذي كان يؤديه الصحابي الواحد في حفر الخندق حول المدينة فى غزوة الاحزاب ، او الذي ضربه « عمار بن ياسر » حين يحمل حجرين على كاهله في بناء مسجد المدينة ، حيث كان الفرد يحمل حجراً واحداً . ففى كلتا الحالتين نجد أن الايمان هو الذي مهد الطريق للحضارة (١) .

فالشيوعية على هذا ليست « حضارة » بالمعنى الصحيح حينما تبنت المادية في فلسفتها ، واللاخلاقية في سلوكها العام وانما هى من الوجهة التاريخية (ازمة) فى الحضارة المسيحية ولعل اهم اسباب تلك الازمة رهبانية القساوسة ، واخطاءهم التى صدرت منهم مع العلماء والمفكرين وسيرهم في ركاب الحكومات الزمنية انذاك وكانت الشيوعية هي ـ رد الفعل ـ الاعمى والحاقد لامثال هذه التصرفات واما من الناحية النفسية فان الشيوعين القدماء كانوا في سلوكهم خارجين على فكرتهم المادية الجامدة وتقمصوا روحاً ايمانية

(١) شروط النهضة ـ لمالك بن نبي .

بعيدة عن اهدافهم ومناقضة لجذور فلسفتهم .

ومن هنا تتجلى نظرية هذا ـ الكاتب الاسلامي ـ في ان الحضارة لا يمكن ان تكون بتجمع الآلات والوسائل ولا بتوفر المواد الاولية الخام فلربما كانت الحضارة فى نهاية انحدارها وهي تملك مثل هذه الوسائل ولربما كانت أمة تتوفر عندها المواد الاولية وليست لها ارادة مؤمنة تحرك هـذه المواد وتنتفع بها كما كانت جزيرة العرب قبل الاسلام .

كما لا يمكن ان تنبثق الحضارة من فلسفة ـ مادية ـ فتبقى هذه الفـكرة منحصرة في مجال الكلام الفارغ والجدل الفـكري والسياسي الاجوف لتستورد معالم سلوك المجتمع من مفاهيم روحية فى جوهرها ودينية في صميمها ولذلك فان الانسان ليأخذه الهزأ وتتملكه السخرية حينما يسمع مفاهيم امثال ـ مفهوم الخلود ـ والعمل فى سبيل المصلحة الاجتماعية ـ والتضحية في سبيل المبدأ من اشخاص لا يؤمنون بغير حسهم المادي وبغير الشيطان الذي يأمرهم بذلك العمل ولذلك فالمقوم الصحيح والشرارة الحضارية المضيئة لا يمكن ان تنبثق الا من روح دينية حينما يدرك الانسان ذاته الكاملة ويتعدى حدود المصلحة الوقتية وتراب الارض وعند ذلك يتمكن بمرور شرارة الروح الدينية على قواه النفسية وقواه الطبيعية التي حوله ان يسخرها في سبيل الهدف الكامل وان يصل بها إلى ارقى مرحلة حضارية يمكن ان

يبلغها الانسان فى هذه الارض .

وسواء ذهبنا إلى ما ذهب إليه الكاتب من المراحل الثلاثة للدورة الحضارية أم لم نذهب الى ذلك فان من ايجابيـة المجتمع والفرد ومن الروح الايمانية والعقيدة الصادقة في ضمير الفرد والمجتمع تتحقق اهدافنا ونقتطف ثمرات جهودنا ونبصر نتيجة اعمالنا وهو الواقع الموائم والمنسجم مع القانون العام الذي تقدمه الآية المباركة (. . . إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم . .)(١) وقوله تعالى (ذلك بان الله لم يك مغيراً نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بانفسهم . . .) (٢) وهذه هي النظرة الايجابية التي يقدمها الاسلام في اعطاء الصورة الصادقـة عن الانسان ودوره فى هذه الحياة فله ما كسبت يداه وله ما عزمت عليه نفسه واين هذه من تلك النظريات السلبية السابقة والتي يكون الانسان اول ضحية تقدم على مذبحها ومن ايجابية الفرد والمجتمع هذه تنقدح شرارة الحضارة وتنطلق اضواء النهضة الشاملة ولذلك فهو يحذر الانسان من ان يسمح لقوى الشر ان تعمل عملها وتشيع انحرافاتهـا في المجتمع الذي يعيش فيه لتكون الهاوية السحيقة التي تنزلق فى منحدرها حضارة المجتمع واهدافه التي يعمل من اجلها (واتقوا فتنة لاتصيبن

(١) الرعد ١١ .

(٢) الانفال ٥٣ .

الذين ظلموا منكم خاصة . . . (١)

عمل ايجابي من اجل اهداف المجتمع وحضارته ، ومحافظة يقظة ازاء قوى المنكر والشر والفساد من ان تنتشر في جسم الامة فتسلبها سعادتها واهدافها ومبادئها .

نظرية : الانتخاب الطبيعي أو : (شريعة الطبيعة)

ويمكن لنا ان نتعرف على بعض خطوطها العامة من الاطلاع على بعض النصوص التي تحاول تفسير هذه النظرية وتوضيح اهدافها ومراميها . يقول سبنسر واتباعه في « جوابهم على السؤال الآتي على أي اساس نشيد مبادىء الاخلاق ، وباي مقياس نزن الخير والشر : هو — اخضاع الاخلاق كاي شيء آخر ؟ ! لقوانين التطور وانتخاب الطبيعة ، وبعبارة اخرى يريدون : ان نلقي بزمام الانسان في يد الطبيعة نفسها تختار له من الاخلاق ما تشاء ثم يقول سبنسر مؤكداً على ذلك : لابد ان تخضع مباديء الاخلاق للانتخاب الطبيعي وتنازع البقاء ، وليبق من اخلاقنا ما يقف امام التجربة القاسية ، وليفن منها ما تذروه هذه الريح العاصفة . . .

ثم اخذ سبنسر يعلل هذا الحكم الذي اصدره بشيء من

---

(١) الانفال ٢٥ .

التعمق والتفلسف ؟ ! فقال : ان الطبيعة قد زودتنا بمقياس دقيق نميز به الطيب من الخبيث وهو مقياس اللذة والألم ، فاذا صادف سلوكنا من انفسنا ارتياحاً ورضى كان ذلك دليلا على ملاءمته للحياة الكاملة ، لان ذلك الاطمئنان الباطني علامة على ان الطبيعة قد اختارت ذلك السلوك ليكون سبيلا إلى حفظ الحياة ، فانت تستطيع إذن ان تفرق بين الخير والشر بما يبعثه العمل المعين من لذة او ألم لانهما دليل ساقته الطبيعة نفسها للتفريق بين هذا وذلك . . . » (١)

وقد اطلق على هذه المدرسة اسم « المدرسة العضوية في علم الاجتماع » ومن ابرز اقطاب هذه المدرسة (هربرث سبنسر) و ـ أوكست كومت ـ و ـ ليلنفيد ـ و ـ شافل ـ وفوللیه ورينيه وورمس ، وماكنزي واضرابهم (٢) .

وقد بلغت هذه الهلوسة ، وهذا التسليم التام ليد الطبيعة العمياء ذروتها عند بعضهم حيث قال ما يلي : في بيان (الانتخاب الطبيعي) والذي له اليد الطولى ـ على زعمهم ـ في احداث التطور حيث قال واستراح من كل عناء بعدما وهب كل الامكانيات البشرية إلى الطبيعة هبة سائغة ومستعجلة « . . . ولعل اصدق

---

(١) قصة الفلسفة الحديثة ص ٤٩٥ ، ٤٩٩ .

(٢) نمو الفكر الاجتماعي ص ٦٤ للدكتور حاتم الكعبي

ما يوصف به التاريخ انه تنازع على البقاء وبقاء الاصلح – اصلح الكائنات ، واصلح الجماعات ، واصلح الاخلاق ، واصلح اللغات واصلح الآفكار ، واصلح الفلسفات . . . الخ » .

هذه خلاصة نظريتهم هذه شريعة الطبيعة على ما يقولون ، او – شريعة الغاب – على الاصح . اساليب مختلفة في الفاظها وتراكيب جملها ولكنها تتفق على نقطة واحدة على السرقة – السرقة العظمى – لكل امكانيات الانسان ، ولفكره المميز ، ولاختياره ولارادته الوجدانية .

نظريات كلها تجمع وتتعاون على الايحاء له بأنه لا شيء امام قوانين يخترعونها ويسبغون عليها صفة الحتمية والقاهرية والشمول . وكلها تغريه بان يقدم زمامه وملكاته وقابلياته هدية طيعة بيدها إذا حاول ان يتردد قليلا من الزمن او اراد ان يتعرف على نتيجة حسابه ونهاية طريقه الذي يقدم عليه .

ولنتساءل الآن عما هو المقصود بالطبيعة او القانون الطبيعي الذي يجب ان تكون له الكلمة العليا والحكم النافذ في التشريعات الاجتماعية بمختلف مجالاتها .

هل هي القوانين والنزعات الفطرية الخيرة التي جبل الانسان عليها وامتزجت ذاته بها وبمعناها ؟

فالاسلام لم يقم بناءه الا على الفطرة ولم يجاهد إلا القوى

التي تريد ان تمسخ هذه الفطرة بالوثنية الفردية او الجاهلية الاجتماعية والتشريعات الظالمة . ونود ان نسير مع بعض الآيات لنرى ضياء فطرتنا ، ونتحسس واقعها ، ونستمع إلى نداءها الطيب « فاقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم . . . » الروم ٣٠ « . . . ملة ابيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين . . . » الحج ٧٨ ، وان الاسلام لينعى على اولئك الذين شوهوا فطرتهم وتنكروا لنداءها العطوف « وإذا المؤودة سئلت * باي ذنب قتلت » التكوير ٨ ، ٩ « ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطئاً كبيراً » الاسراء ٣١ « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله . . . » ١٨ يونس « ياأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما احل الله لكم . . . » ٨٧ المائدة .

ولكن هل يكتفى الاسلام بان تكون عقيدته وشريعته بنيت على الفطرة والاحاسيس الفطرية وهو الدين الذي بلغ – قمة الرشد الاجتماعي – ودعا الانسانية فى جميع امكنتها وازمنتها ان تسير باتجاهها وتيمم وجهها على هدى من اضواءها وانوارها لا لن يكتفي بذلك بل إنه اتى للفطرة !

اولا : – فاطلقها من القيود الجاهلية التي كبلتها ونفض عنها

غبار الاوهام التي تجمعت حولها وازال عنها دياجير الظلام التي غشيتها فاخذ يرشد الانسان إلى كامن فطرته هذه ويجليها له في مواقع عديدة ومناسبات كثيرة « ولئن سألتهم من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فانى يؤفكون » العنكبوت ٦١ « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فاحيا به الارض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل اكثرهم لا يعقلون » العنكبوت ٦٣ « وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ٠ ٠ ٠ » الروم ٣٣ « هو الذي يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا انهم احيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين * فلما انجاهم إذا هم يبغون في الارض بغير الحق ٠٠» يونس ٢٢ ، ٢٣ « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ، وما جعل ازواجكم اللاتي تظاهرون منهن امهاتكم وما جعل ادعياءكم ابناءكم ذلكم قولكم بافواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل» الاحزاب ٤ « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً » النساء ٩ « ام خلقوا من غير شيء ام هم الخالقون * ام خلقوا السموات والارض بل لا يوقنون » ٣٥ ، ٣٦ الطور

« وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم * قل يحييها الذي انشأها اول مرة وهو بكل خلق عليم » يسين ٧٨ ٧٩

وبهذه الآيات المباركة يزيل القرآن الكريم الحواجب والسحب عن نداء الفطرة ونورها ويجليها من الصدأ الذي تراكم عليها نتيجة الاوهام والانحراف والشرور . واتى للفطرة :

ثانياً : ـ ولنداءها من حب للمتاع والطيبات التي حولها فشرع لها من التشريعات التي تقوم بتلبية نداءها اولا وتسخرها فى نطاق المثل العليا وعمل الصالحات ثانياً وهذبها من الطرق المنحطة التي تعود عليها وعلى الانسان بابشع العواقب ثالثاً والتشريع الاسلامى باوامره ونواهيه وارشاداته واحكامه ومثله التي رسمها للانسان هو الجواب التفصيلي الذي يستوعب هذه المراحل ازاء الفطرة والنوازع الفطرية الاصيلة . ثم احكم الفطرة :

ثالثا . ـ باسس متينة لا يعتريها الضعف والوهن وعمل على ان تتفتح اكمامها وبراعمها وتتوسع افاقها ومجالاتها فارشد البصر ان ينطلق في ملكوت السماء والارض وارشد البصيرة إلى ان تتحسس ذاتها وما حواليها (١) .

(١) جاءتنى خاطرة مع تذكر قوله تعالى « سنريهم آياتنا فى الافاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق . . . » حيث ـ

وللقرآن الكريم جولة مع الفطرة وادوارها والعوامل التي طرأت عليها والمراحل التي مرت بها « كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعدما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم »(١)

ـ جعلت الافاق فى جانب ونفس الانسان في جانب آخر وهى ما ذكره بعض العلماء « إن فى جسم الانسان اكثر من (٢٠٠) عظم ولكل واحد شكل خاص ولولا ذلك الشكل لما استطاع الانسان على الحركة وفى جسم الانسان (٥٠٠) عضلة كل منها تتغذى بمئات الاوردة والعروق تديرها اعصاب كثيرة والقلب وهو بين العضلات ينبض فى السنة (٣٠) مليون مرة .

واما طبقات العين فهي الطبقة القرنية والعدسية ثم طبقة مائية زجاجية تنتهي فى الشبكة وان الطبقة الشبكية لا تزيد عن ثخن الورقة وهي تتألف من تسع طبقات ابعدها تتألف من ٣ ملايين اسطوانة و ٣ ملايين مخروط » التكامل فى الاسلام ص٢٧ ج ٣ احمد امين .

(١) راجع تفسير هذه الآية المباركة وما قدمت من مدلولات اجتماعية متعاقبة ـ الاضواء ـ السنة الاولى تحت عنوان (مفهوم تاريخي

ولنهج البلاغة ايضاً جولة مفصلة مع الفطرة ومراحلها فى حاضرها الاسلامي وعبر التاريخ البعيد يقول امامنا امير المؤمنين علي عليه السلام « ثم اسكن سبحانه آدم داراً ارغد فيها عيشه وآمن فيها محلته وحذره ابليس وعداوته فاغتره عدوه نفاسة عليه بدار المقام ومرافقة الابرار فباع اليقين بشكه والعزيمة بوهنه واستبدل بالجذل وجلا وبالاغترار ندماً ثم بسط الله سبحانه له فى توبته ولقاه كلمة رحمته ووعده المرد إلى جنته واهبطه إلى دار البلية وتناسل الذرية واصطفى سبحانه من ولده انبياء اخذ على الوحي ميثاقهم وعلى تبليغ الرسالة امانتهم لما بدل اكثر خلقه عهد الله إليهم فجهلوا حقه واتخذوا الانداد معه واجتالتهم الشياطين عن معرفته واقتطعتهم عن عبادته فبعث فيهم رسله وواتر إليهم انبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته ويذكروهم منسي نعمته ويحتجوا عليهم بالتبليغ ويثيروا لهم دفائن العقول ويروهم الآيات المقدرة .. رسل لا تقصر بهم قلة عددهم ولا كثرة المكذبين لهم . . . إلى ان بعث الله سبحانه محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لانجاز عدته وتمام نبوته مأخوذاً على النبيين ميثاقه مشهورة سماته كريماً ميلاده واهل الارض يؤمئذ ملل متفرقة واهواء منتشرة وطوائف

- للانسانية على ضوء الحديث عن الامام الصادق « ع » بقلم باحث اسلامى كبير .

الى ان يقول عليه السلام كتاب ربكم فيكم : مبيناً حلاله وحرامه ، وفرائضه وفضائله ، وناسخه ومنسوخه ، ورخصه وعزائمه ، وخاصه وعامه ، وعبره وامثاله إلى اخر هذه الخطبة المباركة .

ويمكن لنا ان نستفيد من هذه الفقرات الزاهرة المراحل الاتية

١ ـ استمرار ادم عليه السلام ومن بعده على الفطرة وكانوا بهذه الفطرة قد قاموا بعهد الله وامانته عندهم .

٢ ـ مرحلة الاختلاف والخروج على هذه الفطرة حيث جهلوا حقه واتخذوا الانداد معه فبعث الله فيهم رسله وواتر اليهم انبياءه ليطالبوهم بما تقتضيه فطرتهم ويذكروهم منسي نعمته ويثيروا لهم دفائن العقول ويروهم الآيات المقدرة .

٣ ـ تشعب الباطل واختلاف صوره وتعصب اهله فاصبح اهل الارض يومئذ مللا متفرقة واهواء منتشرة وطوائف متشتتة

٤ ـ بزوغ نور الاسلام ومبعث رسول الله محمد « ص » بالرسالة الاسلامية التي بلغت مرحلة ـ القمة ـ في الرشد الانساني رسالة ورسولا حيث ان تعقد الباطل وتشابك اهواءه وتعصب اهله المتوارث لابد له من رسالة تتمكن بمالها من قوة ومحتوى عظيم ان تتغلب على هذا الباطل وتهزم فلوله واتباعه .

ولابد للانسان ايضاً وقد تمكن ان يستوعب اهداف الرسالة

الاسلامية الخالدة ويتمثل معانيها ومضمونها من فيض يغمر هـذا الضمأ ومن ثروة روحية وتشريعية تسد الحاجة والفقر وتسلك به الطريق المستقيم في كل زمان ومكان فكانت الرسالة الاسلامية في شريعتها وكتابها الخالد الذي وصفه الامام عليه السلام في هـذه الخطبة فبلغ القمة فى الروعة والاجادة وكانت الرسالة الاسلاميةعلى يد رسولها العظيم(ص)لانجاز اللهعدتهوتمام نبوته مأخوذاً على النبيين ميثاقه مشهورة سماته كريماً ميلاده فهداهم به من الضلالة وانقذهم بمكانه من الجهالة .

واما إذا اريد « بالانتخاب الطبيعي » والطبيعة الشريعة هو تقديس رغبات الانسان إلى ابعد حد وترك العنان لميوله البدائية وغرائزه إن تنطلق في اي اتجاه شاءت واي طريق تريد ولابد للموانع ان ترفع امام هذه الغرائز والميول الطبيعية مهما اصطدمت في سيرها ومهما تقاتلت فيما بينها . وما علينا إلا ان نأخذ حصيلتها والمخاض الذي ينتج من هذا الصراع وهذا الاشتباك الذي يقع بين الغرائز فى ميدان المجتمع الكبير . فمهما كان الثمن الذي يدفعه المجتمع غالياً ومهما كانت الدماء والدموع التي تستنزف فان هذا الطريق هو سنة الطبيعة وهو شريعتها التى لا محيص عنها « وليبق من اخلاقنا ما يقف امام التجربة القاسية وليفن منها ما تذروه هذه الريح العاصفة»

وقد تطورت هذه النظرية إلى حد يفصح بوضوح عن

مرحلتها الاخيرة ويكشف عما تستبطنه من نتائج ومضمون على يد الفيلسوف « نيتشه » حيث يقول إذا كانت الحياة هي تنازع البقاء وبقاء الاصلح دون غيره كما يقول « دارون » فالقوة اذن هى الفضيلة السامية والضعف هو النقيصة والشر . الخير هو الذي يستطيع ان يحيا ويظفر اما الشر فهو ما يخور ويهوى . هذه هى النتيجة اللازمة لمبدأ تنازع البقاء ولكن اشياع – دارون – في انجلترا ورجال الفلسفة اليقينية فى فرنسا ودعاة المذهب الاشتراكي في المانيا جزعوا من هذه النتيجة المروعة فاحجموا عن انتزاعها واعلانها . . . . ثم اتى نيتشه فسلم بمقدمة التنازع في الحياة ولم يتردد في ان يولد منها نتائجها المحتومة في الاخلاق ! ؟

هذه هى النتيجة الحتمية لمثل هذه النظرية التى بداها سبنسر واخذ جذورها من دارون وظهرت بوضوح على يد هذا الفيلسوف

وإذا تأملنا جيداً وسرحنا بصرنا فى تاريخ اوربا الحديث نرى ان روح هذه النظرية وامثالها قد اثرت اثراً فعالا وصبغت الحياة الاوربية في حاضرها وماضيها القريب بايحاءاتها ومضمونها الذي يمجد القوة والصراع والنظرة المادية فى جمودها وتكالبها وانانيتها . وقد ارسلت جذورها في مجالات متنوعة ونظريات متعددة إلى فرويد فى الغريزة الجنسية وما يستتبعها من صراع بين الاب والابن في « عقدة اوديب » او صراع بين الام والبنت في

العقدة الاخرى إلى الرأسمالية في الاستغلال والاحتكار والاستيلاء بالقوة على ثروات الامم الضعيفة والنامية ، إلى نظرية ماركس في الصراع الطبقي واحتكار الطبقة او الحزب لجميع القوى المادية والمعنوية للشعب ، إلى النظرية الفوضوية في تحطيم المؤسسات الاجتماعية والتربوية بالعنف والقوة إلى السياسة الميكافيلية التي تتركز على فصل الاخلاق عن السياسة وسلوك سبيل المكر والخداع والبطش . حيث ان الفلسفة العامة التي يؤمنون بها في سلوكهم العملي هو التحسس برغباتهم كما يتحسس الحيوان بها وينطلق من اول كلمة واحساس والمثل الاعلى الذي يكافحون من اجله هو الغلبة والقوة والمنفعة المادية والسيطرة بما تحتوي عليه من محتوى كالح ومروع في كل المجالات .

ومن الواضح جداً ان الاسلام لا يؤمن بذلك كله ويستبعد ذلك كله عن طريقه واهدافه حيث انه لا يسمح للغرائز ان تنطلق وللعفوية ان تتحكم وللصدف ان تنفذ إرادتها ومشيئتها .

وإذا ذهب مثلا — ادم سميث — في قوانين العرض والطلب لتأييد مذهبه — في الاقتصاد الحر — وان الحرية الاقتصادية هي الكفيلة بحماية المواطنين وبالازدهار الاقتصادي المنشود وذلك بحسب ما تتحكم فيها من قوانين طبيعية تعمل بصورة عفوية على توازن السوق الحرة واقتصادياتها ، وإذا ذهب «ريكاردو» إلى القوانين

الحديدية التى تتحكم فى اجور العمال ومعائشهم وهى وحدها الكفيلة بحماية العمال وتهيئة مستوى لائق من المعيشة لهم اقول إذا ذهب هؤلاء من انصار المذهب الطبيعي والقوانين العفوية إلى هذه المذاهب فان الاسلام لا يؤمن بان الفوضى الاقتصادية هى الكفيلة بالنظام والعفوية الطبيعية هى المحققة للاهداف والتخطيط المتكامل ولذلك فاننا نرى النظرة الاسلامية فى هذا المجال تتخذ الوسائل الاتية .

اولا : ـ توفية العامل حقه من دون ان يوكل امره إلى تلك القوانين المزعومة يقول الامام علي « ع » (ثم اعرف لكل امرىء منهم ما ابلى ولا تضيفن بلاء امرىء إلى غيره ولا تقصرن به دون غاية بلائه ولا يدعونك شرف امرىء إلى ان تعظم من بلائه ما كان صغيراً ولا ضعة امرىء إلى ان تستصغر من بلائه ما كان عظيما) .

ثانياً : المنع من الاحتكار ومراقبة الاسواق بشكل عام (واعلم ـ مع ذلك ـ ان في كثير منهم ضيقاً فاحشاً وشحاً قبيحاً واحتكاراً للمنافع وتحكماً فى البياعات وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة فامنع من الاحتكار فان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منع منه) ويقول عليه السلام بعد ذلك (وليكن البيع سمحاً بموازين عدل واسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع . . .) .

ثالثاً : ـ الضمان الاجتماعي الفعال الذي يشمل الايدي العاملة وافراد المجتمع كافة (وتفقد امور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون وتحقره الرجال ففرغ لاولئك ثقتك من اهل الخشية والتواضع . . .) .

ولذلك فلن يرتضي وسيلة اولئك الذين تذرعوا بهذا المنطق وخالفوا المنهج الصحيح من التكافل والتعاون الاجتماعي ويستنكر عليهم منطقهم المفلوج (وإذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا انطعم من لو يشاء الله اطعمه إن انتم إلا فى ضلال مبين)(١)

هذا هو موقف الاسلام تجاه هذه النظريات والاراء وهو جزء من موقفه العام ازاء رغبات الانسان وميوله التي تنبع من داخل ذاته حيث ان هذه الذات التي تحتوي على حقيقة الخير والشر وحقيقه الروح والارض ، وحقيقة العقل والحيوانية ، ومثاراً لنزعات مختلفة من حب وكره ، وحب للعفو والانتقام والخضوع والغلبة لذلك فالاسلام يتخذ طرقاً متعددة ازاء هذه الميول المتشابكة والمعقدة.

ولابد ان يملكنا الفخر والاعتزاز حينما نتعرف على موقف الاسلام تجاه الغرائز والرغبات التي تظهر فى محيط الانسان وعالمه وان مررنا بذلك مروراً عابراً . وهل الاسلام إلا الامتداد الشامل لآفاق الانسان وابعاده وما يمكن ان تمتد إليه هذه الابعاد ويصل

---

(١) يسن ٤٧

إليه الانسان في سيره التكاملي الامثل .

ولذلك فالقبسة العاجلة والمرور السريع يكشف لنا عن حكمة التشريع وحنكة هذا الدين سواء فى المرحلة العلاجية او الوقائية وسواء في جانب ترويض النوازع البدائية وتهذيبها ام في جانب تزويد الملكات الخيرة والنزعات الانسانية الطيبة بالقوة والحيوية والغذاء النافع لتبلغ اقصى مداها ولتستثمر جميع طاقتها وذخيرتها

ولذلك فلا يمكن لنا ان نبلغ ببحث موجز او بتأمل عابر الطرق المتنوعة والمتشابكة التى اتى بها الاسلام ليلاحق الغرائز فى مكنوناتها وليصاحبها في مختلف آفاقها وتنوع طلباتها ونداءاتها .

ولكن هذه الملاحظة العابرة تدلك على (التشريع الحق) من اولى نظراتها وترشدك إلى - الدين القويم - الذي يبتغي الهدف الكامل بتعاليمه وطرقه وارشاداته فيتميز عن النظم التى تريد ان تتشبث بكل شيء وتسلك اي طريق كان في سبيل غرض موقت ومستعجل ولا يهمها العثرات التى يودي إليها والخسارة التى يستلزمها سلوكه والسير فيه .

فهو يمتاز عنها بأنه يؤمن بمختلف غرائز الانسان واحاسيسه المتنوعة والمتشعبة وسواء آمن بها ليهذبها ويزيل اضرارها ، او ليمهد لها الطريق الصالح والتربة الطيبةالتي تنمو فيهامثل هذه القابليات والملكات الخيرة ولذلك فانه ينعى على الفكر والنظريات التى

تؤمن (بالعامل الواحد) لكل النشاطات الانسانية ومظاهر سلوكه كنظرية (ماركس) فى الاقتصاد وفرويد في الغريزة الجنسية ونظرية (الغدد الصم) او ـ المناخ ـ او ـ الوراثة ـ وامثالها من الالفاظ التى تذكر فى هذا القاموس غير العلمي والواقعي .

ولذلك فلا يعترف الاسلام بواحد منها ليترك الغرائز الاخرى تعمل عملها في الخفاء او العلانية ، كما انه لا يعبر عنها بتعبيرات غامضة لا تسمن ولا تغنى من جوع . وهو لا يسلك إليها ايضاً بطريق واحد فى تهذيبها اواستثمارها والاستفادةمنها فهو يأتي إليها

اولا : ـ فيعترف بها ولا يدخل في جدل عقيم لانكارها ، او لاسنادها إلى عناوين مبهمة لا طائل تحتها فيعترف مثلا بحبه للاموال فيقول القرآن (وتحبون المال حباً جماً) او يقول (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث . . .) ١٤ آل عمران (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخيرلقضي إليهم اجلهم . . .) ١١ يونس (واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم . . .) الانفال ٧ (ولئن اذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور * ولئن اذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور) هود ٩ ، ١٠

وما اوفر نظائر هذه الآيات التي ترسل الاضواء إلى مختلف احاسيس الانسان ورغباته والمشاعر التي تظهر على لوحة خواطره وافكاره

ثانيا : ـ الاستجابة لها فى نطاق رفع ضغطها والحاحها فلا تكون مثاراً لهواجس واحاسيس وانحرافات متعددة ، ويعمل على تسخيرها للهدف الكامل والمثل العليا التي رسم الحياة على ضوءها ولذلك فلا يقتصر على حليتها ومشروعيتها ، بل يسبغ عليها صفة الهدف ورجحان الغاية ففي مجال الغريزة شرع الزواج وجعله من سنته ، وفى مجال الاقتصاد ، اوجب التكسب لقوته وقوة عياله وجعل التوسعة والترفيه عنهم من المستحبات التي يثاب عليها وفي مجال العاطفة والحب جعلها للخير وللمؤمنين ولله ا . . . والذين آمنوا أشد حباً لله . . .) (. . . رحماء بينهم . . .) (والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم) (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا . . .).

كما انه وجه الكره إلى الشيطان وبصره بنواياه ووساوسه التى يريد بها ان يزل الانسان عن طريقه الصحيح ليسلك به الطرق المدمرة (يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما اخرج ابويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين اولياء للذين

لا يؤمنون) - الاعراف ٢٧ - وكره له القوى التى يمثل الشيطان بكل شره وضلاله فاصبحت لا تنطق الا بلسان شيطان ، ولا تبصر الا بعيني شيطان (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله . . .) المجادلة ٢٢ كما حاول ان يستغل جميع الاحاسيس الخيرة والمشاعر الانسانية وعمل بالوسائل المختلفة على إثارتها وتحفيز نشاطها ومكنوناتها (١)

ثالثاً : - توسيع افق الانسان في تفكيره وازالة حواجز النظرة الضيقة عن بصره وبصيرته وله في ذلك وسائل متعددة .

فتارة ببيانه للمثل الاعلى الذي يقع في نهاية الخط وكشفه للعاقبة الحسنه والثمرة الطيبة التي تنتهي إليها بعض الاعمال الخيرة في مراحلها الاخيرة (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى

(١) القرآن الكريم يهذب النفس ، ويحفز الهمة والمشاعر الطيبة ، ويشد الاخلاق ويبلور الايمان ، ويصقل السلوك بالقصة التى يستخلص منها العبرة والعظة ، وبالحكمة التى تحيي القلب والبصيرة ، وتفتح منافذ التفكير ، ويسلك سبيل الاثارة العاطفية التى تشد التفكير والعقل ليتعاونا متعاضدين ومنسجمين في طريق الهدف ، وبالقدوة الصالحة ، والامثلة الطيبة التي تدعو الانسان إلى الاقتداء بها والتأسي بسلوكها . ولكن هذا المجال الواسع ليس هو مصب بحثنا الآن .

ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ٠ ٠ ٠) ٢١٦ البقرة وقد كشف القرآن عن النتيجة الرابحة هذه بصورة اوضح في مجال آخر (قل هل تتربصون بنا الا احدى الحسنيين ونحن نتربص بكم ان يصيبكم الله بعذاب من عنده او بأيدينا ٠ ٠ ٠) ٥٢ التوبة ٠ ولم ينتشر الاسلام ويتغلب على اعداءه فى داخل الجزيرة العربية وخارجها الا بهذه الروح العظيمة والنظرة الصائبة التي لا تستعجل الربح البسيط ولا اللذة العابرة .

وتارة بكشفه لكل الواقعين واقع الخير وواقع الشر وبيانه لكلا الطريقين وما ينتهيان له وما يصلان إليه فهو يرسم للانسان الخط البياني لكلا الطريقين الطريق الموقت والطريق الخالد الذي يحصل به على اهدافه الحقيقية في العاجل والآجل (قل إن كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ٠ ٠ ٠) التوبه ٢٤ (٠ ٠ ٠ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر اولوا الالباب) ٩ الزمر (٠ ٠ ٠ فاما الزبد فيذهب جفاءً واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض كذلك يضرب الله الامثال) الرعد ١٧ (اجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر

وجاهد فى سبيل الله لا يستون عند الله . . .) (١) التوبه ١٩
(افمن كان مؤمناً كمن فاسقاً لا يستوون) (٢) ١٨ السجدة .

رابعاً : ـ كشفه لبعض الاساليب التي تحاول ان تمنع الانسان من القيام بواجباته او باهداف رسالته او بيان حقيقة بعض النظرات المغلوطة إزاء بعض الظواهر الاجتماعية والفردية (. . . وطائفة

---

(١) روى الحاكم ابو القاسم الحسكاني باسناده عن ابن بريدة عن ابيه قال بينا شيبة والعباس يتفاخران إذ مر بهما علي ابن ابي طالب (ع) فقال بماذا تتفاخران فقال العباس لقد اوتيت من الفضل ما لم يؤت احد سقاية الحاج وقال شيبة عمارة المسجد الحرام فقال علي عليه السلام استحييت لكما لقد اوتيت على صغرى ما لم تؤتيا فقال وما اوتيت ياعلي فقال ضربت خراطيمكما بالسيف حتى آمنتما بالله ورسوله . . . فنزلت هذه الآية المباركة ـ مجمع البيان للطبرسي ـ .

(٢) قال ابن أبي ليلى نزل قوله افمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً الآيات فى علي ابن ابي طالب ورجل من قريش وقال غيره نزلت فى علي بن ابي طالب والوليد بن عقبة فالمؤمن علي والفاسق الوليد وذلك انه قال لعلي انا ابسط منك لساناً فقال علي عليه السلام ليس كما تقول يافاسق فنزلت هذه الآية المباركة ـ مجمع البيان للطبرسي ـ .

قد اهمتهم انفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في انفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم...) آل عمران ١٥٤ (فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فاكرمه ونعمه فيقول ربي اكرمن * واما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي اهانن) (١) . (واذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا انطعم من لو يشاء الله اطعمه إن انتم الا في ضلال مبين) (٢) .

خامساً : ـ تنوير الانسان بالعاقبة التي يؤول إليها امره إن اتبع هواه ونزعاته الشريرة (. . . ولا تبذر تبذيرا * ان المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا)٢٦،٢٧ الاسراء (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً) ٢٩ (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا) ٢٢ (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق...) (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤلا) (ولا تمش في الارض مرحاً إنك لن

---

(١) الفجر ، ١٥ ، ١٦

(٢) يسن ٤٧

تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طول * كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهـا) الاسراء ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٧ ، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من اولياء ثم لا تنصرون) هود ١١٣ .

وإذا لم تعمل هذه النصائح الساطعة ، وهذه التحذيرات التى تكشف عن المصير المحزن بظلامه وشروره وسيئاته فالتشريع الاسلامي لابد عنـد ذلك ان يقول كلمتـه ، ولابد ان يتدخل ليمنع نفوساً ابت إلا الاصرار على الجريمة ، وإلا العنـاد والشطط فى ارتكاب حرمات الله وحدوده والعبث بمقدرات المجتمع واهداف الرسالة . حيث ان من النفوس لا يزيدها التحذير الاإغراء والتذكرة إلا ضلالا ، والتعبير بالعاقبة السيئة الا مجازفة وارتكاباً حيث لم يزدهم الدعاء الا فراراً ، والتحذير الا استكباراً واصراراً كما حكى ذلك عنهم القرآن الكريم فى مواطن متعددة اما هؤلاء فان الاسلام لا يتركهم وشأنهم ليعيثوا في الارض فساداً ، وليهلكوا الحرث والنسل حيث ان هذا الدين لم يكن موعظة لينة رقيقة لا تصمد للشر ولا تنازله الميدان ، ولم يكن شريعة تترك الاهواء والشرور والمظالم تغشى مجتمعه من كل صوب ومكان فتسلبه سعادته وامنه ومبادئه فلذلك جعل لكل هذه حداً لا يمكن ان تتجاوزه لانها لابد ان تتحطم اذا اصطدمت بحدوده المنيعة وبوقايته المحصنة

(ولكم فى القصاص حياة ياأولي الالباب لعلكم تتقون) ١٧٩ البقرة (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تاخذكم بهما رافة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) النور ٢ (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فساداً ان يقتلوا او يصلبوا او تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف او ينفوا من الارض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الاخرة عذاب عظيم) المائدة٣٣ فالاسلام لابد وان يحافظ على مناعة مجتمعه ، ولابد ان يمنع عن حرماته كل معتد اثيم بكل ما يتمكن وبكل طاقاته التى يمتلكها حيث وفر السبل الوقائية والعلاجية دون هذا التلاعب العابث ولذلك لاينبعث تشريعه في مسألة الجريمة والعقاب والمحرمات بصورة عامة من عاطفة متساهلة لا تهتم بالنتائج إلا في حدود ضيقة ولم ينبعث ايضاً من ثورة غضب جامح لا يوفر السبل الوقائية منها ولا يلحظ الظروف الاستثنائية فيها فلذلك فقد ينص على هذا الاستثناء في نفس التشريع الذي يفصح عنه (. . . انه من قتل نفساً بغير نفس او فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعاً . . .) المائدة ٣٢ (ياايها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الادبار * ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال او متحيزاً إلى فئة . . .) ١٥ ، ١٦ الانفال (انما حرم عليكم

الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهـل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولاعاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم) البقرة ١٧٢ (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التى تبغي حتى تفيء إلى امر الله فان فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا إن الله يحب المقسطين) الحجرات ٩ وقد بينت هذه الاستثناءات المركزة والسبل الوقائية السديدة في محلها من امثال هذه البحوث .

ولذلك فهو يعتبر الحفاظ على تماسك المجتمع الاسلامي مسؤولية فردية واجتماعية (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) وهى امور برهنت عليها الايام واكدتها الحوادث ، فلوافح السموم والهجير لابد ان تمر على كل انف ووجه ، وحصاد الشر لابد ان يقع بايدي اولئك المنعزلين الذين لا يهمهم الا مصالحهم الذاتية ولذائذهم الموقتة قـد حملوا بين ضلوعهم انفساً خاويـة لا تليق بالانسان المسلم ولا تنسجم مع اهداف الشريعة الأسلامية التي يؤمن بها .

سادساً : ـ بيانه للفوائد العظيمة المترتبة على الأعمال الحسنة لتصرف الامكانيات والقوى التي يمتلكها في مجال الخير والتنمية الاجتماعية المثمرة (مثل الذين ينفقون اموالهم فى سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن

يشاء والله واسع عليم) البقرة ٢٦٢ (الم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء * تؤتى اكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون) ابراهيم ٢٤ ، ٢٥ (يايها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله باموالكم وانفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الانهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم) الصف ١٠ ، ١١ ، ١٢ (ومثل الذين ينفقون اموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من انفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فاتت اكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير) .

سابعاً : الحث على الاستقامة في الملكات النفسية والطاقات الغريزية والسلوك العملي في الحياة (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) الاحقاف ١٣ (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون) الحجرات ١٥

ولذلك فلن يرتضي الاسلام من المسلم ان يكون خائر العقيدة متذبذباً في السلوك ، قد ترك للوساوس والشهوات مجالا في فكره وقلبه وإنه ليضرب مثلا لعاقبة اولئك الذي لا يصمدون على العقيدة

ولا يستمسكون بنور الايمان (ومن الناس من يعبد الله على حرف فان اصابه خير اطمأن به وان اصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين) الحج ١١

وما تشريع (التوبة) في الاسلام الا لتحقق فيما يتحقق هذا الهدف العظيم من التزام جادة الحق والصواب وانا اعتقد جازماً ان التوبة سلاح قوي بيد المسلم امام الاعداء اذا ارادوا نشر الوسائل المنحرفة والشبهات التي تنفث سمومها في المجتمع المسلم لان التوبة هي المياه النقية الطاهرة التي يغتسل بها المسلم من الادران اذا علقت به ومن الخطايا إن هو اقترفها وهي الطريق الواسع للانسان الطيب اذا اراد ان يستمع إلى نداء ضميره ليلحق بالركب المستقيم والجماعة الصالحة في سلوكها واهدافها وقد بين القرآن الكريم المراحل التي ينفذ بالتوبة إليها ليستأنف نشاطه الانساني المثمر وليوقد ضياء عقيدته التي يحاول الاعداء اطفاءه واخماد سناه المتوهج « وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » طه ٨٢ وبهذه الاستقامة تمكن الاسلام ان ينقض على الكفر والظلام فيهزم فلوله وجموعه ، وبها تمكن المسلمون ان يشقوا قلب الزمن لعقيدتهم ومبدئهم الاسلامي فتتوارثه الاجيال جيلا بعد جيل ويحمل رسالته رجال عاهدوا الله على العمل لشريعته وحمل نوره الوهاج إلى اجيال مجتمعهم وطلائعه الفتية ليؤدوا الأمانة التي في اعناقهم.

القسم الثالث من هذا الكتاب

في المفهوم التفصيلي للتطور على ضوء الاسلام ومواضيع أخرى

تصويب

ص ٤٥ لا يصيبهم ضمأ . والصحيح لا يصيبهم ظمأ

والحمد لله اولا واخرا

تم القسم الثاني

بعون الله تعالى

تاريخ انتهاء الطبع ١٦/٥/١٩٦٥

الاسلام
والتطور الاجتماعي

القسم الثالث

دراسة موجزة في المفهوم التفصيلي للتطور
على ضوء الاسلام وهديه

مطبعة الآداب ـ النجف الأشرف ـ تلفون ٨٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم اخرجنا من ظلمات الوهم واكرمنا بنور الفهم وافتح علينا ابواب فضلك ويسر علينا خزائن علمك برحمتك يا ارحم الراحمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين .

بسم الله الرحمن الرحيم

نتكلم فى هذا القسم عن - مفهوم التطور - بالطريقة التي سرنا عليها فى القسمين السابقين وندخل هنا إلى صلب الموضوع وجوهره . وكلمة التطور وان كانت كلمة محببة إلى النفوس لا تكاد تطيق الاذن ان لا تسمعها ، والعين لا تراها ، والنفس لا تتطلع إليها . ولكن الباحث يجد صعوبة في طريقها من جهة ان المذاهب التي ادعت انها المنبع الوحيد الذي تفجرت منه هذه الكلمة وطاقاتها وانها المكتشف الاول الذي اكتشف هذا الامل الضائع - التطور - ووجده على صعيد الحياة لاتزال فى عنفوانها ولا تزال تملك الشيء الكثير من الوسائل التي تزيد طلائها طلاء وبريقها بريقاً وتلقي استاراً كثيفة على المحتوى الفارغ الذي تبنته ودعت إليه

ولذلك فالكشف لمفاهيمها الخاطئة وعرض محتواها الحقيقي في وضح النور وعلى مسرح الاضواء النيرة يحتاج إلى قوة نفسية من الباحث والقارىء معاً . قوة نفسية بها يتمكن من ان يتجرد من كل الدعايات الهائلة التي تثار حول فكرة - التطور - هذه لينظر بعده إلى العطاء الحقيقي الذي تقدمه هذه الفكرة او تلك فى جوهر فلسفتها ، وخطوطها العامة ، ونظراتها الاساسية .

على ان قوة محتوى – مفهوم التطور – فى ضوء الاسلام وشمول محتواه إلى الانسان في افاقه ، وإلى الحياة في محيطها الخارجي والالتحام الوثيق الذي يوحد ما بينهما يساعد كثيراً على النزول إلى الميدان بكل ثقة واطمئنان ، وتفحص مواقع الضعف والقوة ، والاصالة والسطحية في المذاهب التي تمر عليه ويخضعها لبحثه ودراسته .

ثم علينا ان لا نغفل ظاهرة بدت تباشيرها فى الافق وهي ان هذه الفكر والمبادىء التي حاولت ان تاتي بالفاظ براقة فجردت كلمة – التطور – عن المعنى الكبير الذي تنطوي عليه ونقلتها إلى مجال السطحية والفراغ قد ظهرت علائم انحسارها شيئاً فشيئاً عن المجتمع واخذ رصيدها يفقد كثيرا من مدخراته الدعائية والنفسية.

اقول : إن هذه الظاهرة تساعد على تهيئة جو طيب لبحثنا هذا وإلى محاولتنا هذه فى نقل مفهوم التطور بقوة وحزم إلى المعنى الانساني ذي المعالم الواضحة والذي يقدم ثمراته ونتائجه فى جميع المستويات وفي كل الابعاد الانسانية الرحيبة .

وعلى هذا فانا حينما نبحث عن التطور في نظر الاسلام لا نحاول ان نضع مقدمات مستعجلة ورتيبه لنستحصل نتائج وهمية لا يساعد عليها واقع الانسان ونظام الحياة التي حوله كما فعلت هذه النظم الحاضرة . وانما نحاول ان نصبر قليلا لنأخذ من

المفهوم الذي يقدمه الاسلام عن التطور في شموله وارتباطه الوثيق

فالتطور المادي بشكل عام او الاقتصادي بشكل خاص في دلالته الحقيقية وفي صعيده الانساني لا يمكن ان نفصله عن التطور الانساني في مجاله الروحي والاخلاقي .

بل إن التطور الاجتماعي في اي مجال من هذه المجالات لا يمكن ان نجد فيه دلالته البشرية الحقيقية وطابعه الانساني المشرق في نظر الاسلام إلا بالنظر إليه كجزء لا يتجزء من المفهوم الموحد الذي يستوعب كل هذه الابعاد والمقومات الانسانية التي تتألف منها

إن التطور والتضخم فى بعض هـذه الجوانب من دون تلاحم وتتساوق مع الجوانب الاخرى قد يؤدي عكس النتائج المطلوبة التي تهدف إليها الانسانية في سعيها وكدحها المتواصـل ولهذا فأننا نبحث عن - التطور - في معناه اللغوي ، او في مفهومه الفلسفي المجرد عن كونه هدفاً عملياً يحققه المجتمع للانتقال إلى الحالة الا رقى والافضل فلسنا فى صدد المفهوم اللغوي لهذه الكلمة ولسنا في طريق توضيح المعنى الفلسفي الذي يهدف الى التعبير عن الحياة الخارجية من دون تدخل الانسان كعنصر موجه ومن دون تدخل التشريع كسبيل قويم للتطور بل إننا نبحث عن التطور بما انه امل كبير يتمثله الانسان ويتبنى اهدافه ليحققه على صعيد حياة نفسه وذاته وحياة محيطه ومجتمعه . فنحن نبحث عن التطور على

هدى من – الضوء القرآني – الذي يعكس لنا التطور على انه تقدم وتدرج في مدارج الرقي الانساني في مراحله الساميـة ، والسير في الطريق الامثل الذي نصل به إلى غاياتنا المنشودة ونحقق به اهدافنا العزيزة (إن هذا القرآن يهدي للتي هى اقوم) .

ولذلك فلا نبحث عن – التط ر – بما انه تغير مجرد وتبدل اجوف لا يحتوي الاعلى الرغبة الطارئة في التغيير والتبديل ولا يملك الا المظهر السطحي لهذه الرغبه الجامحة . فالتغيير والتبديل دونما اهداف انسانية واضحة يؤثر تأثيراً سيئاً في الصالح العـام وفي كيان الافراد من جميع النواحي خلقية واقتصادية واجتماعية ، كما تجلت آثارها ورايناها بأعيننا حيث يؤثر على زعزعة الكيان الاجتماعي وفقدانه للقيم والمثل التي تنير له طريقه فى حاضره ومستقبله وتوصله بانسانيته برباط وثيق ، كما يسبب آثارا جسيمة في النواحي الاقتصادية وخصوصاً لذوي الدخل المحدود والقابليات المحدودة .

واذا فقدت الامة قيمها ومثلها الانسانية ، ودخيرتها المادية والاقتصادية لابد ان تتعرض للانحطاط والانهيار .

ولذلك فنحن نبحث عن التطور بما انه ذو محتوى ايجابى عميق يسعى الى الحصول على الاهداف الصالحة في شموخها وتساميها ونبذ الاهداف الطالحة في منحدراتها وانحطاطها (او لو جئتـكم باهدى مما وجدتم عليه آبائـكم) (يضع عنهم إصرهم والاغلال

التي كانت عليهم) .

ويتكون بحثنا هذا من ثلاثة مواضيع رئيسية . الأول ايجابية الانسان الاختيارية ودورها من عملية التطور ، نذكر فيه ماله صلة اساسية بهذا الجانب مما لم نذكره في القسم الثاني ثم نذكر خصائص التشريع الاسلامي لأنه السبيل الأقوم لعملية التطور والضوء الهادي لنا فى تجسيد هذا الامل الـكبير ، ثم نذكر محيط التطور ومادته فى النفس والآفاق الخارجية تتخلل ذلك مناقشات ضرورية تعترض سبيل البحث وتلاحم موضوعه والله هو الموفق والهادي الى سواء السبيل .

ايجابية الانسان الاختيارية
روح التطور

فاذا نظرنا الى عملية التطور على ضوء الاسلام وعلى هدي من تعاليمه فهي عمليه انسانية واعية ضمن اهداف محددة واضحة تنشد الطريق الأمثل والهدف الكبير الذى يغذي انسانية الانسان وينسجم مع متطلباته القويمة .

وهي عملية اختيارية تدعو الفرد والمجتمع الى اقتحام ميدانها واقتطاف ثمراتها (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون...)

ولذلك فهي ترفض القسر والاكراه الذي يلف الانسان بقوانينه الوهمية سواء كانت تلك القوانين المزعومة (قوانين مادية) كما فعلت الماركسية . او قوانين زمنية وحياتية اخرى كما فعلت المذاهب الوضعية الحاضرة .

بل إن الاسلام ليؤمن بالدور القيادي المركز الذى يقوم به الانسان (وان ليس للانسان الا ماسعي وان سعيه سوف يرى) .

وإنه ليشير إلى ان هذا المنطق المادي وهذه الحتمية الجبرية التي تلصق بالانسان ماهو الا منطق الكافرين الذين يحاولون دوماً تبرير اعمالهم واسباغ صفة المشروعية عليها (قل لو اراد الله ما اشركنا ولا آباؤنا) ولذلك فالتفكير الجبري الذى ينشأ في جو اسلامي ماهو الا نكسة وانحراف به عن مجراه الصحيح (١) .

---

(١) يقول الامام امير المؤمنين في جوابه لشخص شعر منه الاتجاه الى التفكير الجبري : لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب ، والوعد

لأن التفكير الاسلامي الصحيح هو الذي يؤمن بوجود قدر من الحرية للانسان يصح معها الاختيار والارادة وينتفي بها التفويض والاستقلال الكامل عن القوانين الكونية ومشيئة خالقه عز وجل ولذلك ورد عن اهل بيت العصمة في بيان الطريق اللاحب مايكشف عن النظرة الاسلامية في جوهرها وصفاءها (لاجبر ولا تفويض بل امر بين الأمرين) .

فالنهج الصحيح كما يأبى الانتكاسة الجبرية يرفض بوضوح مذهب التفويض والاتجاه القائل بابطال تأثيره تعالى فى الانسان وفى الحياة والكون عامة ولذلك فالقرآن الكريم يفند مقالة اليهود ويظهر زيفها وبطلانها (وقالوا يد الله مغلولة غلت ايديهم بل يداه مبسوطتان) (إن الله يمسك السماوات والأرض ان تزولا ولئن زالتا إن امسكهما من احد) .

ومن اوضح الآيات التي تدل على التأثير المستمر لله سبحانه وعلى الارادة الايجابية الاختيارية التي منحها للانسان قوله تعالى : (ذلك بان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم) (١) والتغيير

والوعيد ! والأمر والنهي ! ولم تأت لائمة من الله لمذنب ولا محمدة لمحسن ! ولم يكن المحسن اولى بالمدح من المسيء ! ولا المسيء اولى بالذم من المحسن .

(١) هناك ابحاث جاءت على طريقة اهل البيت (ع) تبحث هذه المسألة من وجوهها المتعددة وتعكس الاصالة الفكرية والاستيعاب الوافى

الذى منح للانسان هنا واقدر على مباشرته ومزاولته يشمل التغيير الذى يستتبع عملا ذا وجود خارجي واثر متشخص و ما كان عملا نفسياً خالصاً يستهدف ملكات الانسان وقابلياته النفسية .

ولذلك فان هذه الآية المباركة تعكس وتنقل لنا رأي الاسلام في سعته وشموله وفى واقعيته واصالته .

الفرد أو المجتمع

وحينما يتضح لنا رأي الاسلام في هذا المجال وان روح التطور تتركز بالايجابية الاختيارية للانسان مستهدية بخطى التشريع ومستلهمة اهدافه تبرز لنا مرحلة اخرى من هذا الموضوع وهي هل ان ايجابية الفرد هي اساس التطور والتقدم الصاعد او ان المجتمع هو الأساس فى ذلك وهو الذى يقود خطى الفرد ويبعث فيه الارادة والنشاط والروح القوية .

ذهب بعض الباحثين الاسلاميين الى الاول وان الفرد هو المحور في جميع مراحل تقدم المجتمع وتطوره يقول محمد قطب في كتابه التطور والثبات) .. فالمسألة الخلقية يبرز فيها الجانب الفردي .. يهتف للبشرية هاتف بالصعود : نبي مرسل او زعيم مصلح او قائد

فى هذا المجال مثل (الجبر والمختار للحجة السيد الفاني ، ومحاضرات الفلسفة للحجة المظفر .

فتتجه – في مجموعها – الى الصعود فترة من الوقت ويبقى حثالة من الناس في اسفل القاع مذمومين مدحورين . لأن الموجة صاعدة . ثم يتعب الناس من الصعود ، او من الاستقامة على القمة ! فيبدأون دورة الهبوط .. وهنا تنتفش الحثالة الموجودة في اسفل القاع ، وتحس ان (الضغط) عليها قد خف ، فتأخذ في النشاط ، ويكون نشاطها في مبدأ الأمر محدوداً ، ومنظوراً اليه باستنكار . وتتسلم هي القيادة ! وتبقى قلة من الناس مرتفعين ، ولكن تحت ضغط مرهق عنيف .. وتشتد الموجة في هبوطها حتى تطغى .. وتصطدم بقرارة الفساد في النفس البشرية حتى تمجها (الفطرة) .. حتى الفطرة المريضة .. فتبدأ تلفظها لأنها تجاوزت آخر مداها . وعندئذ تاخذ الموجة في الصعود مرة اخرى على يد نبي مرسل او زعيم مصلح او قائد .. وذلك تاريخ البشرية) وذهب بعض آخر الى ان المجتمع هو الاساس القوي للنهضة عندما تفجر ذخيرته الروحية رسالة دينية وعندما يدعوه النبي الرسول الى الايمان برسالته والسير على هديها (١) .

وسواء ذهبنا إلى الرأي الأول او الثاني او حاولنا ان نمزج بين تأثير الفرد في المجتمع وتأثير المجتمع في الأفراد فان علينا ان

---

(١) راجع القسم الثاني من كتابنا حول مانقلناه عن مالك بن نبي في كتابه (شروط النهضة) .

نلاحظ انه من الممكن ان نتبين تاثير المجتمع فى الفرد وتأثير الأفراد في المجتمع .

فالمجتمع يتمكن ان يوفر للفرد كثيراً من امكانياته التي يمتلكها ليستغلها فى مجال الرقي والرفعة . وفي مجال ترسيخ الخير والفضيلة ونشرها بين صفوف مجتمعه .

لأن المجتمع الذى يمتلك ذخيرة من الصفات الخلقية الطيبة ، وتتوفر فيه المناعة ضد الانحرافات الخلقية ومناشيء الرذيلة . يتمكن الفرد فيه من تخطى حدود مجتمعه بيسر وسهولة ليسخر ملكاته وقابلياته في حدود اكثر رقياً واوسع افقاً مما يمتلكه ذلك المجتمع فيكون عاملا قوياً في تطور مجتمعه نحو الأفضل ومنبعاً ثرياً يمون المجتمع بالأخلاق الفاضلة ، والحياة الطيبة الهانئة ، وبهذا يتحول اكثر افراد المجتمع الى عناصر خيرة توفر الجو الملائم والنواة الطيبة للامة الصالحة .

واما المجتمع الذى يفقد كثيراً من ذخيرة المثل العليا ، والمبادىء الانسانية الضرورية فانه يستهلك الكثير من القابليات الخيرة للانسان الفاضل ، ويضع العراقيل التي تؤدي الى صعوبة السير وتثاقل الخطى في طريق الهدف الأعلى الذى يسير باتجاهه ، ويتحول المجتمع الى خصم يملك كثيراً من السنة الهدم ، وامكانيات العرقلة التي تشل جهود الفرد ، وتحدد نشاطه ، وتستنزف قابلياته . وبهذا يتحول اكثر

افراد المجتمع ايضاً الى عناصر تساعد على سرعة الانهيار ، وحدة الانتكاسة ، وتفشي العلل والانحرافات (١) .

واما تأثير الفرد فى المجتمع فان المجتمع وان احتوى على الافراد الذين يفوقون حد الكثرة والاحصاء ، وعلى الأغلبية التي تجعل الفرد او الأفراد فى مرتبة الصفر من حيث الكمية والعدد ، إلا ان الفرد او الأفراد بما اودع الله فيهم من القابليات الفاضلة والمعاني الانسانية يتمكنون من ان يؤمنوا بمسؤوليتهم ويستفيدوا من قابلياتهم ليصبحوا مثلا واضحاً يتخطى ابعاد ذلك المجتمع ويفوق بروحه وانسانيته الكثرة الساحقة من ابناء ذلك المجتمع فيتحول ذلك الفرد الى قدوة صالحة تعيش فى ضمير ابناء مجتمعه ، والى جذوة موقدة تضيء بصرهم وبصيرتهم إذا ارادت الانحرافات ان تستولي على قلوبهم او تغريهم بالسير فى طرقها ومنعطفاتها المظلمة .

وقد يصل بعض اولئك الافراد الافذاذ الى مجال التضحية والعطاء السخي لمجتمعهم الذى يعيشون فيه حينما يرون الانتكاسة تريد ان تبلغ ذروتها وان تطبق على ماتبقى من المثل العليا والقيم

(١) ولذلك حينما يصل المجتمع الى القهر المادي او النفسي المطبق على الفرد او الافرادامرهم الاسلام بالهجرة منهوعدم البقاء فيه (ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي انفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض قالوا الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها ...)

الانسانية الخالدة (ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ...) (١) (لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا باموالهم وانفسهم واولئك لهم الخيرات واولئك هم المفلحون) (٢) لتقف الانتكاسة عند حدها وليكونوا فكرة نابضة تدعوهم الى الالتفات إلى طريقهم السوي ، والنجاة من المصير المظلم الذى ينتظرهم .

فالفرد الصالح هو القدوة الرائدة التي تتجاوز حدود المجتمع الفعلية ليسير المجتمع على هدي من خطواته فى طريق التطور النافع والتقدم الانساني الكبير . (... افمن يهدي الى الحق احق ان يتبع امن لايهدى الا ان يهدى فما لكم كيف تحكمون) (٣) (... واجعلنا للمتقين اماماً) (٤) .

والفرد الصالح هو الحارس الأمين ، والضمانة القوية التي تمنع المجتمع من الانهيار والتحلل ، ومن نسيان اهدافه والغفلة المميتة عنها (قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم اجمعين) (٥) .

---

(١) سورة الحشر آية ١٠

(٢) سورة التوبة آية ٨٨

(٣) يونس آية ٣٥

(٤) الفرقان آية ٧٤

(٥) في هذا المجال ابحاث مفيدة فى كتاب الامامة في التشريع الاسلامى للشيخ محمد مهدي الآصفى .

وقفة مع داروين في نظرية التطور

وحينما يصل بحثنا الى هذه النقطة لابد وان نصطدم بداروين فى (نظرية التطور) ونظريته هذه وان كانت ذات صبغة حياتية عضوية لاعلاقة لها ببحثنا الاجتماعي هذا . الا انه واتباعه حاولوا ان يستخلسوا منها نظرية اجتماعية توحي بأن التطور عملية جبرية لايتمكن الانسان من التدخل المباشر فيها بمحض اختياره وارادته وان هذه العملية الاجتماعية للتطور هي نتاج مادية الانسان وحيوانيته وان المغزى الحقيقي والهدف الواقعي لكل مظاهر عملية التطور هذه لاتختلف عن الاعمال التي تقوم بها الحيوانات الدنيا في سلم تطوره المزعوم .

وهي وان اختلفت معها فى الشكل والمظهر الا انها تتحد معها في الهدف والغاية .

ومن الغرائب التي تقع فى - تاريخ العلم - ان هذه النظرية بفعل ظروف شاذة قد وسعت ومدت ايحاءاتها الى شتى مناحي الحياة سواء منها الاقتصادية او الاجتماعية او النفسية او الأخلاقية ، او السياسية . حتى لقد قال بعض علماء الداروينية فى جوابه على سؤال هل العالم الحضاري كالعالم العضوي ؟ . . نعم تختلف العلوم

الاخلاقية عن الطبيعة في وسائل الدلالات ، ولكن المادة فيهما واحدة لأنهما يتركبان من قوى وحجوم واتجاهات ومن ثم يمكننا ان نقول ان النتيجة في كل طائفة منهما تتولد من منهج واحد .)

ويقرر – هيبوليت تين في مقدمة كتابه (اصول فرنسا المعاصرة) انه يريد ان يدرس تحول فرنسا من حيث هو نتيجة للثورة الفرنسية كما لو كان يدرس (تطور حشرة ! ؟) (١)

ولا نحاول الآن مناقشتها فى مجالها الحياتي والعضوي فليس هدفنا الآن ولكن نريد ان نقول ان هذه النتائج الاجتماعية التي استخلصت منها إنما هي نتائج مزورة قد الصقت بها الصاقاً مع العرض السريع لنفس النظرية الحياتية كما ذكرها بعض العلماء المحدثين ليحكم القارىء على قيمتها العلمية ومدى قوة نتائجها الحياتية والعضوية

وقبل ان نستعرض هذه (النظرية) فى خطوطها العامة ليستكشف القارىء واقعها ودرجتها العلمية ، ثم مدى ارتباط الايحاءات التي الصقت بها . نود ان نستعرض بعض النواحي التى لها علاقة بالقاء الاضواء على امثال هذه النظرية :

الناحية الاولى : وهي ان لنا الحق في مناقشة المفكرين الاوربيين فى الميدان النفسي والاجتماعي والاخلاقي مع تقدمهم العلمي والصناعي الكبير وقبل ان نبين وجه ذلك نود ان يوضحه باحث من امثالهم

(١) مدخل الى فلسفة الحضارة للدكتور كاسيرر – ص ٦٠

مثل (الكسيس كارليل) في كتابه (الانسان ذلك المجهول) حيث يقول : (ان تأخرنا فى العلوم الاجتماعية وتقدمنا في علوم الجماد هو احدى الكوارث التي اصيبت بها حضارتنا) (١) ومثل الفيلسوف (برتراند رسل) حيث يقول :.. كلا لو اراد الغرب ان يباهي بتفوقه فى شيء فهو في العلم ومناهجه وليس فى القيم الأخلاقية) (٢) .

فالذى يريد ان يناقش هذه النظرية لابد ان يمر باسماء مثل (لامارك) (وداروين) (وتوماس هكسلي) (وبونواد ميليه) وحتى الفيلسوف المعاصر (برتراند رسل) فالمفكرون الاوربيون لايزالون غير متقدمين فى مثل هذه النواحي الاجتماعية باعتراف هذا العالم الكبير ولعلنا عما قريب نمر بالفصل الذى يذكره (رسل) لتوضيح نظرية دارون فى بعض جوانبها لتتكشف لنا الضحالة فى اظهر صورها فى مثل هذه الجوانب الاجتماعية .

مضافاً : إلى ان بعدهم المكاني او الزماني عنا مما يلقي عليهم صورة مكبرة لمحتوى افكارهم التي يتبنونها .

ثالثاً : امكانياتهم الدعائية الهائلة ، وبقايا الروح التسلطية التي امتدت الى مجتمعنا والتي لاتزال آثارها وراوسبها تعمل عملها حتى اليوم في تبنينا لكثير من الآراء الاجتماعية ، وفي محاكاتنا لهم فى

---

(١) (التطور والثبات) لمحمد قطب .

(٢) دراسات فى النظم والمذاهب . لويس عوض ص ٢١٧ .

اكثر الافكار التي نذهب اليها .

فالروح التسلطية لها تأثير كبير على النظرة الموضوعية الى الآراء والأفكار وتحويلها الى نظرة ذاتية فيها الشيء الكثير من التقديس لذات الباحث دون النظر الى فكرته كنظرية او فرضية قابلة للصدق وللخطأ . ولنأخذ مثلا من ذلك نظرية (توماس هكسلي) في تفسير نشوء الحياة ومالها من ايحاءات وتسلطات على الباحثين الآخرين وقد اعترف بها هذا الباحث نفسه ! حيث انه كان : من اشهر القائلين بنظرية التطور واكثرهم ضجيجاً ومهاترة طبق هذه النظرية على الانسان قبل دارون فى كتابه – مكان الانسان في الطبيعة – سنة ١٣٦٣ م وهو واضع لفظ (بروتوبلاسما) ذلك ان بعضهم اعتقد انه اكتشف فى قاع البحر مادة هلامية هي حلقة الانتقال من عالم الجماد الى عالم الحياة ونظر فيها (هكسلي) فاعتقد انها بروتوبلاسما ودعاها بذلك الاسم ثم اتضح انها طين لا اكثر او راسب جرف مواد عضوية ! وقد اعترف بذلك في دعابة لطيفة اثناء مؤتمر علمي بشفيلد واعلن اسفه لان كان السبب فى تضليل كثيرين اعتمدوا على شهرته ، واستشهدوا به فى تأييد التولد الذاتي وهذا مثال على ما للنظريات من قوة وايحاء متى تسلطت على النفس) (١) .

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة : يوسف كرم ص ٣٦٤|٣٦٥

الناحية الثانية : الاجواء والظروف التي نشأت فيها نظرية دارون وامثالها . فقد كانت هناك نظريات قديمة تبناها القساوسة ورجال الكنيسة واعتبروها مقدسة لايعتريها الخطأ كما هو المعروف واخذوا يضطهدون المفكرين والباحثين الذين لايوافقونهم على نظرياتهم القديمة حتى تجاوز عدد الذين ماتوا قتلا حرقاً عشرات الالوف (١) فما ان جاء دارون بكلامه هذا حتى هلل له وصفق كثير من الباحثين في مختلف شعب الحياة واخذوا ينفخون في محتواها ، ويمدون في جذورها بكل امكانياتهم مع انها لاتزال فرضية يعوزها الكثير من الشواهد .

الناحية الثالثة : المسرح المتطاول والزمان المترامي الأبعاد الذي فرض انه مسرح للنظرية وانها تشمله في مراحلها ، فالزمان الذى خصص لنظرية التطور هذه يتجاوز حد النطاق العلمي ، والبحث المنهجي وذلك لأنه قدر بعض العلماء (ثلاثة آلاف مليون سنة) للمراحل التي زعموا ان الكائنات الدنيا البسيطة تتطور فى سلمها الى مرحلة

---

(١) راجع كتاب التكامل فى الاسلام الجزء الخامس لاحمد امين الكاظمي .

(٢) راجع كتاب مع نظرية التطور (للعلامة السيد محمد الموسوي النورى) .

الكائنات العليا والانسان (١) ومن المعلوم ان هذا العدد وان كانت كتابته بالاحرف او الارقام ليس فيها شيء من الصعوبة ولكنها بحسب الزمن والتاريخ لا يمكن تصورها فضلا عن دراسة وقائعها او الظروف التي حصلت فيها إن كان لها وجود حياتي في (علم الله) .

وذلك لان ثلاثة الاف مليون سنة يمكن ان نقسمها إلى ثلاثين قرن من ملايين السنين ، والقرن الواحد عبارة عن مائة مليون سنة ، والمليون عن الف الف سنة وهكذا . فاي اسلوب علمي هذا ، واية حقيقة موضوعية يمكن ان نطمئن بصحتها وجعلها اساساً وقاعدة لمختلف علوم الحياة ومختلف العلوم الطبيعية والاجتماعية . وعلى هذا فاطلاق اسم (الفرضية) عليها فضلا عن (النظرية) مستهجن في عرف البحث العلمي النزيه وذلك لأن الفرضية تطلق على بعض الافتراضات التي يمكن الآن او في زمن قريب اكتشاف صحتها او اكتشاف خطأها واما مثل هذه الكلمات التي توغل في مجاهل التاريخ إن كان هناك تاريخ لها لا يمكن وصفها بأية صفة من مراحل البحث العلمي (٢) .

---

(١) راجع كتاب مع نظرية داروين (للعلامة السيد محمد الموسوي النوري) .

(٢) للبحث العلمي مراحل ثلاثة : مرحلة الفرضية وهي الفكرة ـ

ولا باس هنا ان ننقل (للاستيناس والتفكهة) ما ذكره - برتراندرسل - حينما اراد ان يوضح راي (دارون) في مرحلته السابعة اي المرحلة التي انتقل فيها القرد إلى الانسان على زعمهم يقول رسل : (. . . وبديهي ان اكثر ما يقال عن تطور الجنس البشري تقريبي ومبني على الافتراض والتخمين ؟ !

ولكن هذا لا يمنعنا من ان نرجح ان هذا الانسان قد انحدر من سلالة القردة متسلقة الاشجار ، وكانت هذه القردة تعيش عيشة هنيئة في فردوسها القديم وسط الغابات الاستوائية . تأكل جوز الهند كلما جاعت ، ويضرب بعضها البعض الآخر به كلما شبعت . فهكذا كان مزاح القردة ؟ ! . . . وظل الحال على هذا المنوال بضعة ملايين من السنين ! ، قبل ظهور الانسان بالمعنى الذي نعرفه اليوم .

ثم حدث فى مجتمع القردة هذا شبيه بما يحدث اليوم في مجتمعاتنا الحديثة ، فقد نشأت بينها مشكلة كثافة السكان . . .

- التي تسبق البحث ليقام البحث على ضوء منها ، ومرحلة النظرية وهي الفكرة التي دعمت بكثير من الشواهد التي توجب حدساً قوياً بصحة هذه الفرضية ولكنها لا تزال قابلة لانكشاف الخطأ فيها وتشمل هذه اكثر نظريات العلوم الحديثة ، ومرحلة القانون وهى الدرجة القطعية للنظرية ككروية الارض مثلا .

وحل مجتمع القردة مشكلة السكان كما نحلها اليوم بطريقتين : الهجرة والحرب .

فالقردة التي كانت تعيش وسط الغابة ، ولا سبيل لها إلى الاتصال بالعالم الخارجي ، تعلمت حسن الرماية بجوز الهند الذي تتراشق به ليفني بعضها بعضاً . وادى تنازع البقاء إلى تخفيف ضغط السكان .

اما القردة التى تعيش على هامش الغابات فقد استطاعت ان تهاجر الى الحقول والسهول ، إلى ان يقول : بدات تستخدم ايديها كادوات تلتقط بها الاحجار وتتراشق بها بدلا من التقاط جوز الهند والتراشق به كما كانت تفعل فى القديم .

ثم تبين لها ان الاحجار اشد فتكا من جوز الهند ، فبدات تنظر لها نظرها إلى ادوات يمكن استخدامها ، واكتشفت ان الاحجار المسنونه خير من الاحجار المستديره ، كادوات للقطع والفتح . . . وتمامخ قردة السهول والحقول فى الذكاء . . . واستغرق هذا النمو نحو تسعة ملايين سنة قبل ظهور الانسان بالمعنى المعروف اليوم (١) .

هذه مقتضبات من توضيح (رسل) لراي دارون وهو

---

(١) دراسات فى النظم والمذاهب . الدكتور لويس عوض ص٢١٩ و ٢٢٠ .

يعترف بانه راي مبني على الافتراض والتخمين ! ! (وصاحب الدار ادرى بما فيها) ومع هذا الاعتراف فانه يحلق فى الخيال بما لا يصل اليه خيال القصة واحلامها وقد استفدنا منه بعض النتائج العظيمة حقاً ! ؟

١ - ازدياد عدد السكان عند القرود وكثافته وقد اختارت القردة حل المشكلة باحد طريقين بالهجرة او الحرب .

٢ - تراشقها بجوز الهند فى الحرب الاولى ليفني بعضها بعضاً .

٣ - استعمال قردة السهول والحقول لأيديها والتقاطها الاحجار المستديرة بدلا من جوز الهند في الحرب الثانية .

٤ - اكتشافها للاحجار المسنونة وتفضيلها لها على الاحجار المستديرة في القطع والفتح واستعمالها لها في الحرب الثالثة الفتاكة؟

٥ - نموخ قردة السهول والحقول وقد استغرق هذا النمو ليبلغ مرحلة الانسان (تسعة ملايين سنة) على ما هو المعروف من عباراتهم التقليديه (١) .

وقد اختلفت كلمات الباحثين الطبيعيين في اصل العالم ونشأته فبعضهم يرى تأصل هذه الانواع للمخلوقات بما فيها الانسان

---

(١) وقد قدرها بعضهم بخمس عشرة مليونا من السنين كما عن كتاب (الارض والتطور البشري) .

وان كل نوع قد وجدت نواته منذ بدء الخليقة ولكن طرء على الأنسان بعض التحسنات التي يقتضيها المحيط او الوراثة ، وبعضهم يرى أن الانسان وغيره من الحيوانات قد مر بعصور جليدية قاسية وقد خرج الانسان منها منتصراً لما يتمتع به من ذكاء وقوة عقلية ! وبعضهم يرى ان اصل العالم بما فيه الانسان قد تكون من بعض الغازات التي كانت موجودة فيه فى اول نشأته فيه وهكذا دواليك ، ثم يأتي انصار لامارك فيتفقون مع دارون واتباعه فى بعض النقاط ويختلفون معه اشد الاختلاف في النقاط الاخرى(١)

والاسلام لا يعارض تسلسل الاسباب الطبيعية ، او تدرج المخلوقات في مراحل متعددة من سلم الخليقة والنشأة التى ارادها الله لها ، ولكنه يعارض الافكار والفرضيات التى تحاول ان توغل فى مجاهل التاريخ دونما اسباب تعينها على ذلك ، ودونما شواهد قطعية ، او تبرر على الاقل ادعاءاتها وتفصيلاتها المختلفة التى يذكرونها لمثل هذه الادعاءات (٢) فالاسلام مثلا يذكر تدرج الانسان في سلم مراحل تطوره ومدارج نشأته سواء الخفية او

---

(١) مجلة العلوم سنة ١٩٦٥ ، و (مع دارون فى نظرية التطور) للعلامة النوري .

(٢) راجع محاضرات الفلسفة لآية الله المظفر - في بحث السببية الطبيعية - .

الظاهرة منها بادق تفصيل ، واروع ريشة تصور هـذا الابداع العجيب (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين * ثم جعلنـاه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغـة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم انشأناه خلقاً آخر فتبارك الله احسن الخالقين) (١) .

او يذكر المراحل الظاهرة من الانسان ليستخلص الحكمة والعبرة مع تطور بعض الظواهر الحيـاتية الاخرى (. . . ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا اشدكم ومنـكم من يتوفى ومنـكم من يرد إلى ارذل العمر لـكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الارض هامدة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج)(٢)

او يبين وصف تسلسل بعض الظواهر الـكونيـة الاخرى وتعاقب ادوار وجودها (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحـاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فاذا اصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون) (٣)

بل إن القرآن الـكريم ليذكر لك إبتداء خليقة هذا الكون باجمعه ليروي لك تلك المشاهد المتتالية التي تسلسل فيها المشاهد والخليقه

---

(١) المؤمنون آية ١٢ ، ١٤ .

(٢) الحج آية ٥ .

(٣) الروم آية ٤٨ .

ويتبع بعضها البعض الآخر (قل إنكم لتفكرون بالذي خلق الارض في يومين وتجعلون له انـداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيهـا رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها في اربعة ايام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لهـا وللارض إئتيا طوعاً او كرهاً قالتا اتينا طائعين * فقضاهن سبع سماوات في يومين واوحى في كل سماء امرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم) (١) .

ثم يذكر الاسلام تنوع المخلوقات الحية . واختلافهـا في القابلية والخلقة لتكون المظهر الفسيح لمظاهر حكمته تعالى وقدرته التي شملتا كل شيء (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على اربـع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير) (٢) (ومـا من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم امثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون) (٣) .

فالفكر الاسلامي إذن لا يتعارض مع تسلسل الاسباب الطبيعة وتعاقبها ، كما انه لا يعارض تنوع الانواع واختلاف قابلياتها بل

(١) فصلت ٩ الى ١٢ .

(٢) النور ٤٥ .

(٣) الانعام آية ٣٨ .

إنه يقومها ويعطيها دلالتها الحقيقية في سياق الاحداث . الا انه يعارض الفرضيات الوهمية المتضاربة ، والافكار التي لا تساعدها وسائل العلم المتقنة ، والامكانيات المتوفرة لدى الباحثين .

وهو يعارض ايضاً في نفس الوقت المغزى الاجتماعي والتفسير الذي استخلص من فرضياتهم هذه (١) فاذا فرض ان المخلوقات تطورت كما ارتأى دارون وقاده هواه فان الانسان اذا كان في ارقى سلم المخلوقات فلماذا لا يكون له سلوك خاص يفترق عن سلوك الحشرات والديدان البسيطة التي توجد في اسفل قائمة هذا التطور .

فاذا راى الاسلام مثلا ان الانسان خلق من طين وتراب وانه يحتوي على غرائز حيوانية كثيرة فهل تنكر لمطلب الروح وسمو مقامها وعلو اهدافها (واذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون * فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) (٢) بل حتى اولئك الذين سايروا الاتجاه الداروينى من علماء النفس والحياة العضوية والاجتماع انتزعت منهم الحقيقة الانسانية الكبيرة الاعترافات الكثيرة في انماط

---

(١) لعل هذا الاستخلاص السريع للمفهوم الاجتماعي من فرضياتهم ونظرياتهم هذه يشير إلى الرغبة الشديدة لتبرير اتجاهاتهم المادية وفلسفتهم اللاخلاقية الحديثة .

(٢) الحجر ٢٨ ، ٢٩ .

السلوك الانسانية المتأصله والذي يفترق بها الانسان جوهرياً عن الحيوان وعادات سلوكه يقول ارنست كاسيرر في كتابه (فلسفة الحضارة الانسانية) : من الواضح ان هذا العالم لا يشذ على تلك القواعد البيولوجية التي تحكم حياة كل الكائنات العضوية الاخرى ، الا اننا فى العالم الانساني نجد مميزاً جديداً يبدو انه علامة تفرق الحياة الانسانية عما عداها فالدائرة الوظيفية لدى الانسان لم تكبر كما فحسب وانما تعرضت ايضاً لتغيير نوعي ، فقد استكشف الانسان منهجاً جديداً يمكنه من ان يكيف نفسه حسب مقتضيات بيئته ، وبين الجهاز المستقبل والجهاز المؤثر - وهما اللذان يوجدان في كل الانواع الحيوانية - نجد لدى الانسان حلقة ثالثة هي التي يمكن ان نسميها (الجهاز الرمزي) وهذه الاداة الجديدة التى يملكها الانسان وحده تحول الحياة الانسانية كلها ! فاذا قارنت الانسان بالحيوانات الاخرى وجدته لا يعيش فحسب فى حقيقة اوسع ! وانما يعيش ايضاً ، ان صح القول ، فى بعد « جديد » من ابعاد الحقيقة . وهناك اختلاف لا يخطئه المتأمل بين ردود الفعل العضوية والارجاع الانسانية ، ففي رد الفعل يجيء الجواب على المحرك الخارجي مباشراً سريعاً ، اما في حال الرجع فان الجواب يتأخر لأن عملية فكرية بطيئة معقدة تؤخره وتعوقه ! ؟

فللانسان إذن ميزة اساسية يجدها الباحث في العلوم الانسانية(١) المختلفة فى مظاهرها المتنوعة وله قوة عقلية وروحية وطاقة من الذكاء يختلف فيها الانسان عن الحيوان كماً وكيفاً فهو لا يعيش فى حقيقة اوسع من حقيقة الحيوان وانما يعيش ايضاً في بعد (جديد) من ابعاد الحقيقة ! كما يقول هذا الباحث (٢) ولذلك يرى الاسلام ان الانسان إذ عطل هذه الطاقة العظيمة وخالف نداءها على وفق مستوى رغباته الحيوانية فانه يكون اقل درجة منها واكثر خسارة وضلالا (ولقد ذرانا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم اذان لا يسمعون بها اولئك كالانعام بل هم اضل اولئك هم الغافلون) (٣) بل إن حرية الارادة التى وهبت للانسان وقابلية الاختيار التي عطلها او صرفها فى السبل المنحرفة قد جعلته يهبط عن مستواه الكريم إلى مستوى الحجارة الجامدة ، والصخرة التى تفقد معاني الحياة الكريمة ، وإنه ايضاً اسوا حالا منها لان بعضها لا يزال يهب الخير الكثير في طريق الحياة او يمون روافدها

(١) فلسفة الحضارة الانسانية او (مقال فى الانسانيه) ص٦٦ ٦٧

(٢) ونحن نقول انه بعد اصيل وفطري يظهر وينمو كلما توفرت له الامكانيات المساعدة على نموه وظهوره .

(٣) الاعراف آية ١٧٩ .

بمنبع الحياة الفياض (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة او اشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون) (١) هذا هو المنطق الصحيح الذي يتمشى مع واقع الانسان وينسجم مع حقيقة دوره فى هذه الحياة وقد بين بوضوح الطريق النافع الذي يمكن ان يسلكه فيرتقي به فى مدارج الرقي الانساني والحضارة الانسانية الرفيعة فيصبح عضواً ينشر الخير ويغذي الفضيلة لنفسه ولابناء مجتمعه فهو بذلك قد حاز على عظيم المنزلة ورفعة المكانة لانه قدقام بدور الخلافة في الارض وشكر الكرامة التي اضفاها الله عليه بمحض إختياره وصرف إرادته ، كما انه قد بين الطريق المنحرف وما يحتوي عليه من الدركات المهلكة التي تهبط به حتى عن المستوى الحيواني لأنه قد ترك الخير وطريقه وقد تمكن من ان يسلكه واطاع هواه المدمر ونزواته الطائشة فهو اقل مستوى من الحيوان وحتى من الجماد ولانه ترك طاقاته العظيمة وعطلها او لأنه استغلها في سرعة الانحدار والاقتراب من العاقبة السيئة التى اورثها لنفسه ولاتباعه

---

(١) سورة البقرة آية ٧٤ .

مع النظرية الماركسية

والنظرية الماركسية من الممكن ان نعبر عنها بأنها امتداد لايحاءات دارون وتفسيراته التى قدمها عن الحياة الاجتماعية مدعياً انها مستخلصة من الحياة العضوية للمخلوقات الحية وقد عرفت حقيقتها ومدى درجتها العلمية في البحث السابق .

فالماركسية على هذا هي توسيع وتمديد للنظرية السابقةولكنها تختص بخصوص الجانب الاقتصادي ولذلك فهي كاصلها وسابقتها انكرت الايجابية الاختيارية للانسان فى عملية التطور وادعت ان التطور في المجتمع يتم عن طريق قوانين مادية وعن طريق التناقضات الداخلية للمادة بما فيها الانسان ، فالانسان على راي هذه النظرية جزء ووجهة من وجهات هذه القوانين ووجه يفصح عن الشكل الذي تتم به عملية التطور المادية الحتمية وقد تقدم في (القسم الثاني) بعض التفصيل فى بيان اوجه الضعف والآثار السيئة التي تضعها على يدي الانسان وعلى قابلياته الكبيرة ، كما اننا لا نريد ان نناقش (نظرية المادية التاريخية) بوجه عام فهناك بحوث تفردت لمناقشاتها والبحث عنها فى إسسها وتفصيلاتها (١)

(١) مثل اقتصادنا الكتاب الاول حيث يعرض للنظرية من –

ولكننا نريد ان نشير إلى بعض الظواهر الآتيه :

١ - انها لا تعترف بالاختيار الايجابي للانسان ووفرة قابلياته وتمكنه من تمثل الاهداف الصالحة وتحقيقها على صعيد الحياة وانما تعتبر ذلك امراً حتمياً يخضع له الانسان شاء ام ابى ولابد ان يمر بالادوار المزعومة التي رسمتها له من الاقطاع والراسمالية ودكتاتورية البروليتاريا وامثالها فلابد ان يكتوي باخطاء هذه المراحل وعذابها ليصل إلى الفردوس المفقود فى المرحلة الاخيرة من تطور المادة وقوانينها . اما ان الانسان بواسطة التشريع القويم وبواسطة ارادته وايجابيته الاختيارية يعمل على تحقيق هدفه فى الحياة من دون ان ينصهر بهذه الادوار اللاهبة فان الماركسية ونظريتها لا تجعل ذلك في مقدور الانسان الاسير .

٢ - ضيقت الهدف الانساني وابرزت جزء ناقصاً مبتوراً حيث جعلت الهدف الاول والاخير له هو الجانب الاقتصادي ولا شيء غير هذا فى الحياة الانسانية ولا نريد ان نبرز ضحالة نظرتهم هذه ولكننا نريد ان نوضح انهم قبل كل احد كذبوا محتوى نظريتهم هذه واوجبوا إنفصال النظرية عن التطبيق وانها ليست

- حيث الاسس الفلسفية ، ومن حيث انها نظرية عامة ، ومن حيث فروعها وتفصيلاتها وهو بحث رائع يمتاز بالتفكير الاسلامي العميق بقلم الحجة المحقق السيد محمد باقر الصدر .

مستخلصة من قوانين حياتية واقعية كما يدعون حيث انهم استعاروا من الاديان مفاهيمها في التضحية والخلود بعد ان اضطروا إليها ليجدوا لهم اعواناً في سبيل تحقيقها كما ان فكرتهم هذه قد كذبت نفسها قبل كل شيء وكانت الفكرة هي التي طورت روسيا وغيرها في جانب الانتاج المادي والحربي وكانت المادة هي وليدة الفكرة وليست الفكرة وليدة الماده إذ لم يبلغ المجتمع الروسي آنذاك المرحلة التي يشترطونها لانتعاش ماركسيتهم تلك وهو مظهر من مظاهر بعد نظريتهم عن التجربة والتطبيق ايضاً وانفصالها عنها ولذلك فالاسلام يرى ان الاصلاح المادي لابد ان يسير جنباً إلى جنب مع الاصلاح الاجتماعي ليكون ترجمة صادقة ومظهراً حقيقياً للاصلاح الانساني الذي يبتغيه الانسان ويراه مطلباً ضرورياً لتحقيق معالم انسانيته وكمال تطورها ونموها كما سيأتي ذلك في البحث المقبل انشاء الله ولذلك فان التطور المادي قد يصاحب ويواكب التأخر والضمور في الجانب الانساني بشقيه النفسي والاخلاقي لتكون الحضارة المادية وسيلة ثقيلة تربض على الانسانية وتجر لها العذاب (فهذا التقدم كله . . ماذا صنع في نفسية القرآن العشرين ؟ ولا نتحدث بعد عن الاخلاق .

هذه الضحالة المزرية بكرامة الانسان ! التي لا تطيق التعمق في المعرفة ولا التعمق في المشاعر والافكار . وانما تريد ان تأخذ الامور كلها من سطوحها . قفزاً . كالطائر المجنون . هذه

التفاهة الجزئية في الحكم على الامور التي لا تطيق النظرة الشاملة ولا تصبر عليها . . . هذه الآلية الهابطة ، التي تحيل المشاعر والافكار والاعمال نشاطاً آلياً كنشاط الآلة . . . اقرب إلى مشاعر البهيمة ، واحياناً احط من مشاعر البهيمة المحكومة بفطرتها المضبوطة المستقيمة . هذه المادية المغلقة التي تغلق جوانب الروح وتطمس على رفرفاتها ، وتجثم على الارض لا تريد الانطلاق ولا تقدر عليه . هذه الواقعية ! المريضة التى تعيش في حدود اللحظة وتأبى ان (تتخيل) لتتصور (الكمال) وتسعى إلى تحقيقه ... تلك هي حصيلة (التقدم) النفسي في القرن العشرين ! ولا نتحدث بعد عن الاخلاق (١) .

فالتطور الانساني هو هدف الاسلام بما فيه الجانب الاقتصادي ولذلك فان الفقر وسوء التوزيع مشكلة انسانية قبل ان تكون مشكلة اقتصادية مادية من الممكن ان تمتد آثارها إلى مختلف شعب الحياة الانسانية (٢) ولذلك فليس من الغريب إذن تأكيد الاسلام على اداء الفرائض المالية وحرمة الكنز فى منهجه الاقتصادي العادل (. . . والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم * يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها

(١) التطور والثبات فى حياة البشرية ص ١٣٠ لمحمد قطب .

(٢) راجع مشكلة الفقر للشيخ عبد الهادي الفضلي .

جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ماكنتم تكنزون) (١) .

٣ - تطور مفاهيمها في مجال التطبيق فصار مفهوم (الطبقة العاملة) يعني مفهوب (الحزب الواحد) ومفهوم (دكتاتورية البروليتاريا) يعني (رئاسة الحزب) ولو كان فرداً او افراداً قلائل ومفهوم (جماهير العمال والفلاحين) الاعضاء المنتمين لذلك الحزب ولو كانوا من الطبقة البرجوازية باعتبارهم المنافحين عن حقوق العمال وحقوق (انفسهم) بالطبع ولهذا فان العامل او الفلاح الذي لا يؤمن بافكارهم فانه (برجوازي)لابد ان ياخذ حقه وعقوبته من (الطبقة العاملة) اي المتسلطين على ذلك الحزب وهكذا فقد توصلت مفاهيمهم إلى اسلوب عادي من اساليب الاستيلاء على السلطة والحكم فى البلاد .

٤ - تجعل الماركسية حداً معيناً تصل اليه القوانين المادية فى عملية تطورها وتناقضاتها الداخلية الا وهى (الشيوعية) وقد اختلفوا في المرحلة التي تلي هذه المرحلة فبعضهم انكر تبدل مرحلة الشيوعية هذه إلى مرحلة اخرى لان القوانين المادية تقف عند حدها والتناقضات التي تتزاحم وتصارع في داخلها تصل إلى سلام دائم ووئام ابدي ليس معه اي تناقض او اختلاف وبعضهم

---

(١) التوبة آية ٣٤، ٣٥ .

الآخر يرى ان الادوار السابقة من الاقطاع والراسمالية وامثالها تعود من جديد باعتبار ان حركة المادة وقوانينها لا يمكن ان تقف في نقطة معينة ولذلك فهي في عملية (انقلاب) إلى الضد بدوام واستمرار وتكون النظرية الماركسية مصداقاً ووجهاً لنظرية (المودة) التي تكلمنا عنها في القسم الثاني من كتابنا وعلى كل من الرأيين فان الانسانية يتحدد تطورها ونشاطها بدرجة معينة وهي (الشيوعية) ولابد ان تصطدم بهذه المرحلة لتقف حركتها ونشاطها عندها او انها تنقلب إلى الضد فترجع من جديد إلى عملية تنازل وهبوط ولكن التطور في نظر الاسلام لا يقف عند حد سواء في المجال الروحي للانسان او المجال الخارجي للفرد والمجتمع وذلك لان الانسانية حينما يقف نشاطها وتسكن حركاتها فلا بد ان يقضى عليها (بالموت) او الانحطاط والتراجع والانهيار (يا ايها الانسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه) (١) وصحيح ان الاسلام هو القمة للهدف الانساني الكبير سواء في المجال الاخلاقي او المادي او الروحي وسائر الجوانب الاخرى الا انه خطط للانسانية هدفاً اعلى وامر المجتمع الأسلامي الذي آمن بالاسلام وطبق تعاليمه ان يتسابق في هذا الميدان الفسيح وان يحوز اكبر

(١) الانشقاق آية ٦ . يذكر اللغويون في معنى الكدح : انه العمل بكلفة وجهد .

قدر ممكن من مضمون ذلك الهدف العظيم (فمن استوى يوماه فهو مغبون) على ما في الاخبار الواردة عن اهل البيت عليهم السلام (واحب لغيرك ما تحب لنفسك (إن الله يأمر بالعدل والاحسان ...) (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما اتاكم . . .) (١) (. . . ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون) (٢) ان اليوم الذي نقول به للبشرية ان دورها قد انتهى وانقضى ولابد ان تتخلى عن التدرج فى مدارج هدفها الاعلى وقمتها التي تسعى إليها هو يوم تقهقرها ونكوصها إلى النقطة التي ابتدات منها وان التشريع او الفكرة التي توحي إلى ان الناس انهم قد حازوا على كل شيء وحصلوا على آخر درجة من الهدف فلابد ان تكف عن السعي والكدح المتواصل فهي فكرة خيالية متفائلة بل هى عدوة للانسانية وعدوة لتقدمها وسيرها الحثيث نحو الهدف الكبير .

فالانسان فى صراع متواصل مع الغرائز البسيطة في مختلف اشكالها وانواعها ولعله هو المقصود (بالجهاد الاكبر) (كما فى الحديث الشريف) المروي عن النبي (ص) لأنه جهاد لا يفتر اواره ولا يقفل ميدانه له جبهات متعدده وميادين واسعة اتساع

---

(١) الحشر آية ٩ .

(٢) الحديد آية ٢٣ .

الحياة ، وتنوع الغرائز ومطالب النفس فى إلحاحها وكثرة امانيها (إن النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربي) (واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى) فالانسان في كفاحه الطويل وفى درب حياته الشاق يواجه كثيراً من الطرق المنحرفة ومن المنحدرات التى تريد منه ان يهوي إلى دركها السحيق فهناك خطر التحلل والأنسياق مع الشهوات الدنيئة ، وهناك خطر الجموح والطغيان والسير في طريق الظلم والتعسف الأجتماعي وهناك خطر تبديد الطاقات الأنسانية النشاط الفكري في العادات السخيفة والتقاليد الجامدة التي تثقل كاهل البشرية وتستوعب جهودها وامكانياتها التي تمتلكها ولذلك فالاسلام حاول فى محاولته الشاملة ان ينبه الأنسان إلى هذه الأخطار فيفتح له الطريق الناجح للصراع معها وازالة اخطارها والجانب الضار منها ليتعدى المراحل المهلكة منها ويستفيد من منافعها وخيراتها التي يمكن للانسان ان يستحصلها من الغرائز التي زود بها واصبحت تكون جانباً مهماً من جوانب بشريته وانسانيته كما سيأتي ذلك باسهاب فى بحثنا اللاحق انشاء الله .

التشريع الإسلامي
سبيل التطور

محمد الوحيد
عبد الله

إتضح مما سبق ان تطوير الأنسان نفسه ومجتمعه ومحيطه عملية اختيارية واعية وليس عملا جبرياً مادياً ، او عملا غريزياً قهرياً . بل هو عمل ذو دلالة انسانية واضحة تتبع طاقته ودرجته ما يبذله الأنسان فى الكم والكيف للوصول إلى الهدف الذي يسعى اليه ، او للحصول على نصيب من ذلك الهدف . ولذلك فهو يختلف عن التطور المادي الماركسي الذي يكون فيه العمل الانساني نتيجة قهرية للتطور المادي الذي يبلغه ذلك المجتمع ويتركز ذلك فى الجانب الاقتصادي . ويختلف ايضاً عن التطور فى المدرسة الداروينية واتباعها باعتبار ما يتميز به التطور في نظر الاسلام فانه عمل اختياري يصدر بوعي من الانسان لترقية نفسه ومجتمعه ومحيطه وليس هو عملا قهرياً يصدر من الغرائز الدنيا التي يشترك فيها الأنسان والحيوان ولذلك فالباحث من اتباع دارون إذا اراد ان يبحث عن (الثورة الفرنسيه فكأنه يبحث عن خصائص الدودة الشريطية بلا مائز بينهما) كما تقدم فى الفصل السابق .

بل إن التطور فى نظر الاسلام هو فعل الانسان الاختياري الذي يتجه نحو الهدف الاكبر ، والغاية التي يؤمن بها الأنسان ويتمثلها في ضميره ليجسدها فى واقع نفسه ومحيط مجتمعه فهو إذن (عمل ايجابي اختياري غائي (١) .

(١) يذكر بعض الباحثين ان الاثار ونتائج الاعمال الخارجية -

واذا اتضحت هذه النقطة المهمة وتبينت ابعادها يمكن ان يمر على ذهننا السؤال التالي :

ما هو موقف الأسلام من هذا التطور الذي نراه في كثير من المجتمعات ؟ هل يقره ويسايره ، او يقف موقفاً محايداً منه، او ان للاسلام رايه الخاص ونظرته العامة المتميزة ؟

واذا اردنا ان نجيب على ذلك فلا نجهد كثيراً لنستوضح راي الأسلام في ذلك بل إن النظرة الأولية كافية لاثبات ان

– في صدورها من المؤثر لها مراحل ثلاثة :

١ – الاندفاع الطبيعي وهو الحاصل من الجماد والظواهر المادية الاخرى كسقوط الحجر ، وهبوب الرياح وعلى هذا فان التطور في نظر الماركسية يلحق بهذه المرحلة والمنزلة كما تدل عليه تصريحاتهم .

٢ – الاندفاع الغريزي وهو الذي يقع حداً وسطاً بين المرحلة السابقة والمرحلة الآتية يتصف بحركية كتلتها سائرة نحو التوازن الرتيب ازاء غاية تبغي اشباعها او الحصول على نصيب منها ولعل هذا هو الغالب على الاندفاع الحيواني في مختلف اصنافه . ويمكن ان يلحق به درجة التطور في نظر الداروينية او المدرسة السلوكية واضرابهما .

٣ – الفاعلية القيمية وهي الجهد الذي يبذل بوعي وادراك من الفاعل لاجل تحقيق القيم التي آمن بها ، ويمكن ان نلحق به درجة التطور في نظر الاسلام .

للاسلام حقيقته المتفردة ، وفلسفته الخاصة في الطابع العام للتطور الذي يستهدفه وفى الاسس التي يقوم عليها مثل هذا التطور بل حتى في بعض الخطوط الفرعية التي يلتقي فيها مع بعض الفلسفات الاخرى في المظهر والشكل ربما يفترق عنها جوهرياً فى اعطاء التفسير والمضمون لتلك الظاهرة الخاصة التي حصل التلاقي فيها .

وحينما نقول ذلك نود ان نبين حقيقه اخرى تستتبعها وتتفرع منها وهي ان هذه الصيغة المتكاملة التي يقدمها الأسلام للتطور ليست تحتوي على المفاهيم العامة المتميزة فحسب بل إن الأسلام قدم في محتوى تطوره التفصيلات الى جنب الاسس العامة وقدم المعالم المركزة الخاصة للتطور الى جنب المفاهيم الشاملة فلا يفتقر إذن حتى في تفصيلاته إلى عناصر مستورده تلحق به لتكتمل تلك المعالم وليتطابق الشكل مع المحتوى (١) .

فالتطور إذن يخضع فى كل تفصيلاته إلى التشريع الاسلامي وفلسفته واحكامه ويدخل ضمن دائرته وحقيقته الشاملة .

فالمتتبع لوجهة التشريع الاسلامي يرى بوضوح انه يطبع كل

(١) من المؤسف حقاً ان كثيراً من الكتاب الذي يريدون مدح الأسلام والتعريف به يقدمون بعض المفاهيم العامة الغامضة عن الأسلام (كمفهوم العدل والحق والحرية والانسانية وامثالها ولكنهم لايلتزمون به فى مجال التطبيق الاجتماعي !)

شيء من شؤون الفرد والمجتمع بالطابع الاسلامي سواء كان ذلك في ميدان الواجبات او المباحات وسواء كان ذلك فى الطرائق التي اسسها وانشأها انشاءا او التى اجازها وامضى السير على وفقها والاستمرار فيها ، ولذلك فلابد ان نتبين راي الأسلام واثره فيها والا فلا يمكن إلحاقها به او الالتزام بها على انها عمل اسلامي داخل ضمن تشريعه ومحتواه العام .

ولتبيان هذه النقطة وتوضيحها نود ان نتعرض باختصار إلى بحث يذكره علماء اصول الفقه ويطلقون عليه اسم (مبحث السيرة) فنذكر مقتطفات من كتاب اصول الفقه للشيخ المظفر تحت عنوان (حجية سيرة المتشرعه) يقول رحمه الله : (السيرة عند المتشرعة من المسلمين على فعل شيء او تركه هي في الحقيقة من نوع الاجماع ، بل هي ارقي انواع الاجماع ، لأنها اجماع عملي من العلماء وغيرهم . . . .

والسيرة على نحوين ، تارة يعلم فيها انها كانت جارية في عصور المعصومين عليهم السلام حتى يكون المعصوم احد العاملين بها او يكون مقررا لها ، واخرى لا يعلم ذلك او يعلم حدوثها بعد عصورهم .

فان كانت على (النحو الأول) فلا شك فى انها حجة قطعية على موافقة الشارع ، فتكون بنفسها دليلا على الحكم كالاجماع

القولي الموجب للحدس القطعي براي المعصوم ، وبهذا تختلف عن (سيرة العقلاء) فانها انما تكون حجة اذا ثبت عن دليل آخر امضاء الشارع لها ولو من طريق عدم ثبوت الردع من قبله كما سبق

وان كانت على (النحو الثاني) فلا نجد مجالا للاعتماد عليها في استكشاف موافقة المعصوم على نحو القطع واليقين . . . والسر في عدم الاعتماد على هذا النحو في السيرة ، هو ما نعرف من اسلوب نشأة العادات عند البشر وتأثير العادات على عواطف الناس إن بعض الناس المتنفذين او المغامرين قد يعمل شيئاً ما استجابة لعادة غير اسلامية او لهوى في نفسه ، او لتاثيرات خارجية نحو تقليد الاغيار ، او لبواعث انفعالات نفسية مثل حب التفوق على الخصوم او إظهار عظمة شخصية او دينه او نحو ذلك ، ويأتي آخر فيقلد الأول في عمله ، ويستمر العمل ، فيشيع بين الناس من دون ان يحصل من يردعهم عن ذلك ، لغفلة ، او لتسامح ، او لخوف ، او لغلبة العاملين فلا يصغون إلى من ينصحهم ، او لغير ذلك .

واذا مضت على العمل عهود طويلة يتلقاه الجيل بعد الجيل فيصبح سيرة المسلمين ، وينسى تاريخ تلك العادة ، واذا استقرت السيرة يكون الخروج عليها خروجاً على العادات المستحكمة التي من شانها ان تتكون لها قدسية واحترام لدى الجمهور ، فيعدون مخالفتها

من المنكرات القبيحة ، وحينئذ يتراءى انها عادة شرعية وسيرة اسلامية ، وان المخالف لها مخالف لقانون الاسلام وخارج عن الشرع (١) .

إنها كلمات واضحة في ان كل عادة وسيرة وسلوك سواء نشأ قبل الاسلام وما يعبر عنه (ببناء العقلاء) او بعده وفي جو المسلمين (وهو سيرة المتشرعة) لا يمكن حمله على الاسلام وعلى التشريع الأسلامي ما لم يكن مطبوعاً بطابعه وما لم يكن له اثره الواضح فيه من اجازة قولية به لمصدر التشريع الأسلامي وامضاء له من قبله ولو بعدم النهي والردع عنه الكاشف عن جوازه او اجازة عملية لممثل التشريع فيدخل معهم في العمل ويشاركهم في السلوك (٢) ولا تقتصر اهمية التشريع الاسلامي في مجال التطور على خاصية شمول التشريع واستيعابه لتفصيلات التطور وفروعه بل ان هناك ميزة اخرى للتشريع الاسلامي تجعل منه التشريع الوحيد الذي يقوم بمتطلبات التطور كعمل انساني يستهدف ترقية ملكات الانسان وتلبية مطالبه المشروعة وهذه الخاصية هي ارتباط

---

(١) اصول الفقه . الجزء الثالث (مبحث السيرة) للشيخ محمد رضا المظفر .

(٢) يذكر علماء الاصول ان قول المعصوم (ع) وفعله وتقريره حجة .

التشريع بالعقيدة والجانب الروحي للانسان واكتمال التشريع من الناحية الانسانية مادية وروحية وعلى هذا فلا يمكن للدين المسيحي وحضارته ان يكون قاعدة ينبثق منها هذا التطور كما لا يمكن للحضارة المادية الغربية ان تكون منطلقاً له ايضاً فالاولى تفقد التكامل الانساني الذي يساير متطلباته الحاضرة وخصوصاً بعد التحريف الذي طرأ على المسيحية حيث ظهر انفصال الجانب الروحي وانكماشه فلا يمكن الاستفادة منه فى النواحي الايجابية للانسان وطبع كل مظاهر نشاطه بهذا الطابع بل إن الانفلاق والتباين والتناقض بين الروح والمادة ، بين السلبية والايجابية الدائبة هو الطابع الذي يميز التحريف الطارىء على المسيحية على يد رجالها (١) وبهذا يمكن لنا ان نتبين ضحالة الدعوة إلى جعل الدين المسيحي اساس الحضارة الانسانية فى تشريعاتها ، ومنطلق تطورها فى المجال الروحي والمادي فى مختلف ميادينها كما ذهب الى ذلك

---

(١) واما فى صورتها الاصيله المنزلة فليس فيها هذا التناقض والتباين (. . . ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها . . .) الحديد ٢٦ ولكنها ايضاً لا تفي بحاجات الأنسان بعد اكتماله التطوري في جوانبه الأنسانية ولذلك جاء الاسلام مكملا لها ليفي بحاجات الانسانية روحية ومادية في ارقى درجتها ليكون الدين الخالد .

البحاثه المؤرخ (آرنولد توينبي) حيث يرى ان المسيحيـة هى الشرارة الالهية الخلاقة التي ترتكز عليها الحضارة وكالاستـاذ (هانز كوهن) حيث يدعى ان الحضارة الغربية حضارة سرمدية دائمة لأن لقاح الشرارة الالهية الخلاقه الموجودة في الحضارةالغربية دون سواها يشكل عند (كوهن) ضمانة جذرية لاستمرارهـا وتفوقها على غيرها من الحضارة القديمة والناشئة التي قد تنشأ (١)

فمثل هذه الادعاءات تغاير جانباً كبيراً من الواقع وذلك لأن الحضارة المسيحية (وروح الترهب فيها) بعد تحريفها وبعد هذا الانفلاق الكلي بين العامل الزمني والعامل الروحي جعل منهاروحاً وحضارة مشلولة لا يمكن ان تنفذ إلى صميم الحياة وميادينهاالمختلفة مضافاً إلى ان الحضارة الغربية بشقيها الراسمالي والماركسي حضارة مادية لا تعبر عن الحضارة الانسانية الصحيحة ولا تمتلك فى ذاتها الدوافع العقيدية الخلاقة التي تستلزم استمراريتها او الحصول على الامل الانساني الصحيح ومن هنا فاننـا نرى الضحالة والتزوير المتعمد فى الدعوة إلى تبني الجناح الايمن للحضارة الغربية اوالجناح الأيسر للحضارة الغربية والذى تبنته الدول الشيوعية يقول شارل مالك في الدعوة إلى الجنـاح الاول وفي محاولته اعطـاء المفاهيم الغربية الصفة التامة المتكاملة للحضارة واسباغها عليها : (ان

(١) الحقيقة الحضارية . لجورج حنا .

مبدانا هو الدخول الجدي في التراث الغربي ، العقلي ، الايجابي المتراكم . في هذا التراث فقط نجد الحقيقة الكاملة ، . . . ان تبنينا للتراث يعني عيشتنا اياه مع من يعيشونه ، تفاعلنا التاريخي الدائم معهم مشاركتهم في مسؤولياته وتفجراته التخلص من لغة (نحن) (وهم) . من اقدس غاياتنا . . .

ويقول جورج حنا داعية الجناح الآخر للحضارة الغربية : (هذا ما يدفعنا إلى القول ان الحضارة التي هي علم وفن وثقافة وعدالة اجتماعية ، وتنسيق الحياة على اساس العلم والفن والثقافة والعدالة الاجتماعية ، واعطاء الفرص لكل انسان ان يتقدم مادياً وروحياً كي يشارك فعلياً في التقدم المجتمعي والحضاري . . . هذا ما يدفعنا إلى القول ان الحضارة الانسانية المثلى لا يعبد لها طريق سوى نظام اشتراكي مستوحى من الاشتراكية العلمية المادية التاريخية . . .) (١) .

ونحن نقول لهم انهم مهما حاولوا ان يضفوا على الظلم والاستغلال عدالة اجتماعية وعلى المادية والانغلاق المادي مثلا اخلاقية وفلسفة روحية فانهم لا يتمكنون ان يستروا تجرد مثل هذه الفلسفات عن المقوم العقيدي الصحيح للحضارة ذلك المقوم الذي يمدها بدافع ذاتي اصيل يدفع البشرية على العمل لتكاملها وتناميها ويحفظها من

(١) الحقيقة الحضارية . جورج حنا ص ٧٤ .

الذبول والانهيار إن هناك ظاهرة ملحوظة اقضت مضاجع القائمين على مثل هذه الفلسفات وهي ان هذه الفلسفات لا يمكن بحقيقتها الداخلية ان تقوى على البقاء والاستمرار من دون صراع خارجي او عوامل زمنية طارئة تبعث فيها بعض النشاط الموقت . ولذلك فهي بحق لا يمكن ان تسمى (حضارة) بما لهذه الكلمة من دلالة إنسانية فى كل جزء من اجزاءها وفى كل ظاهرة ومن ظواهرها تنبعث من القاعدة العقيدية التى ترتكز عليها والتى تكون مصدر النور والنشاط لكل مراحلها .

من معالم التشريع الاسلامي

ولهذا الفصل اهمية بالغة ودور خطير فى تبيان المعالم التي يتميز بها التطور على ضوء الاسلام ، وذلك لان النتيجة التي تؤخذ من عملية التطور والتى اسهم في تكوينها التشريع الاسلامي والجهد الذي يبذله الانسان (١) لاختيار افضل الطرق واطيب المجالات التى يعطي فيها التشريع كثيراً من مضمونه وعطاءه لابد وان لا يتناقض مع معالم التشريع الاسلامي العامة ولا يخرج على مقوماته الاساسية ، فليس التشريع الاسلامي مرحلة اولية لمراحل تطورية تترك وراءها اهداف الاسلام ومثله الضرورية ، وليس هومصدر إلهام لتفتح القرائح والذكاء في مجال التشريع والعمل الاجماعي المتجسد . بل إن للتشريع حدوداً لا يمكن لعملية التطور ان تتسيب فتخرج عن دائرتها وله نظرات اساسية لا يمكن للعمل الخارجي ان يفقدها ويتجرد منها ، وهذا ما يتميز به التطور إذا اردناه بحق تطوراً يستلهم روح الاسلام ويحقق اهدافه ويجسد تشريعه واحكامه .

ولذلك يكون التشريع مع التطبيق وحدة لا تتجزء ولا

(١) وسيأتي فى بعض فصول الكتاب عن طبيعة الدور الذي يسهم فيه الفكر البشري مع التشريع الاسلامي فى عملية التطور .

يتناقض طرفاها فالتطبيق والعملية التطورية هي النتيجة التي استهدفها الاسلام واراد تكوينها وبناءها في نفس الانسان المسلم او في محيط حياته الخارجية ، فهو إذن المظهر العملي للحكم الاسلامي في مرحلة تشريعه سواء كان ذلك فى ميدان المجتمع او الفرد ، او ميدان الجانب المالي والاقتصادي او الاخلاقي والاجتماعي .

ولاجل هذا فهو يختلف عن التطور الذي تطبقه الانظمة الراسمالية حينما تحاول التنازل عن قسم من معالم فلسفتها واهدافها في الميادين المتعددة ، او الذي تستهدفه الماركسية حينما تتنازل عن اهدافها فى ميدان الدولة والمجتمع والفرد باعتبارها اموراً لا يمكن تحقيقها او تطبيقها على اي مجتمع من المجتمعات ، وسيظهر بوضوح اكثر كيفية احتفاظ العمل بالتشريع والنتيجة بالحكم (١) حينما نستعرض لقسم من تلك المعالم التى تتوفر فى احكام الاسلام ونظراته التشريعية .

ولذلك فانه كما يعارض الجمود والتشبث بالاساليب المخصوصة بمرحلة زمنية موقته ، والتى لا تدخل في حقيقة دينه وصميم شريعته فانه يعارض التسيب والخروج عن الحدود التى ركزها فى مختلف

(١) لا نقصد (بالحكم) خصوص الاحكام التكليفية الخمسة كالوجوب والحرمة بل يشمل الحكم الوضعي بما فيه الحق كالزوجية والصحة والبطلان وحق الشفعة والخيار والرهن على ما هو مفصل فى الكتب الفقهية .

معالم الحياة .

ومن هنا نعلم ان ظهور بعض الاتجاهات لبعض الباحثين المسلمين في القديم والحديث والتي تتصف بالصفة الاولى من الانغلاق والجمود ، او الصفة الثانية من التسيب وفقدان بعض معالمه الاساسية ، انما هو خروج عن حقيقة البحث الاسلامي واقحام لعناصر غريبة بعيدة عن روح التشريع واحكامه (١) .

ولعلنا نوفق في طبعة جديدة لتوفية هذه البحوث حقها ، وكشف العناصر التي ليست من صميم التشريع في اتجاه الجمود والانغلاق ، او العناصر التي تريد هدم العنصر الاسلامي والقضاء على طبيعته المتميزة في الاتجاه الاخر .

---

(١) كاتجاه بعض الفقهاء المسلمين إلى العمل (بالقياس) وجعله من صميم هذا الدين (والسنة إذ اقيست محق الدين) كما ورد عن الامام الصادق (ع) او العمل بالاستحسان ، وسد الذرائع ، والمصالح المرسلة وتحكيم الملاكات الظنية والامور الذوقية في تعيين الحكم الشرعي ومعرفة ابعاده والذي يمتد جذور مثل هذا التحكيم إلى بعض الصحابة في العصر الاسلامي الاول . ومن هنا يعرف السر في اصرار اصحاب الراي على ان كل مجتهد مصيب وان خالف النص وان الخطا غير ممكن في حقه كما اعترف به الغزالي نقلا عن كتاب المستطفى جـ ٢ ص ٥٧ يراجع في هذا المجال (الاصول العامة للفقه المقارن) للعلامة المحقق السيد محمد تقي الحكيم .

وسنتعرض الآن إلى قسم من هذه المعالم لنؤكد على فلسفته التي يريدها للبشرية في تطورها وتناميها ونلقي الاضواء على الفقر الشديد لهذه النظم الوضعية في بداية تكوينها وفي طبيعة تشريعها .

الاول : ان التطور الصحيح النافع هو جزء لا يتجزء من التشريع الاسلامي وحكم من احكامه قد امر به الاسلام ودعا إليه هذا الدين بشتى الطرق وانواعها ، فليس التطور إذن في جوهره لا يتنافى وروح الاسلام وانه مسموح به في نطاق ما سمح به من اشياء كثيرة فحسب ، بل إنه من صميم هذا الدين وان الاسلام دعوة كبرى إلى التطور الانساني الصحيح ، ولذلك فقد وفر عناصره ، ووفر الرغبة والتطلع إليه .

والتطور الذي دعا إليه يشمل جميع الافاق الفردية والاجتماعية روحية ومادية وخلقية نلمسها من النصوص والمضامين الاسلامية في الكتاب او السنة قال تعالى في فرقانه المجيد (الله الذي خلق السموات والارض ، وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بامره ، وسخر لكم الانهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سالتموه ، وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الانسان لظلوم كفار) (١) .

---

(١) ابراهيم ٣٣ ، ٣٥ .

(. . . فظلم الانسان في حياته العملية وكفرانه بالنعمة الالهية هما السببان للمشكلة الاقتصادية في حياة الانسان ، ويتجسد ظلم الانسان على الصعيد الاقتصادي : في سوء التوزيع ، ويتجسد كفرانه للنعمة في اهماله لاستثمار الطبيعة وموقفه السلبي منها . (١) ولا اتصور تعبيراً اروع من تعبير الآية عن الانسان بانه ظلوم كفار حينما يقصر مع نفسه ومع مجتمعه في مختلف المجالات ولا يؤدي المهمة الكبيرة التي عهد بها الله سبحانه وتعالى إليه . او كما استهل به الامام (ع) عهده إلى مالك الاشتر (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما امر به عبد الله علي امير المؤمنين مالك بن الحارث الاشتر في عهده إليه حين ولاه مصر ، جباية خراجها ، وجهاد

---

(١) اقتصادنا الكتاب الاول للسيد الصدر ، لا يقصد المؤلف الاستاذ في بيان الظلم والكفران من قبل الانسان في الجانب الاقتصادي هو اختصاص الآية بالجانب الاقتصادي وان الانسان ظلوم كفار في خصوص هذا المجال بل إنه مع توفر هذه النعمة الكريمة من الله سبحانه وتعالى فانه ظلوم كفار في الجانب الاقتصادي وفي الجانب الاجتماعي والجانب الاخلاقي وهكذا لانه لا يقوم بالمهمة الملقاة على عاتقه من قبل باريه في مختلف آفاق الحياة ، ولذلك فالمؤلف يقصد بيان مصداق الآية الكريمة في الجانب الاقتصادي لا استيعاب مفهومها في مختلف المجالات كما هو واضح من التعبير .

عدوها ، واستصلاح اهلها ، وعمارة بلادها) فالاصلاح الاجتماعي الروحي والاخلاقي يسير جنباً إلى جنب مع الاصلاح المادي وتعمير البلاد فالتطور الانساني الكبير هو هدف الاسلام ، وقد تقدم جزء من هذا البحث فى القسم الاول من كتابنا ضمن عنوان (دور العقيدة فى تطوير الانسان والحياة) .

ولذلك فالاسلام كما يهتم بالتطور الروحي وبترقية الملكات الاخلاقية الفاضلة فانه يهتم ايضاً بالتطور المادي وجعله وسيلة نافعة لتنمة الانسانية وتهذيب مجاليها الروحي والاخلاقي وما ذهب إليه بعض الفلاسفة المحدثين مثل (برتراندرسل) إلى ان مصدر الشقاء والارهاق اللذين يتميز بهما هذا القرن هو تقدم الانسان فى العلوم المادية الحديثة وتنوع اساليب العيش وكثرة مستلزماته المعيشية امر لا يمكن المصادقة عليه بسهولة ، صحيح ان بساطة العيش وسهولة الحياة وخلوها من التعقيدات والوسائل المادية المتنوعة امر اقرب إلى تخفيف المؤنة عن كاهل الانسان ، واستغناءه عن المتاعب والجهود التى تبذل فى الحصول على مثل هذه الوسائل ، ولكن المصدر الرئيسي للارهاق والشقاء ليس هو ذات الادوات وطبيعة هذه الوسائل . بل هو فقدانها للمركز العقيدي الروحي وتجردها من المعنى الخلقي العظيم ، وحينما فقدت دورها هذا لتكون فى حد ذاتها غاية لا وسيلة إلى هدف انساني اعلى اصبحت عاجزة عن

ان تهب السعادة والاستقرار للانسان المعاصر وتحولت إلى تركة ثقيلة تضاف إلى تركته النفسيه التى يعيش اجوائها بمقتضى طبيعة الظروف الحاضرة والحلقات الزمنية لهذه الفترة من عمر الزمن .

ولذلك فحينما تقوم بدورها ومرتبتها الصحيحة من الحقيقة الانسانية لا مانع من ان تقوم بدور فعال فى اسناد قوي الخير والفضيلة وتهيئة الفرص الطيبة لتوفرها واعطاء السعادة والرفاهية فى مجالاتها المتنوعة (١) .

الثاني : الفطرة (٢) فالاسلام فى تشريعه لا يخرج على الفطرة ولا يشذ عليها بل إنه يحاول ان يتفتح الجانب الخير من الغرائز ويهذب الجانب الآخر ويزيل اعراضه واضراره . فالايمان بالله والتطلع إلى الخالق المدبر فطرة وغريزة في النفس يريد الاسلام لها ان تتنامى وتتشابك فى مختلف ابعادها ، والتقوى وحب الخير والتعاون مع المجتمع غريزة في النفس يعمل الاسلام كذلك على إثارتها وتغذيتها لتؤتي اكلها كل حين (٣) .

---

(١) ولعله لهاتين الجهتين اللتين ذكرناهما تنظر الاخبار الواردة فى مدح الاموال وتثمين دورها ، والاخبار الواردة في ذمها والتقليل من شانها .

(٢) لا نريد التحديد الفلسفي الدقيق لهذه الكلمة وموارد استعمالها

(٣) (ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها) .

وهكذا سائر الغرائز الفطرية الاخرى يتدخل الاسلام في ميدان عملها وفي مطاوي مفاهيمها ونداءاتها لينمو منها جانب الخير ويتضاءل ويضمر الجانب الآخر بلا نكران لاحدى هذه الغرائز الفطرية ، او تجاهل لا تتحمله هذه الغرائز ولا تطيق الصبر على مقتضاه .

ولذلك فالاسلام بحق الدين القيم الذي يؤدي للفطرة حقها ويعتمد عليها ولا يحاول الانحراف عنها . (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون) وقد تقدم جزء من ذلك (في القسم الثاني من كتابنا) وكما تعرض له الباحثون المسلمون في هذا المجال .

ولكننا نريد الآن ان نوضح حقيقتين مهمتين وهما : ان ابتناء التشريع الاسلامي على الفطرة لا يعني اولا مسايرة التشريع للغرائز في كل نداءاتها وطلباتها النافعة والضارة وانه لا يتدخل فيها على الاطلاق كما ذهب إلى ذلك بعض الفلاسفة المحدثين واسموا مذهبهم هذا (بشريعة الطبيعة) او - المذهب الطبيعي - وقد فصلنا الكلام في مناقشته في الفصل الثاني ايضاً وقلنا هناك ان التسمية الصحيحة لهذا المذهب هو (شريعة الغاب) التي لا تتحكم فيها الضوابط فلا ينتصر فيها للخير فينتشر ويعم او ينازل الشر فينهزم وتتضاءل آثاره .

كما ان ابتناء الاسلام على الفطرة لا يعني ثانياً : ان الاسلام يترك الفطرة على حالها بلا تنمية ومساعدة وتكون مهمته منحصرة في اكتشاف قوانين الفطرة لا اكثر كما تكتشف قوانين المادة بلا تدخل فيها وبهذا الاكتشاف تكون المهمة للدين قد اديت كاملة غير منقوصة كما ذهب إلى ذلك بعض حيث كتب تحت عنوان (القانون الطبيعي) ما يلي : (. . . اهم ما تفضل به امة ايمانها بالقوانين الطبيعية ، وايمانها بانها لا تتخلف ، وجدها في ان تعرفها وتكتشفها وان تبني حياتها على وفقها ، فالفرق بين امة راقية وامة منحطه ان الاولى تسير في كل شان من شؤونها على الكثير مما عرفته من قوانين الطبيعة فهي تربي اطفالها حسب قوانين الطبيعة ، وتزرع ارضها حسب قوانين الزراعة ، وتنظم ماليتها حسبما وصل اليه علم المال ، وتقيم حكومتها حسب قوانين العدالة وهكذا هي حياتها مقدمات ونتائج ، وقياس احد اركانه دائماً قوانين الخ...)(١)

ولكننا نقول لهذا الكاتب ان القانون الطبيعي في الحياة الاجتماعية وان المشكلة الاجتماعية هي ابعد منالا واصعب حلا واكتشافاً من القوانين المادية ومشكلة الطبيعة فقد اعترف الكثير من العلماء المحدثين ومن فرسان هذا الميدان ان الانسان اجهل ما يكون بنفسه وآفاق نفسه فالحضارة التي كونها الانسان لا تتلائم مع ذاته

(١) المقتبس من فيض الخاطر لأحمد امين المصري .

ومقوماتها لانها لم تنشأ من معرفة حقيقية بالمشكلة وابعادها كما اعترف بذلك العالم الطبيعي (كارليل) في كتابه ـ الانسان ذلك المجهول ـ يقول هذا العالم : (يجب ان يكون الانسان مقياساً لكل شيء ولكن الواقع هو عكس ذلك ، فهو غريب في العالم الذي ابتدعه إنه لم يستطع ان ينظم دنياه بنفسه ، لأنه لا يملك معرفة عمليـة بطبيعته ومن ثم فان التقدم الهائل الذي احرزته علوم الجماد على علوم الحياة هو احدى الكوارث التي عانت منها البشرية) وقد استوعب الشيخ محمد امين زين الدين هذة النقطة بحثاً وتفصيلا فى كتابه القيم الاسلام (ينابيعه مناهجه غاياته) .

مضافا : ـ إلى ان اكتشاف المشكلة الاجتماعية لا يعني بالذات الخلاص من اعراضها والحصول على الدواء الناجح لازالتها فان المشكلة الأجتماعية ليست كالمشكلة الطبيعية في سيرها على وفق المصلحة الشخصية والرغبات الذاتية فاكتشاف مرض خاص ومعرفة حقيقته ومناشئه يدعو الأنسان بالطبع وبدافع من مصلحته الذاتية إلى استعمال دواءه للقضاء عليه ، ولكن اكتشاف بعض منابع الظلم الأجتماعي والوسائل التي تؤدي اليه لا يعني اندفاع الأنسان بطبعه في الطرق التي تقضي عليه ولا تؤدي اليه ثانياً لأنه قد يصطدم ببعض مصالح الفئات المتنفذة في المجتمع مثلا (والحق كله ثقيل) وقد يخففه الله على اقوام طلبوا العاقبـة فصبروا انفسهم ووثقوا

بصدق موعود الله لهم) كما في عهد الامام إلى مالك الاشتر حين ولاه مصر . ولذلك فالدين لا يترك امر تشريعه إلى يد القدرة والمصادفات الحسنة بل إنه إلى جانب المركيزة العقيدية المهمة يعمل بكل امكانياته على التطبيق وتحكيم شريعته في حقيقة الاحداث .

واخيراً فان الاسلام حاول ان يطور الفطرة والغريزة تطويراً لا يقضي على حقيقتها واذا اردنا تعبيرا آخر فنقول : ان الأسلام حاول ان يحصل على آخر قابلية للغرائز الفطرية وعلى آخر مدى يمكن ان تصل اليه فى مجال الخير والأنسانية والمعرفة الصحيحة ولذلك فانه لم يكتف بالحد الادنى والقليل منها .

فقد حاول مثلا ان يطور غريزة حب الذات إلى ان الاستشهاد في سبيل الله هو احدى الحسنيين وإن الدار الآخرة هي المستقر الحقيقي لحياة الانسان (قل هل تتربصون بنا الا احدى الحسنيين) النصر او الشهادة وحاول ان يطور غريزة حب الأموال والمادة إلى (من جاء بالحسنة فله عشر امثالها) (مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء) وبالتأمل فى مفاهيم الاسلام واهدافه ترى بوضوح الطريقة الحكيمة المركزة التى يتبعها الأسلام ويسير عليها لتطوير هذه الغرائز تطويرا سليما ينسجم مع واقعها ولا يشذ عن حقيقتها وامكانياتها .

الثالث : الصفة العقيدية والروحية وبهذه النقطة يفترق الاسلام عن النظم الوضعية افتراقاً جوهرياً واساسياً ونريد ان نبين في هذا الفصل ثلاثة آثار من تركز التشريع الاسلامي على العقيدة واهتمامه بالجانب الروحي وهي :

اولا : ان الجهود التي تبذل من اجل التطور وتحقيق هذا الهدف الكبير هي جهود فيها الكثير من التضحية والايثار . تضحية الفرد من اجل المجتمع ، وتضحية الجيل والمجتمع بأكمله من اجل الاجيال القادمة ولذلك فهو بحاجة إلى عقيدة تعوض الانسان عن هذه التضحية الغالية (وما تفعلوا من خير فان الله به عليم) وإلى روحية تتحمل البذل السخي والعطاء الوفير (ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون) .

والعمل من اجل التطور عمل فيه صبر وتصميم يفتقر إلى العقيدة القوية التي تسند الصبر على العمل والكفاح في افق النفس وفي ميدان الحياة الفسيح .

وهو عمل استمراري يحتاج إلى الشعلة العقيدية التي لا تنطفأ لتكون الوقود المتواصل والينبوع الذي يمد الانسان بالدافع الذاتي الذي لا يفتر أوراه .

إننا لا ننكر ان هناك عملا وتطويرا في جانب محدود من جوانب الانسانية ذلك هو الجانب المادي منه والصناعي ولكن

فقدان هذا العمل المادي المتواصل للدافع العقيدي والروحية الصحيحة كان له آثاره السيئة البعيدة ، فان التسابق المادي الذي نشاهده مهما ظهر بمظهر ضخم ، فان الارهاق والضجر الذي يصاحب هذا العمل ، والتكالب على الشهوات الدنيئة والسعار الاخلاقي المحموم ما هو الا تعويض عن الجهود التي تجردت عن العقيدة الصحيحة والروح الانسانية النيرة فلم تتحمل التضحية ولم تتعقل الايثار والحرمان الموقت .

مضافاً : إلى بعض النتائج المخيفة التى ظهرت فى الميادين المادية الحديثة من تقاعس عن العمل ، او خيانة لاهداف الانتاج مما يدل على ان حضارتهم تعتمد على الصراع ، والضبط بالقوة ، والعامل الخارجي من إثارة ومكافئة ومسابقة اكثر مما تعتمد على الدافع الذاتي والمكونات الأساسية للحضارة الصحيحة .

ويتفرع ثانيا : على هذا الجانب هو ان التشريع الأسلامي تشريع من الله الذي خلق البشر وهو الرحيم بهم العليم بما يصلحهم ولذلك فهو ليس تشريع فرد او صنف من الناس او طبقة مخصوصة ، ومن هنا فالتشريع الأسلامي لم يرجح طبقة من المجتمع ويهيء لها الفرص اكثر من الطبقة الآخرى كما في النظم الراسمالية باعتبارها المالكة الحقيقية لمواد التشريع ولفرص العمل كما لم يحاول القضاء على قسم من مجتمعه الذي يسوسه واحتكار الطبقة الآخرى

لكل مقدرات الحياة كما في النظم الأخرى من الشيوعية والاشتراكية ولذلك فقد قدس المساواة الأجتماعية ، وتكافؤ الفرص للمجتمع في العمل والضمان الاجتماعي والتكافل البشري وتساوي المكافأة على العمل في الدنيا والآخرة (فاستجاب لهم ربهم إني لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى بعضكم من بعض . . .) (١) ويقول امامنا امير المؤمنين (ع) في عهده (ثم اعرف لكل امرىء منهم ما ابلى ولا تضيفن بلاء امرىء إلى غيره ولا تقصرن به دون غاية بلائه ولا يدعونك شرف امرىء إلى ان تعظم من بلائه ما كان صغيرا ولا ضعة امرىء إلى ان تستصغر من بلائه ما كان عظيما .

ويتفرع على ذلك ثالثاً : مساعدة الدور العقيدي على سهولة التطبيق للتشريع ونجاحه ولذلك فالعمل الأسلامي وتجسد التشريع حينما سنحت له الفرص على عظمته وشموله وجدة عهده لم يحتج إلى رقابة قاهرة على المسلمين ولا إلى اجراءات رهيبة في المجتمع الاسلامي وقد قدمنا نماذج من ذلك في القسم الأول من هذا الكتاب ضمن عنوان (تاريخ الدعوة يتكلم) .

الرابع من معالم التشريع : انه ليس فيه عسر ولا حرج ولا ضرر ولا إضرار (وما جعل عليكم في الدين من حرج) (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) (ولا ضرر ولا

(١) آل عمران آية ١٩٤ .

ضرار في الاسلام) . روى في الكافي ايضاً عن عبد الله بن بكير عن زرارة عن ابي جعفر عليه السلام قال : ان سمرة بن جندب كان له عذق في حائط لرجل من الانصار وكان منزل الانصاري بباب البستان ، فكان يمر به إلى نخلته ولا يستاذن ، فكلمه الانصاري ان يستاذن إذا جاء فابى سمرة فلما ابي جاء الانصاري إلى رسول الله (ص) فشكا اليه واخبره الخبر فارسل اليه رسول الله (ص) واخبره بقول الانصاري وما شكاه وقال : إذا اردت الدخول فاستاذن فابى فساومه حتى بلغ به من الثمن ماشاء الله فابى ان يبيع ، فقال لك بها عذق يمد لك في الجنة فابى ان يقبل ، فقال رسول الله (ص) للانصاري : (اذهب واقلعها وارم بها اليه فانه لا ضرر ولاضرار) (١) .

فالاسلام يريد ان يبلغ الأنسان الاهداف العظيمة بـلا ان يكلفه ما لا طاقة له به وسنعود اليه في الفصل القادم حينما نتطرف للعناوين الثانوية واثرها في الحكم الاسلامي بعونه تعالى . ولعلماء اصول الفقه بحوث قيمة في هذا المجال من حيث مفاد ادلة العسر والحرج ولا ضرر ومن حيث خروج بعض الاحكام عن ذلك كالاحكام الضررية مثل وجوب الجهاد فانه إلزام بالضرر والقتال

(١) رواه ايضاً في الوسائل في الباب ١٣ من احياء الموات . . . راجع القواعد الفقهية الجزء الاول للشيخ ناصر مكارم .

وامثال ذلك وهي تدل على التفكير العميق المترابط ازاء احكام الأسلام ونظراته لا يسعها هذا البحث المختصر فلتراجع في مظانها(١)

الخامس من معالمه . انه يلحظ المعنى الاخلاقي (٢) ولا بغفله في حساب التشريع فليس هناك اتجاه اسلامي او تشريع وحكم من احكام يخرج على هذه القاعدة او ينحرف عنها فان الحكم الأسلامي اما ان لا يتصادم مع هذه الحقيقة ليكتفي بالقدر اللازم في تصريف شؤون الحياة واما ان يؤكد عليها تأكيداً واضحاً لكي لا يقف عند الحد الضروري الادنى وليسير في طريق

---

(١) فائدة لابد منها يذكر الاصوليون ان الحرج والضرر المنفيين في الدين هما العسر والحرج الشخصيان لا النوعيان فاذا حصل حرج وضرر لبعض الاشخاص دون بعض ارتفع حكمها عمن حصلا في حقه دون الآخرين نعم ان الحرج والضرر النوعي من الممكن اخذه في ملاكات الاحكام فلا تجعل من اول الأمر كقوله (ص) (لولا ان اشق على امتي لأمرتهم بالسواك) وكالرواية الدالة (على انه لولا الحرج لحكم بنجاسة الحديد) ولعله من ذلك حلية النكاح ليلة الصيام بعد تحريمه (احل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم . . .) .

(٢) لا نقصد ايضا التحديد الدقيق للمعنى الاخلاقي للتشريع الأسلامي والله سبحانه العالم .

التكامل والاحسان شوطاً بعيداً (١) . فالجانب العبادي في الاسلام له أثره الواضح في الجانب الاخلاقي ازاء نفسه ومجتمعه فان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر بالاضافة إلى انها معراج روح المؤمن وتساميها كما دلت على ذلك الاخبار والصوم فانه من اقوى العوامل للتحسس بمشاعر الفقراء من مجتمعه والحج فانه عامل قوي لتركيز المساواة بين المسلمين في الأصل والانسانية وانهم كلهم عبيد الله لا فضل لعربي على اعجمي ولا لأبيض على اسود الا بالتقوى .

واما المعاملات الاسلامية فنلاحظ المعنى الاخلاقي الذي لا يقتصر على الضرورة ظاهراً بشكل ملحوظ عند مراجعتنا لما يسميه الفقهاء (باداب المعاملة) ففي معاملة البيع يستحب للبائع ان يعطي راجحاً وياخذ ناقصاً وفي الزواج يستحب تقليل المهور فان مهر السنة خمسمائة درهم شرعي ، واجابة الزوج الذي يرتضى دينه وامانته فان لم يفعل الناس ذلك تكن فتنة في الأرض وفساد كبير كما وردت الاخبار بذلك ، ويستحب ترك التزويج بالمرأة الحسناء اذا كانت في منبت السوء وحتى للأكل والشرب آداب تلحظ الصحة الجسدية والمعنى الخلقي العظيم بل حتى في الذبح

(١) في بداية خطبة الصديقة فاطمة الزهراء (ع) التي خطبتها على المهاجرين والانصار بعد وفاة ابيها النبي (ص) ما يشير إلى المعنى الخلقي السامي من تشريعات الاسلام .

والنحر للحيوان وللطائر فانهم ذكروا لذلك آداباً مفصلة في كيفية الذبح تدل على ما لهذا الدين من شمول للعطف وللرحمة وللخلق الرفيع حتى للحيوان الاعجم وللطائر الذي يطير بجناحيه ليبعده عن الاذى والتعذيب (١) .

واذا تسلسل الحديث إلى هذه النقطة إتجه لنا تجلية المفاهيم الآتية وهي مفهوم القيم ، والاخلاق ، والتقاليد فالاولى هي المفاهيم الاساسية التي يرتكز عليها المعنى الخلقي ويستمد وجوده من وجودها ومعناه من معناها ولعل هذه الآية المباركة تعكس لنا نقاطاً اربعة من امثال هذه المفاهيم (بسم الله الرحمن الرحيم : يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء » (٢) اربعة مفاهيم يمكن ان تعكس لنا قيماً اساسية للتشريع الاسلامي وللخلق الاسلامي القويم (قضية العقيدة وتقوى الخالق) (وقضية ان البشر من اصل واحد) فلا تمايز بينهم في الاصل والخليقه والمنشأ (وقضية ان الزوجة مخلوقة من نفس الزوج) فهي سكن له ومساوية في الانسانية قد جعلت بينهما المودة والرحمة (وقضية تكون المجتمع الذي انبثق من الزوج

---

(١) للاطلاع على الآداب المفصلة في هذا الباب يراجع منهاج الصالحين الجزء الثاني لآية الله السيد الحكيم .

(٢) سورة النساء .

والزوجة اللذين هما من نفس واحدة) ولعل لنا مع هذه الآية المباركة العظيمة عودة اخرى حينما نوفق لطبعه ثانية انشاء الله .

والأخلاق الأسلامية إذن لابد ان تعتمد على هذه القيم وتستقي منها لتسير في خطوطها وضمن واقعها وحقيقتها ولذلك لا يمكن ان تتغير على مر الزمن والتاريخ والعصور (١) .

واما التقاليد الأسلامية فهي الظواهر التي تشترك فيها طبيعة المرحلة الزمنية الخاصة التي يعيش فيها المسلم مع الأخلاق الأسلامية التي يؤمن بها ولذلك فمن الممكن ان تتغير مظاهرها وصورها على مر الزمن تبعاً لتغير الوسائل الاخرى التى تحتوي على العنصر الأخلاقي الأسلامى وهى فى جميع الاحوال لابد ان تحتوي على جوهرها الأصيل واعني به طبيعة الخلق الأسلامي وواقعه والافقد خرجت

---

(١) ينبغي ان نوضح نقطة مهمة هنا وهى ان بعض العناوين لا يمكن ان يتغير محتواها إذا صدقت عليه (كعنوان الظلم والعدل) فالاول قبيح عقلا والآخر حسن عقلا ولا يمكن ان يكون الظلم حسناً فى زمن ما والعدل قبيحاً فى زمن آخر ، وهناك بعض العناوين حسنة فى حد ذاتها كالصدق ولكن يمكن ان تتغير إلى العكس كما اذا كان فيه فتنة ونميمة او اضرار لبعض المؤمنين وهناك عناوين قبيحة في حد ذاتها كالكذب فما اقبحه في الاسلام ولكن قد ينقلب إلى الحسن اذا كان فيه اصلاح ذات البين او تخليصاً لمؤمن من الضرر فهو إذن في هذه الحالة فى إطار القيم الأسلامية

عن كونها تقاليد اسلامية إلى تقاليد عدائية للاسلام وان مارسها بعض المسلمون الذين يعيشون في وسط اسلامي . ولعله تتضح هذه النقطة بالذات في الفصل القادم انشاء الله .

السادس من معالم التشريع : انه يهدي للتي هي اقوم : (إن هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجراً كبيراً) (١) .

ولذلك فان التشريع في هذه الناحية يتصف بصفتين رئيسيتين الأولى صفة الهداية إلى الطريق الحق والثانية صفة الانقاذ من الواقع السيء من نواحيه العملية والفكرية (قل او لو جئتكم باهدى مما وجدتم عليه آبائكم . . .) (٢) (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم اعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) (٣) ومن هنا يتضح واقع دعوى ان الأسلام هو المرحلة التطورية للوجدان العربي والروح العربية ولذلك وحيث تطور وجدانهم العربي بمرور اربعة عشر قرن عليه ؟ ! فلابد ان ينحى الأسلام عن الحياة الاجتماعية

---

(١) الاسراء آية ٩ .

(٢) الزخرف ٢٤ .

(٣) آل عمران ١٠٣ .

ليترك المجال إلى وحي وجدانهم الجديد وروحهم المنبعثة ؟ !ونحن لا نريد بيان حقيقة وجدانهم الفعلي الذي اتضحت حقيقته للجميع وللمجتمع الأسلامي كمالانريد ايضاً الأن ان نبرهن بالتفصيل على ان الاسلام لم يكن تطوراً للروح العربية السائدة انذاك او للوجدان العربي وان هذه الظاهرة تتميز في كل معالمه واسس تشريعاته المتميزة فلقد اشبع الباحثون المسلمون هذه الناحية بالذات بما لا مزيد عليه وانا اعتقد ان هذه الظاهرة تتضح عند اول ملاحظة للتشريع الأسلامي واهدافه فى الحياة فليس هو وليد مرحلة اقتصادية ، او تطوراً لمرحلة اقتصادية كما تفسر به الماركسية جميع الحقائق من الدين والعلم والفلسفة وغيرها وليس هو تعبيراً عن الوجدان العربي والفكر العربي لتلك المرحلة بالذات ، فالدين اذا كان من صنع الطبقة الحاكمة لحماية مصالحها كما تدعي ذلك الماركسية فان الأسلام قد قضى على اهم المصالح للطبقة الحاكمة آنذاك ولذلك (فمن حقنا ان نتساءل : هل كان من مصلحه هذه الطبقة ، ان تجعل من الدين اداة وحالة فى القضاء على الراسمال الربوي الذي كان يدر عليها ارباحاً طائلة فى المجتمع المكي ، قبل ان يحرمه الاسلام تحريماً باتاً ؟ ! وهل كان من مصلحتها ، ان تتنازل عن كل مزاعمها الارستقراطية ، فتسخر الدين للدعوة إلى المساواة بين الناس ، في الكرامة الأنسانية . . . واذا اخذنا فكرة الماركسية

عن التطور التاريخي للاديان لنطبقها على الأسلام الدين العالمي الثالث لوجدنا مدى التناقض الفاضح ، بين الفكرة والواقع .

فلئن كانت اوربا دولة عالمية ، تتطلب ديناً عالمياً ، فلم تكن في جزيرة العرب دولة عالمية كذلك ، بل لم تكن توجد دولة قومية تضم الشعب العربي ، وانما كان العرب موزعين فئات متعددة وكان لكل قبيلة إلهها الذي تؤمن به ، وتتذلل اليه وتصنعه من الحجر ، ثم تدين له بالطاعة والعبودية فهل كانت هذه الظروف المادية والسياسية ، تدعو إلى انبثاق دين عالمي واحد ، من قلب تلك الجزيرة المبضعة ، وهي بعد لم تعرف كيف تدرك وجودها كقوم وشعب ، فضلا من ان تعي وحدة من نمط ارقى تتمثل في دين يوحد العالم برمته ؟ ! واذا كانت الالهة الدينية تتطور ، من آلهة قومية إلى إله عالمي ، تبعاً للحاجات المادية والاوضاع السياسية فكيف طفر العرب من آلهة قبلية يصنعونها بايديهم إلى إله عالمي دانوا له باعلى درجات التجريد) (١) .

وهو ايضاً ليس وليد الفكر العربي والبيئة العربية فان الشروط الفكرية السائدة آنذاك كلها لا تساعد على هذا الرقي العظيم في تاريخ الأنسانية كلها وها نحن نستمع إلى امير المؤمنين ع ليحدثنا في بعض خطبه عن الحالة الاجتماعية والفكرية السائدة

---

(١) اقتصادنا الكتاب الاول مقتطفات من ص ٨٠ ، ٨٣ ، ٨٤ .

عند العرب قبل الأسلام وماوصلوا بعده (... تاملوا امرهم في حال تشتتهم وتفرقهم ، ليالي كانت الاكاسرة والقياصرة اربابلهم يحتازونهم عن ريف الافاق وبحر العراق ، وخضرة الدنيا إلى منابت الشيح ومهافي الريح ونكد المعاش ، فتركوهم عالة مساكين إخوان دبر ووبر اذل الامم داراً ، واجدبهم قراراً ، لا يأوون إلى جناح دعوة يعتصمون بها ، ولا إلى ظل ألفة يعتمدون على عزها ، فالاحوال مضطربة ، والأيدي مختلفة ، والكثرة متفرقه في بلاء ازل واطباق جهل من بنات مؤودة ، واصنام معبودة ، وارحام مقطوعة ، وغارات مشنونة فانظروا إلى مواقع نعم الله عليهم حين بعث اليهم رسولا فعقد بملته طاعتهم ، وجمع على دعوته الفتهم ، كيف نشرت النعمة عليهم جناح كرامتها ، واسالت لهم جداول نعيمها ، والتفت الملة بهم في عوائد بركتها فاصبحوا في نعمتها غرقين وفي خضرة عيشها فكهين فد تربعت الأمور بهم فى ظل سلطان قاهر وآوتهم الحال إلى كنف عز غالب ، وتعطفت الأمور عليهم فى ذرى ملك ثابت ، فهم حكام على العالمين ، وملوك فى اطراف الأرضين : يملكون الأمور على من كان يملكها عليهم ، ويمضون الاحكام فيمن كان يمضيها فيهم ، لا تغمز لهم قناة ولا تقرع لهم صفاة ...)(١)

---

(١) نهج البلاغة شرح محمد عبده الجزء الثاني ملحوظة من الضروري مطالعة خطب الأمام (ع) فى حال العرب قبل الاسلام ـ

فالاسلام ليس وليد البيئة العربية وانما كان في صراع هائل مع البيئة العربية من اجل بناء الحياة والأنسان بناءاً جديداً ينسجم مع الأنسانية الحقة في تطورها وتكاملها وتحقيق اهداف هذ الدين وليس هو ايضاً رد فعل متطرف لا يهمه الا الثورة العمياء على ما هو موجود والا الانقضاض الأعمى على كل المفاهيم السائدة بل إنه لاحظ المشكلة بكل ابعادها فاراد قلعها وازالتها في تلك الأبعاد كلها والسير بالأنسانية فى طريق رقيها ورفعتها بعد تحرير كاهل الانسان عن جميع ما يثقله ويقيده .

(هو الذي بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين) (١) .

ولناخذ مثلا من تشريع الأسلام ازاء المرأة لنشاهد تجسد هذه الصفات التي ذكرناه للتشريع فحينما يقول الأسلام مثلا ان المرأة مخلوقة من نفس الرجل وهي في نفس الوقت يجب على الزوج ان ينفق عليها في حياتها الزوجية كما انها لا يجب عليها تدبير المنزل او تربية الأطفال لزوجها فنرى ان هذا التشريع لم يكن ليعترف بحق الحياة للمرأة التي كانت توأد وهي بنت فحسب

- وبعد الاسلام ليدرك مدى العطاء الأسلامي العظيم في جميع المجالات .

(١) سورة الجمعة ٣ .

بلا اعتراف كامل لها بالانسانية ، ولم يعترف لها بالانسانية الكاملة فحسب ليوجب عليها تدبير منزلها واطفالها باعتبار ان الرجل مشغول في تحضير معاشه ودنياه خارج البيت ليتقاسما شؤون الحياة بل إنه لم يوجب عليها الا بعض الأشياء في حياتها الزوجية منها تمكين نفسها اذا شاء الزوج لاسباب اكد عليها العلم الحديث كما اكد عليها الدين . اقول ان التطور الطبيعي لمنطق الفكر واحداث البيئة هو الترقي من المرحلة الأولى إلى المرحلة التي تليها وهكذا حسب مرور الزمن والوقت الطويل لا هذا التطور العظيم الذي ينطوي على مراحل متعددة ومتشعبة في هذا المجال كما انه ليس رد فعل متطرف ولذلك فلم يكن ليجعل البنت مساوية للرجل في الميراث مع ان النفقة في اغلب الاحيان على الرجل دونها ولم يجعل القوامة في البيت بيد المرأة مع ان طبيعة ظروف الرجل المعاشية والتكوينية تقتضي ذلك (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا) (١) وكذلك المرأة في ميدان الشهادة (. . . واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامراتان ممن ترضون من الشهداء ان تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى . . .) وهذا ما تؤكده طبيعة الوضع النفسي

---

(١) سورة النساء آية ٣٣ .

والعاطفي المرأة (١) .

او فى معاملة الأسلام للكتابيين والتي تختلف فى كيفيتها عن معاملته للمشركين مع ان المسيحية انذاك دولة كبرى على حدود بلاد العرب فلم يغير تشريعه هذا لا فى الادوار الأولى ولا في مرحلة اصطدامه معها (٢) .

---

(١) تقدمت دراسة من هذا النوع فى القسم الاول من الكتاب للجانب الاقتصادي في الاسلام مما يوضح ايضاً كيفية كون التشريع الأسلامي لا يمكن ان يسمى تشريعاً معتدلا بمعنى عدم القضاء على المشكلة نهائياً ولا يسمى متطرفاً او متساهلا وانما هو مع المشكلة في ابعادها فهو كما عبر عنه القرآن (يهدي للتي هي اقوم) وان الأمة الأسلامية حينما تحكم التشريع فى حياتها هى الأمة الوسط التى تتبع السبيل القويم (وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) واذا لاحظنا اسباب النزول للايات نجد فيها المشكلة الأجتماعية التي يريد الأسلام إزالتها او الحادثة الفردية التي تكون مبرراً لتطبيق التشريع الأسلامي على المجتمع او التشريع الذي يريد بهم الكمال والرقي الأنساني فى مختلف المجالات وهو اكثر مواد التشريع التي تكفلت بها الآيات ويجمع الكل رباط واحد هو الهداية للتي هي اقوم والانقاذ من الواقع السيء الذي كانوا هم عليه .

(٢) فقد اصطدم الجيش الأسلامي مع جيش الروم في (غزوة مؤتة) بقيادة ابن عم النبي (ص) جعفر بن ابي طالب (المعروف بالطيار)-

وحتى في مرحلة الانتصار على الروم وفتح حصون اليهود فان الأسلام لم يغير من تشريعه شيئاً لأنه صادر من واقع لايتبدل فليس هو إذن تطوراً لمرحلة عربية ليهادن المشركين والكتابيين سوية ويسمح لهم بالعيش فى ظل دولته في نطاق محدود لأنه صمم على القضاء على الوثنية بكل طاقاته وليس هو رد فعل متطرف حيث يامر بالقضاء على كل من يخالف دينه ولو كانوا من اهل الاديان السماوية والكتابيين .

ومع ان الأسلام لم يكن رد فعل متطرف فانه عاش في صراع هائل مع البيئة العربية للتغلب على ظروفها الفكرية والاقتصادية والاجتماعية السائدة آنذاك إلى حيث الكمال الأنساني والسعادة الحقيقيه للبشرية (١) .

ولذلك حينما لم تحكم البشرية تشريع الأسلام في مجالات الحياة وحينما لم تكن الامة الأسلامية بقادرة على قيادرة الركب العالمي إلى

- لان له جناحين يطير بهما في الجنة على ما بشر به رسول الله (ص) فان استشهد فزيد بن حارثة فان استشهد فعبد الله بن رواحة .

(١) في بعض الفقرات من خطبة مولاتنا الصديقة فاطمة الزهراء ما يوضح هذه الحقيقة وما عاناه الاسلام من الصراع مع مردة اهل الكتاب وبهم الرجال وذؤبان العرب حتى انهزم الجمع وولوا الدبر واسفر الصبح لذي عينين .

اهدافها بعد انهيارها لاسباب داخلية وخارجية متعددة .

رجعت البشرية إلى جاهليتها الأولى وان اختلف الشكل والمظهر وانحدرت عن القمة الأنسانية مسافات بعيده مترامية وإن مرت عليها ازمنة وقرون فليست الجاهلية وليدة مرحلة زمنية مخصوصة لتتخلص الانسانية منها إلى الأبد وليس الزمن وحده هو الذي يستورد التطور الأنساني إذا ارادت البشرية ان تحيد عن التشريع الصحيح والقمة الأنسانية المتسامية فليس هذا الذي نشاهده في القرن العشرين تطوراً انسانياً صحيحاً او حضارة صحيحة وان ملكتا اسلحة الدمار المتنوعة او الوسائل الصناعية الثقيلة (هل تعتبر حرب الابادة حضارة ؟ والتفرقة العنصرية حضارة ؟ والاستعباد حضارة والفوضى الخلقية حضارة ؟ والجنون والمرض والانتحار حضارة ؟ وتحطم الاسرة والمجتمع حضارة ؟ والشقاء الشامل حضارة ؟!)(١)

ولذلك فان مهمة المسلم لم تنته ازاء البشرية والمجتمع ولا يزال هو النور المتوقد الذي يضي للاجيال طريقهم المعبد ليغير المفهوم الخاطىء المتوغل في الخطأ والغرور وليكشف لهم عن اهداف الانسانية الصحيحة فيعرفوا بداية طريقهم الذي يسيرون فيه والغاية التي يبتغونها في عملهم وكدحهم في سيرهم الحياتي الطويل

السابع من معالم التشريع الأسلامي : وجود العناوين الثانوية في التشريع وتاثيرها فيه فمنها ما تقدم من الحرج والعسر المنفيين

---

(١) محمد قطب (التطور والثبات في حياة البشرية) .

في الدين والضرر الذي يوجب ارتفاع التكليف .

ومن تلك العناوين الثانوية مادل عليه الحديث المشهور الجامع المروي عن النبي (ص) وهو المعروف (بحديث الرفع) ومن جملة ما رفع فيه ما لا يعلمون ، وما لا يطيقون ، وما اضطروا اليه ، وما استكرهوا عليه ، والخطأ والنسيان . على ما هو مفصل في كتب الأصول من الابحاث الجليلة التي تحقق في المغزى الدقيق لهذا الحديث ، ولذلك فلا يمكن لغير المجتهد ان يلم باطراف الحديث وان يستفيد منه المعنى الذي يدل عليه مع اقترانه بسائر الأخبار والأدلة الأخرى .

واحكام هذه العناوين التي وردت على لسان المشرع : (الاحكام الثانوية في الفقه الأسلامي هي المخططات الطولية التشريعية التي تتعرض لتحديد الاحكام الأولية او تقليصها او مدها وتوسعتها او تجميدها ورفعها او تحويلها إلى احكام اخرى بصورة مؤقته وذلك كالادلة التي تنفي الضرر والحرج في الشريعة او التي تثبت ما يضطر اليه المسلم في ظروفه الأجتماعية الخاصة (١) .

وبهذه العناوين الثانوية يتمكن الأسلام من الاحاطة بالظروف الطبيعية والاستثنائية التي تعرض على المجتمع والفرد والدولة وعدم

---

(١) راجع كتاب (المدخل إلى التشريع الأسلامي) للشيخ محمد مهدى الاصفي مع تعليقته على هذا الموضوع ص ١٦٨ .

خروج بعضها عن نطاق التشريع (١) .

على ان هناك ما يؤدي ثمرة هذه العناوين في الجملة وان لم تكن وردت على لسان الشارع بعناوينها الكلية وذلك فى مورد (التزاحم) بين الواجبين او الواجب والمحرم حيث ان العقل يحكم بتقديم الواجب اذا كان اهم من ترك الحرام كدخول الأرض المغصوبة لاجل انقاذ الغريق وان الشارع لابد ان يرفع يده عن حرمة الغصب هنا ، ولعله من هذا الباب المسألة المعروفة في باب الجهاد فيما اذا التقى الجيش الأسلامي بجيش العدو والكافر وقد تترس بالمسلمين وجعلهم وقاية له من المسلمين وتوقف الفتح على قتلهم جاز ذلك للملاك الاهم والهدف الأعلى .

ويحكم العقل ايضاً بتقديم ترك الحرام على فعل الواجب اي بعكس الصورة السابقة كما اذا كان ترك الحرام اهم فى نظر الشارع من فعل الواجب فالعقل يحكم بتقديم الملاك الاهم فى صورة التزاحم كما اذا كان انقاذ الحيوان الواجب موجباً لهلاك نفس الانسان

---

(١) روي عن الامام الصادق (ع) انه قال (ما من شيء الا وفيه كتاب او سنة) وعن الامام موسى بن جعفر (ع) انه قيل له : اكل شيء فى كتاب الله وسنة نبيه او تقولون فيه ؟ قال : (بل كل شيء فى كتاب الله وسنة نبيه) راجع المعالم الجديدة للاصول نقلا عن اصول الكافي (لثقة الأسلام الكليني) .

المحرم فانه تقدم المحافظة على نفس الانسان .

وقد ذكروا ايضاً الحكم بتقديم احد الواجبين على الواجب الآخر إذا كان اهم منه كما في مورد انقاذ النفس المحترمة معواجب آخر اقل منه . وبتقديم الواجب المضيق على الواجب الموسع الذي لايزال وقته واسعاً . كقضاء الدين الفوري على الصلاة في سعة وقتها او يكون احد الواجبين معيناً والآخر مخيراً يمكن ان يكون له بدل اختياري فيقدم المعين على المخير . وقد ذكرنا في هذا الفصل مقتطفات مختصرة من هذه الابحاث ليستفيد بهـا من له تطلع إلى ذلك والله الموفق وهو المعين (١) .

---

(١) يراجع الجزء الثاني من اصول الفقه المرحوم الشيخ المظفر .

الميدان العملي للتطور

على ضوء الاسلام

عرفنا في الفصل السابق بعض معالم التشريع الاسلامي وما فيها من لحاظ للنقاط الجوهرية التي تبتني عليها انسانية الانسان والتي لها الفعالية في الحياة الخارجية ولذلك فانه لم يترك حتى الحالات الثانوية التي تحصل في ظروف استثنائية او في ظروف خارجة عن ارادة المكلف . ومن هنا يتضح جانب من حقيقة خلود التشريع وصلاحيته لكل زمان ومكان على اختلاف الاحوال الزمانية والمؤثرات المكانية . كما سنبين في هذا الفصل وجهاً آخر يعكس لنا هذه الحقيقة في صورة واضحة جلية انشاء الله تعالى.

وقد عقدنا هذا الفصل لبيان بعض الصور التي يتحقق فيها التطور عملياً على ضوء الاسلام ولبيان الطريق الذي يسير فيه التشريع حينما ينزل إلى الميدان العملي وإلى مسرح الحياة الخارجية فبحثنا في هذا الفصل يتركز على كيفية اشتراك الجهد البشري فكرياً وعملياً مع التشريع حينما ينزل إلى واقع الحياة وعلى كيفية التلاقح بينهما من دون اضرار بحق التشريع وبحق اهدافه ومن دون تقييد الطاقة البشرية من ان تثمر وتتفتح وتعطي نتائجها الموجوة منها .

ولذلك فمن الممكن ان نعبر عنه (بالنظام الاسلامي) للحاظ المرحلة الزمانية والظروف المكانية وتنوع المتطلبات فيهما في مواد التشريع وفي صياغته ولذلك فمن الممكن ان تطرح هذه الملحقات

عن التشريع إذا انتهت مرحلتها وانتهى غرضها لتترك إلى المؤثرات الجديدة في تلاحمها مع التشريع بلا خروج على احكامه واهدافه وستأتي بعض الامثلة التى توضح ذلك وكما تقدم في القسم الأول جزء منها (١) .

وحينما يصل حديثنا إلى هذه المرحلة بالذات ويكون من الضروري تقييم العقل البشري في نظر الاسلام وتحديد مكانته واهميته فى التشريع لكي تلقى بعض الأضواء على ما نريده من الفكر البشري الذي يشترك في النظام وانه لا يختص بخصوص الاحكام العقلية القطعية التى تكشف عن الحكم الشرعي بالذات وعن وجهة التشريع الاسلامي قبل مرحلة النظام وقبل مرحلة العمل التى

---

(١) ذهب بعض الباحثين المسلمين إلى اختصاص النظام بخصوص الاحكام الثانوية الطولية وان الدستور هو الاحكام الواقعية بعناوينها الأولية وان التشريع ما يشمل كلا الجانبين ولعل الحق ان النظام هو ما يكون قد ابرز فيه التشريع مع لحاظ الواقع الخارجي وطبيعة المرحلة الزمنية سواء كان من مصاديق الأحكام الاولية او الاحكام الثانوية الكليه لان الاحكام الثانوية فى الاسلام من طبيعة دستوره ايضا وجوهر تشريعه وقد جعلت الاحكام الاولية والثانوية الكلية على نحو القضية الحقيقية على ما هو المعروف وحيث ان هذه التسمية من قبيل الاصطلاح (فلا مشاحة فى الاصطلاح) .

يستثمر فيها التشريع .

ولقد اختلف في مكانة العقل ودوره في التشريع الاسلامي وفي النظر الاسلامي وقد آثرنا نقل بعض المقتطفات من كتاب (المعالم الجديدة للاصول) لأنها تبين هدفنا هذا بوضوح فقد كتب المؤلف الاستاذ تحت عنوان الاتجاهات المتعارضة في الادراك العقلي مايلي: (وقد شهد تاريخ التفكير الفقهي اتجاهين متعارضيين في هذه النقطة كل التعارض ، يدعو احدهما إلى اتخاذ العقل في نطاقه الواسع الذي يشمل الادراكات الناقصة ، وسيلة رئيسية للاثبات في مختلف المجالات التى يمارسها الاصولي والفقيه ، والآخر يشجب العقل ويجرده اطلاقاً عن وصفه وسيلة رئيسية للاثبات ، ويعتبر البيان الشرعي هو الوسيلة الوحيدة التي يمكن استخدامها في عملية الاستنباط .

ويقف بين هذين الاتجاهين المتطرفين إتجاه ثالث معتدل يتمثل في جل فقهاء مدرسة اهل البيت عليهم السلام وهو الاتجاه الذي يؤمن خلافاً - للاتجاه الثاني - بان العقل او الادراك العقلي وسيلة رئيسية صالحة للاثبات إلى صف البيان الشرعي ، ولكن لا في نطاق متفتح - كما زعمه الاتجاه الاول - بل ضمن النطاق الذي تتوفر فيه للانسان القناعة التامة والادراك الكامل الذي لا يوجد في مقابلة احتمال الخطأ ، فكل ادراك عقلي يدخل ضمن

هذا النطاق ويستبطن الجزم الكامل فهو وسيلة اثبات ، واما الادراك العقلي الناقص الذي يقوم على اساس الترجيح ولا يتوفر فيه عنصر الجزم فلا يصلح وسيلة اثبات لاي عنصر من عناصر عملية الاستنباط .

فالعقل في رأي الاتجاه الثالث اداة صالحة للمعرفة وجديرة بالاعتماد عليها والاثبات بها إذا ادت إلى ادراك حقيقة من الحقائق ادراكا كاملا لا يشوبه شك . فلا كفران بالعقل كاداة للمعرفة ، ولا افراط فى الاعتماد عليه فيما لا ينتج عنه إدراك كامل .

. . . وردود الفعل هذه كانت تشتمل على نكسة وخطر كبير قد لا يقل عن الخطر الذي كان الاتجاه العقلي المتطرف يستبطنه لانها اتجهت للقضاء على العقل بشكل مطلق ، وتجريده عن كثير من صلاحياته ، وايقاف النمو العقلي في الذهنية الاسلامية بحجة التعبد بنصوص الشارع والحرص على الكتاب والسنة . ولهذا كانت تختلف اختلافاً جوهرياً عن موقف مدرسة (اهل البيت) عليهم السلام التي كانت تحارب الاتجاه العقلي المتطرف ، وتؤكد فى نفس الوقت اهمية العقل وضرورة الاعتماد عليه فى الحدود المشروعة واعتباره ضمن تلك الحدود اداة رئيسية للاثبات إلى صف البيان الشرعي حتى جاء فى نصوص اهل البيت (ع) «إن لله على الناس حجتين ! حجة ظاهرة وحجة باطنة ! فاما الظاهرة

فالرسل والانبياء والأئمة ، واما الباطنة فالعقل » . . . وهكذا جمعت مدرسة اهل البيت (ع) بين حماية الشريعة من فكرة النقص وحماية العقل من مصادرة الجامدين . (١) ولا نريد ان نستعرض الموضوع بصورة مفصلة (٢) ولكن نشير إلى بعض هذه النقاط فنبين نموذجاً من الاحكام العقلية وادراكات العقل ليتضح المقصود فقد قسم علماء الاصول الاحكام العقلية الى قسمين : إلى احكام عقلية مستقلة لا يتوقف ادراكها على غير العقل مثل حسن العدل وقبح الظلم فان الشارع هنا لابد ان يحكم على طبق هذا الادراك العقلي . وقسم يتوقف إدراكها على معونة الشارع مثل الملازمة بين وجوب ذيها والملازمة بين الامر بالشيء والنهي عن ضده الخاص بناء على ذلك وتسمى (بالاحكام العقلية غير المستقلة) لان العقل لا يمكنه استكشاف حكم الشارع بوجوب مقدمة ما لم يصدر من الشارع حكم بوجوب ذي المقدمة وصاحبها ولذلك فان العقل يحكم بذلك بناء عليه يتوسط البيان الشرعي (٣) .

---

(١) راجع (المعالم الجديدة للاصول) ص ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٢ للحجة المحقق السيد محمد باقر الصدر .

(٢) هناك بحث للشيخ محمد مهدي الاصفي في كتاب (المدخل إلى التشريع الاسلامي) ابرز فيه هذا الجانب باسلوب اجتماعي مفصل .

(٣) يراجع الجزء الثاني من كتاب اصول الفقه للشيخ محمد رضا المظفر .

واين هذه الاحكام العقلية من الادراكات الظنية الناقصة لملاك الاحكام واهداف التشريع التي توجب هدم كثير من معالم تلك الاحكام واهداف ذلك الدين مثل الاستحسان والقياس (فان السنة إذا قيست محق الدين) على ماورد في رواية إبان بن تغلب عن الامام الصادق (ع) فى رواية مفصلة (١) .

واذا اتضحت هذه النقطة بما نقلناه لك من المقتطفات علينا ان نبين ان التطور فى صورته العملية يمكن ان يظهر فى جانبين جانب المصاديق والافراد الزمانية الطولية او المكانية العرضية للتكاليف الاسلامية واحكامها الالزامية وجانب المباحات الاسلامية والتي احل الشارع مزاولتها وممارستها اما بالخصوص وهي المباحات التي ورد النص من الشارع على اباحتها بالخصوص بطبيعتها الأولية وعنوانها الاولى او المباحات التي لم ينص الشارع على اباحتها باطلاق او عموم او سيرة مثلا وكذلك المباحات المستحدثة التي لم تكن موجودة فى زمن النبي (ص) او الأئمة المعصومين لدخول هذه المباحات كلها تحت اطلاق حديث (رفع عن امتي ما لا يعلمون)

(١) راجع اصول الفقه الجزء الثالث من جهة الاهتمام بالتشريع والحساسية من امثال هذه الاستحسانات والقياسات ترى التفرقة الدقيقة بين قياس الاولوية وبين مفهوم الموافقة او العلة المنصوصة وهنا بحث مفصل يتعرض له علماء الاصول .

لان اطلاقه شامل للشبهات الوجوبية والتحريمية على تفصيل يذكر في محله في علم الاصول .

نعم لولي الأمر ان يغيرها إلى الالزام الوجوبي لضرورة ذلك في زمان مخصوص او إلى الالزام التحريمي لان ذلك العمل يكون مضراً بالمجتمع وكيانه الضروري في ذلك الزمان خاصة (وقد كان وضع الاسلام لهذا المبدأ ضرورياً لكي يضمن تحقيق مثله ومفاهيمه في العدالة الأجتماعية على مر الزمن (فللسلطة الاسلامية العليا إذن حق الطاعة والتدخل لحماية المجتمع وتحقيق التوازن الاسلامي فيه على ان يكون هذا التدخل ضمن دائرة الشريعة المقدسة فلا يجوز للدولة او لولي الأمر ان يحلل الربا ، او يجيز الغش ، او يعطل قانون الارث ، او يلغي ملكية ثابتة في المجتمع على اساس اسلامي . . وانما يسمح لولي الامر في الاسلام بالنسبة إلى التصرفات والاعمال المباحة في الشريعة ان يتدخل فيها فيمنع عنها او يأمر بها وفقاً للمثل الاسلامي للمجتمع . . وقد كان رسول الله (ص) يطبق مبدأ التدخل هذا ، حين تقضي الحاجة ويتطلب الموقف شيئاً من التدخل والتوجيه ، ومن امثلة ذلك ما جاء في الحديث الصحيح ـ عنه صلى الله عليه وآله وسلم ـ من انه قضى بين اهل المدينة في مشارب النخل : انه لا يمنع نفع الشيء وقضى بين اهل البادية : انه لا يمنع فضل ماء ليمنع فضل كلاء وقال

لا ضرر ولا ضرار (١) .

على ان ولي الامر في المجتمع الاسلامي لا يقتصر ميدانه في خصوص الالزام بالامور المباحة حينما تقتضيها المصلحة الاسلامية العليا وطبيعة العدالة الاجتماعية التي يريد الاسلام تحقيقها لمجتمعه بل يمكن ان يشمل الالزام في بعض افراد الواجب دون بعض(٢) ولعلنا نرى ذلك بوضوح في العهد العظيم الذي عهد به الامام علي امير المؤمنين عليه السلام إلى مالك الاشتر حين عهد اليه ولاية مصر ونفسه في مختلف المجالات فنرى فيه الامور المباحة (٣) التي يريد الامام من واليه تحقيقها لانها تساهم من قريب او بعيد في

---

(١) الوسائل ج ٣ كتاب احياء الموات في هذا الموضوع يراجع اقتصادنا الكتاب الاول ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

(٢) سواء كان التخيير بين افراد الواجب عقلياً او شرعياً على ما ذكر ذلك الاصوليون فيشمل الواجب التخييري الذي ورد من الشارع ما يدل على التخيير بين عدلي الواجب او خصاله والواجب التعييني الذي تتعدد مصاديقه ويكون التخيير بين افراده عقلياً لانها محصلة للغرض . كما يذكر الفقهاء في الجهاد الذي هو واجب كفائي على ما هو المعروف اذا نص الامام على احد افراد المسلمين ليدخل في الجيش كجندي او قائد او غير ذلك وجب عليه الذهاب إلى الجهاد .

(٣) نقصد بالاباحة المعنى الاعم الذي يشمل المستحب والراجح .

تحقيق الاهداف الاسلامية ومثله العليا او نرى فيه الامور الواجبة التى يريد الامام تحقيقها فى اظهر فرد واكمل صورة واتم مصداق يحقق الهدف الاسلامي الاعلى او يرشده إلى الطريق الذي يحقق فيه التشريع الاسلامي التطور الانساني العظيم فى درجاته الرفيعة فيبين له معالم الطريق ويفتح له المنافذ التى ينفذ بها اليه وقد تجتمع هذه الاهداف كلها او بعضها في نصيحة يقدمها الامام او امر يامر به الوالي لتحقيق الاهداف الاسلامية فى المجتمع بابعادها المتعددة وفي اطارها الموحد .

فنراه صلوات الله عليه يقول لواليه : (وليكن احب الامور اليك اوسطها في الحق واعمها فى العدل واجمعها لرضى الرعية فان سخط العامة يجحف برضا الخاصة وان سخط الخاصة يغتفر برضا العامة) (١) .

او يقول فى بيان وسيلة من وسائل الضمان الجماعي الذي اوجبه الاسلام (وتفقد امور من لايصل اليك منهم ممن تقتحمه العيون وتحقره الرجال ففرغ لاولئك ثقتك من اهل الخشية والتواضع فليرفع اليك امورهم ثم اعمل فيهم بالاعذار إلى الله يوم

(١) لا نحاول بيان رأينا او تحديد المقصود بكلمات الامام عليه السلام وانها من اي الاقسام التى تقدمت لان هذه الكلمات لها دلالتها الانسانية العظيمة فنوكل ذلك للقارىء ان ينهل منها ما يشاء .

تلقاه فان هؤلاء احوج إلى الانصاف من غيرهم وكل فاعذر إلى الله في تادية حقه اليه) (١) .

او يقول عليه السلام في مرحلة قد تكون اقل خطورة من هذه المراحل الاجتماعية المتقدمة وذلك فى وصية لواليه بما يتعاهد ولاته ومرؤوسيه من الاحسان اليهم وتفقد امورهم (ثم تفقد من امورهم ما يتفقد الوالدان من ولدهما ولا يتفاقن في نفسك شيء قويتهم به ولا تحقرن لطفاً تعاهدتهم به وان قل فانه داعية إلى بذل النصيحة لك وحسن الظن بك ولا تدع تفقد لطيف امورهم اتكالا على جسيمها فان لليسير من لطفك موضعاً ينتفعون به وللجسيم موقعاً لا يستغنون عنه) .

وهكذا يبلغ الاسلام القمة فيما يهدف اليه وسيبقى قمة الأنسانية واملها الذي لم تنله ولم تصل اليه لأنها ما زالت في طريق العذاب والنصب والنكد .

على ان المجتمع الاسلامي يتمكن من اختيار افضل السبل إلى الهدف الاسلامي وحكمه الذي يؤدي اليه ويقدر على تحقيق اتم المصاديق واكملها للموضوع الكلي الذي تعلق به الحكم الشرعي ليتحقق في ميدان الفرد والمجتمع والحياة ولنأخذ من الامثلة على

---

(١) قد تقدم في القسم الاول بعض البحوث في هذه القطعة من العهد .

ذلك هذه الآية العظيمة وهو قوله تعالى (واعدوا لهم ماستطعتم من قوة . . .) (١) او قوله تعالى (ولتكن منكم امة يدعون إلى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون) (٢) .

فان المجتمع المسلم على ضوء الآية الأولى يتمكن ان ياخذ عصارة العلم في مختلف فروعه وميادينه الصناعية والادارية والنفسية والاجتماعية وغيرها لكي يرهب به عدو الله وعدوهم فلا يتمكن العدو على ان يقف حائلا دون تحقيق الهدف الاسلامي الكبير او يحاول القضاء عليه بل إذا ذهبنا إلى ماذهب اليه بعض الباحثين المسلمين في ان الآية تلحظ القوة الاجتماعية الداخلية والقوة الخارجية في في المدى القريب وفي المدى البعيد والقوة التي تمنع العدو من التسلط على اوطانهم او ثرواتهم المادية والطبيعية او القوة التي تمنع العدو من الغزو الثقافي والسيطرة النفسية والتبعية الاجتماعية في مقدراتهم وكيانهم ومن هنا نشاهد العطاء الكبير والافاق الواسعة التي تفتحها هذه الآية المباركة امام الانسان المسلم والمجتمع الاسلامي عامة .

وكذلك الآية الاخرى في الدعوة إلى الخير والاسلام والأمر

---

(١) الانفال ، (٦١) .

(٢) آل عمران ١٠٢ .

بالمعروف والنهي عن المنكر يتمكن المجتمع المسلم على ضوئها ان يستهدي فى اعماله في هذه المجالات العظيمة بالطرق الايجابية البناءة والفكر المدروسة التي تحاول تحصين المجتمع المسلم بمختلف اصنافه وسني عمره من التيارات الوافدة الينا بمختلف اساليبها اللانسانية وقطع الطريق عليها فى الحاضر والمستقبل .

ومن هنا ندرك مدى ما يقدمه العلم من العطاء في هذا المجال ونرى بوضوح طريقة تعاون العلم مع الهدف الشرعي والحكم الاسلامي لتحقيق الهدف الانساني العظيم .

كما ندرك في نفس الوقت ان ما ذهب اليه بعض علماء الغرب من ان التقدم العلمي والتقدم الصناعي فى هذا القرن اوجب حدوث كثير من المشاكل المهمة والتعقيدات المستعصية التي ذهبت ببهجة الحياة وسعادتها وجعلتها عسيرة المنال بعيدة الغاية والطريق ولذلك فهو ينصح فى بعض مؤلفاته لكى نستعيد هذه البهجة وتلك السعادة بالعودة إلى البساطة فى إسلوب العيش والى اليسر فى طريقة الحياة .

اننا لا ننكر ان زيادة تكاليف المعيشة ونمط الحياة فى الوقت الحاضر وتزايد التعقيدات المادية ووسائلها قد اثقلت الانسان بمسؤولية كبيرة وجهد متعب قد تزيد خسارته على الربح المرجو منه فيفقد الهدف قيمته والغاية اهميتها وخصوصاً اذا نظرنا إلى هذه

الحقيقة من خلال الحياة المادية الحاضرة وما تحتوي عليه من جهود واتعاب ومشاكل .

ولكن ينبغي ان نشير الى حقيقتين مهمتين فى هذا المجال نتمكن بواسطتهما ان نضع ايدينا على اكبر قدر من المشكلة ونتمكن ايضاً ان نتبين معالم الطريق الذي يجنبنا هذه المشكلة الانسانية العسيرة

فالمشكلة انما نشأت فى ظلال العلم الحديث وفى جو التقدم الصناعي والمادي هذا لان ذلك العلم وهذا التقدم قد فقد المركز العقيدي الصحيح الذي يسيطر على التضيع والعلم المادي مهما كان جبروته وتقدمه ، وفقد ايضاً التشريع الصحيح الذي يفتح المنافذ والسبل لتحقيق عطاءه وخيراته وثمراته بلا اضرار بالجانب الانساني العظيم .

ولذلك فالاسلام يرى فى التقدم المادي الجبار المجرد عن هذا المحتوى وتلك الغاية انما هو بادرة من بوادر الكارثة البشرية الرهيبة (حتى اذا اخذت الارض زخرفها وازينت وظن اهلها انهم قادرون عليها اتاها امرنا ليلا او نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالامس) .

وحينما يعطى للعلم محتواه الصحيح ومفهومه الانساني العظيم امكن تلاحم الشريعة مع العلم والانسانية مع التقدم العلمي والصناعي مهما تنوعت مجالاته وفروعه ومهما اجتاز من مراحل ودرجات كبيرة

ونسأله تعالى ان يوفقنا للعودة إلى هذا الموضوع الخطير ونحن نتحدث فى قسم من القواعد العلمية المرتبطة به من مختلف الابحاث والمجالات والحمد لله رب العالمين اولا وآخراً .

تم الكتاب بعون الله تعالى

في هذا الكتاب

* إن إظفاء طابع التطور والتقدم على هذا القلق الفكري المتواصل انما هو تبرير لهذا التذبذب الشديد بين الافكار المتناقضة وتعطير ظاهري للمشكلة المزمنة التى لازمت الحياة الاوربية الحاضرة

* فليس التطور فى نظر الاسلام عملية تبديل مجردة وتغير اجوف .

بل هو إبداع وتغيير شامل يلمس كل جانب من حياتنا ضمن إطار التشريع الأسلامي واهدافه تجاه الفرد والمجتمع والحياة .

ثمن النسخة ٣٠٠ فلساً

مطبعة الآداب ـ النجف ـ تلفون ٨٩٨

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 099843797